بسام أبو شريف

ياسر عرفات



بسام أبو شريف

ياسر عرفات


رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

YASSER ARAFAT

By

Bassam Abu Shreef

First Published in December 2005

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb • www.elrayyes-books.com
• www.elrayyesbooks.com

ISBN 89953 21-228-7

رسم وتصميم الغلاف: حسن إدلبي
الطبعة الأولى: كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٥

المحتويات

المقدّمة

توارى العملاق ياسر عرفات. لكنه باق معنا نحن، وسيبقى مع الأجيال القادمة، وسيسجل التاريخ أن هذا العملاق، قاد الفلسطينيين من وضع مشرذم إلى وضع متّحد، ليقوم الجميع بقيادته بنفخ الروح مرة أخرى في قضية شعب ظلمه المستعمرون، واعتدى عليه الغزاة. فقد رسخ ياسر عرفات جذور شجر الزيتون في الأرض المقدسة. وأعاد لها هويتها الفلسطينية الكنعانية. وعبر المستنقعات وحقول الألغام، يقود شعبه في مسيرة العودة الطويلة.

ياسر عرفات أصبح عملاقاً لأن شعبه عملاق أيضاً. وأدار بحنكة وذكاء تلك العملية التبادلية بينه وبين شعبه، تلك العملية التي رفعت مكانته كقائد وزعيم

عالمي يشار له (حتى من أعدائه)، ورفع هو بقيادته الفذة والحكمة، والواقعية، من مكانة شعبه.

من عدم الاعتراف بحقوقنا، ومحاولة طمس وجودنا (لا بل أحياناً نفي هذا الوجود، كما كان يحلو لجولدا مئير أن تفعل)، نقل ياسر عرفات شعبه المناضل والمرابط إلى الاعتراف الدولي الكامل بحق هذا الشعب في إقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشريف.

رجل شجاع، عندما تتطلب الظروف شجاعة يصل إلى حد المغامرة، وحكيم إذا تطلب الأمر حكمة ومرونة حين تشتد العاصفة.

جدلي في تفكيره، ويربط عوامل صنع الوضع السياسي ربطاً جدلياً، مكنه من قيادة الفلسطينيين عبر المحن وتحت وطأة القصف التدميري، ومحاولة تهشيم ما بناه هذا الشعب من مؤسسات، إلى شاطىء الدولة المستقلة.

عندما التقيته في الكرامة، قبل المعركة الأولى بعد هزيمة حزيران، رأيت فيه ذلك الإنسان الذي يمتلك نظرة ثاقبة ورؤية بعيدة المدى، لمعنى أن نخوض معركة ضد جيش تمكن من الانتصار على جيوش مصر وسورية والأردن في حرب ١٩٦٧.

دار نقاش حول «ما العمل» أمام الغزو الإسرائيلي المعد للأغوار لتدمير القواعد الفدائية التي أقيمت هناك.

كان واضحاً:

يجب أن نلقن العدو درساً ونعطي أشقاءنا مثلاً مهما كان الثمن، نحن حفنة قليلة أمام جيش الجبروت لكن كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بدعم من الله تعالى.

إن قرارنا بالمواجهة سيعني الكثير، ليس على الصعيد الفلسطيني بل لكسر طوق الهزيمة الذي أحاط برقاب الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج.

سوف نحدث التغيير، ونعلم الجميع أن بإمكاننا أن نواجه، مهما بلغت قوة العدو العسكرية وهكذا كان.

فقد شاهد المواطن العربي لأول مرة على صفحات الصحف وعبر شاشات التلفزيون الدبابات الإسرائيلية مدمرة وجنودها المقيدون بالسلاسل محترقون.

ونفضت الأمة العربية عن نفسها تراباً ثقيلاً من الإحباط والشعور بالذل والضعف، لأنها رأت في نتائج قرار العملاق بارقة أمل جديد.

من انتصار الكرامة انطلق العملاق ليرتفع بشعبه وليرفع مكانة شعبه في العالم.

في العام ١٩٤٨ قامت العصابات الصهيونية المسلحة بدعم من إنجلترا ودول أخرى، بتهجير مئات الآلاف من أهل فلسطين نحو الدول المجاورة، وتجاوزت عن سابق إصرار قرار التقسيم (تقسيم فلسطين إلى دولة لليهود ودولة للفلسطينيين) الذي اتخذ عام ١٩٤٧ في الأمم المتحدة، واحتلت كل الأرض الفلسطينية باستثناء

قطاع غزة والضفة الغربية.

ومنذ الهزيمة التي أنزلتها إسرائيل بالجيوش العربية «مصر، سورية، الأردن» في حزيران من العام ١٩٦٧، أتيح للفلسطينيين، ولأول مرة منذ العام ١٩٤٨ أن يمسكوا بأيديهم زمام قضيتهم وتم تحويل مركز القرار الفلسطيني إلى الفلسطينيين.

ومنذ حزيران ١٩٦٧ بدأ اسم ياسر عرفات بالبروز تدريجياً حتى أصبح القائد والرمز.

ففي العام ١٩٦٧ برز في الاجتماعات التي عقدت في دمشق، لإنشاء جبهة فلسطينية موحدة لخوض الكفاح المسلح ضد الاحتلال الإسرائيلي.

وعندما اختلفت قيادة فتح حول اختيار قائد لفتح، تسلل ياسر عرفات للأرض المحتلة، وأمضى أسابيع طويلة، ينظم صفوف حركة فتح هناك، وعاد ليقود (حركة فتح دون منازع) ونُشر بيان مقتضب في العام ١٩٦٨، في الصحف اللبنانية يعلن أن «ياسر عرفات هو الناطق الرسمي الوحيد باسم حركة فتح»، ونشرت له صورة يضع فيها نظارات سوداء تخفي عينيه.

هكذا يعرف المتابعون بداية مسيرة ياسر عرفات. لكن ياسر عرفات كان قد بدأ مسيرته قبل ذلك، فقد التحق كمتطوع في حرب ١٩٤٨ مع القوات المصرية، كما انضم للمقاومة المصرية أثناء الغزو الثلاثي البريطاني، الفرنسي، الإسرائيلي، لقطاع غزة وسيناء وقناة السويس.

أسس ياسر عرفات تنظيماً طلابياً، ضم الطلبة الفلسطينيين الملتحقين بالجامعات المصرية، واستأجر مقراً لهذا التنظيم الطلابي، ليكون خلية عمل دفاعاً عن حقوق الشعب الفلسطيني. (تحولت رابطة الطلبة الفلسطينيين إلى الاتحاد العام لطلاب فلسطين الذي يضم كافة الطلبة الجامعيين الفلسطينيين في شتى أنحاء العالم).

وبعد نيله شهادة الهندسة، توجه إلى الكويت للعمل هناك كما كان يفعل معظم الفلسطينيين، الذين يتخرجون من الجامعات، فقد ساهم هذا الجيل من الفلسطينيين المتعلمين في بناء الخليج العربي مساهمة كبيرة.

ولم تغب فلسطين عن ذهنه لحظة.

إذ نشط أثناء عمله في الكويت لتكوين حركة فلسطينية هدفها تحرير فلسطين عبر الكفاح المسلح، كما فعلت شعوب أخرى لتحرير أوطانها.

وبقي يتابع إنشاء هذه الحركة أثناء عمله في الكويت، وتنقله في البلدان العربية، لتجنيد الفلسطينيين لحركة التحرر الوطني الفلسطيني (فتح).

وفي العام ١٩٦٥ قررت الحركة بدء عملياتها والإعلان عن برنامجها.

فغادر ياسر عرفات الكويت إلى المشرق العربي (سورية

ولبنان)، وتعرض للملاحقة والاعتقال أكثر من مرة.

لكن الظروف التي ساعدت على الانطلاق الحقيقي والواسع لهذا العمل الوطني التحرري، كانت ظروف ما بعد هزيمة حزيران.

إذ لم تعد أجهزة الدول العربية المحيطة بفلسطين قادرة عملياً، ومعنوياً وسياسياً على ملاحقة الذين يعملون لتطوير الكفاح المسلح لتحرير فلسطين. وكانت فرصة التقطها المناضلون ومنهم ياسر عرفات للانطلاق. ولم تعد مبررات «عدم التوريط» قائمة. فقد احتلت إسرائيل ما تبقى من فلسطين (الضفة الغربية وقطاع غزة) وسيناء والجولان. وبهذا سقطت كل ذرائع منع العمل المسلح أو النشاط التنظيمي الرافد للعمل المسلح. كما سقطت ذرائع منع نقل السلاح الخفيف إلى الجبهات.

ياسر عرفات وزملاؤه قيادات المنظمات التي رفعت شعار الكفاح المسلح كانوا يعلمون تمام العلم أن هذه الفرصة مؤقتة، وسرعان ما تزول بإعادة بناء الدول المحيطة بفلسطين أجهزتها وجيوشها.

فأصبح عامل الوقت عاملاً مركزياً في عملهم، لبناء شبكة المقاومة المسلحة داخل الأرض الفلسطينية المحتلة وقواعد الإسناد خارجها.

حتى تلك اللحظة كانت التنظيمات الفلسطينية التي تدعو للكفاح المسلح، وتعمل لتهيئة البنية التحتية له، تعتبر خارجة عن قانون الدول العربية.

ففي العام ١٩٦٤ أنشأت جامعة الدول العربية منظمة التحرير الفلسطينية، وجيش التحرير الفلسطيني اللذين بقيا تحت سقف القرار العربي بشأن الصراع العربي — الإسرائيلي.

ونالت «م.ت.ف» اعتراف الدول العربية ودعمها، وتعاملت معها الدول العربية كممثل للشعب الفلسطيني.

وضع ياسر عرفات نصب عينيه السيطرة على منظمة التحرير الفلسطينية، التي شكلت إطاراً معترفاً بشرعية تمثيله للشعب الفلسطيني.

وكان أمر قيادة الكفاح المسلح غير محسوم في تلك الفترة. فقد شكلت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قطباً التف حوله الآلاف. وكانت الجبهة الشعبية تحظى بدعم من مصر والعراق في الوقت الذي كان زعيمها الدكتور جورج حبش يرزح في سجن «الشيخ حسين بدمشق».

من هنا رأى ياسر عرفات بنظرة ثاقبة أن الهيمنة على «م.ت.ف» سوف تعطي فتح دفعة كبيرة على طريق قيادة «الثورة».

وفي الوقت الذي كان يخطط فيه ياسر عرفات للهيمنة على منظمة التحرير الفلسطينية، خرجت الجبهة الشعبية بموقف يرفض الانغماس في تشكيل المجلس الوطني الفلسطيني الجديد، الذي سينتخب قيادة فلسطينية جديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية. والتقط ياسر عرفات

موقف الجبهة الشعبية (الثوري) ليسيطر على «م.ت.ف»، وهكذا تحولت «م.ت.ف» (الشرعية والمعترف بها) إلى هيكل كبير لحركة فتح.

وانتخب ياسر عرفات رئيساً للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية (وهي عضو كامل في جامعة الدول العربية)، فأمسك ياسر عرفات بذكاء وحنكة بالموقع الشرعي والمعترف به، وبموقع الكفاح المسلح على الأرض، وما زال يمسك بهما. وتمكن في معظم الحالات والظروف من ربط الموقعين، أو الفصل بينهما بذكاء، مما وفر له أكبر قدر ممكن من الدعم والحماية، واستخدم في اللحظات الحرجة الموقعين، الواحد ضد الآخر، ليخلق ربطاً فاعلاً، كان في معظم الحالات يمكّنه من اتخاذ القرار الذي سبكه في ذهنه.

إذ كان عندما يواجه موقفاً معارضاً في صفوف قيادة فتح (اللجنة المركزية)، كان يلجأ للجنة التنفيذية، ويستخدم رأيها للضغط على قيادة فتح، والعكس كان أيضاً صحيحاً، إذ عندما تعارض اللجنة التنفيذية كان يستخدم قرار فتح للضغط على اللجنة التنفيذية.

واحد من عمالقة العالم السياسيين وأصبح العملاق بعد وفاة جواهر لآل نهرو، وجمال عبد الناصر، وجوزيف بروز تيتو، وأنديرا غاندي.

ونقول العملاق، لأن ما واجهه ياسر عرفات في قيادة شعبة نحو الحرية والاستقلال، لم يواجهه عملاق آخر

من عمالقة العالم، رغم أن ما واجهوه صعب ومعقد وتطلب تضحية عظيمة.

كون ياسر عرفات عملاقاً سياسياً، ينبع من كون قضية شعب فلسطين القضية الأعقد في تاريخ البشرية، وينبع أيضاً من ضخامة معسكر أعداء القضية الفلسطينية والفلسطينيين، وتكالب هذا المعسكر لتشتيت وتفتيت الشعب الفلسطيني وإذابة هويته الوطنية.

فقد كبر ياسر عرفات بكبر قضية شعبه ونهض شعبه بفضل قيادته وحنكته السياسية، وقدرته على عبور حقول الألغام، التي زرعت في طريق النضال الفلسطيني في كل مكان، وفي كل اتجاه.

وكلما حوصر ياسر عرفات وقوات الثورة خارج فلسطين، هب الفلسطينيون للنصرة. وكلما اشتعلت نار الثورة داخل الأرض المحتلة، تتحرك قيادة الثورة لإسناد انتفاضة الشعب. تناغم وتضافر ووحدة دون رابط جغرافي، صنعوا المعجزات وشقوا طريق الصخر.

المشاهدون في الغرب، عندما يشاهدون ياسر عرفات، لا يخرجون بانطباع صحيح عن شخصية هذا الرجل. خاصة عندما يتحدث باللغة الإنجليزية ــ فهو لم يدرس في إنجلترا أو الولايات المتحدة ليتقن اللغة واللهجة كما يتقنها بنيامين نتنياهو مثلاً.

لكن الذين قابلوا ياسر عرفات ذهلوا لأن الانطباع مختلف جدا، فشخصيته تأسر، وأدبه الجمّ وكرمه

وسرعة بديهته تلعب دوراً أساسياً في رسم الانطباع عند الآخرين.

ياسر عرفات حازم وصارم عندما يبت بأمر بالمهام والعمل والإنجاز.

وهو دمث ولطيف ومهذب مع ضيوفه وزواره من سياسيين وإعلاميين وقادة ومواطنين. حنون على الضعفاء، يحب الأطفال ويحمي النساء اللواتي يتعرضن للظلم.

ياسر عرفات مسلم ومؤمن، لا يقطع فرضاً، لكنه منفتح الذهن ومتسامح ويؤمن بالتعايش والتوحيد.

أمين على ما عهد به إليه، ويتعامل مع المواطنين سواسية، مسيحيين كانوا، يهوداً، أم مسلمين.

جريء عندما يتطلب الظرف ذلك وأحياناً تصل جرأته حد المجازفة. لكنه حكيم في الوقت ذاته ويحسب للأمور حسابها. شجاعته ليست موضع نقاش، فالكل يعرف أنه خاض ويخوض معارك شعبه بروحه وعقله وجسده، وهذا ما أكسبه احتراماً وهيبة لدى شعبه منذ معركة الكرامة، مروراً بمعارك أيلول ١٩٧٠ في الأردن، ومعارك لبنان العديدة وأهمها غزو شارون للبنان ومحاصرة قيادة الثورة وقيادة الحركة الوطنية اللبنانية في بيروت العاصمة.

حسه الأمني خارق لدرجة كبيرة، ولا يعتمد في ترتيباته

الأمنية إلا على نفسه وجهاز من حرسه الخاص، ينتقي أعضاءه بحذر شديد، ويخضعون لتجربة طويلة.

نجا من عدة محاولات اغتيال حاولت الأجهزة الإسرائيلية القيام بها، وكذلك الطيران الحربي الإسرائيلي. وتراوحت هذه المحاولات من محاولة دس السم له في بيروت إلى قصفه في شوارع بيروت بطائرات «ف. ١٦» إلى محاولة تدمير مقره برام الله فوق رأسه.

لكنه نجا من كل ذلك بحسه الأمني الخاص، وبسرعة تحركه، وتنقله من مكان لآخر.

ياسر عرفات متواضع وخجول جداً، ونادراً ما يسمح لنفسه بالضحك. فهو متواضع أمام المتواضعين، لكن كبرياء شعبه المناضل تنتصر دوماً. عندما يواجه مواقف يشعر فيها أن شعبه تهضم حقوقه، أو يهان، يثور عندها لكرامة شعبه، ويتخذ مواقف تتميز بالكبرياء والعزة.

فكم من مرة رأيته يثور كبرياءً أمام رؤساء وملوك تعاملوا مع شعبنا ونضاله تعاملهم مع شعب مهيض الجناح.

يجلس على الأرض ليتناول الطعام مع المقاتلين، ويتصرف حسب البروتوكول على موائد الملوك والرؤساء. يقاتل في خنادق المناضلين ويتفقد حرس الشرف الرئاسي عندما يقوم بزيارة رسمية لدولة من الدول. وهو خجول كما قلت ومهذب. يقف دائماً عندما يصافح امرأة أو فتاة كما يركع ليعانق طفلاً أو

طفلة. وعندما يتجرأ أحد المساعدين على رواية نكتة من النكت، تراه يضحك بخجل واضعاً كفه على فمه، كأنه يريد أن يخفي ضحكته. يهوى رؤية أفلام الكارتون المضحكة والمسلية وكذلك المسرحيات.

على مائدته يحرص أن يأكل الآخرون قبله، وغالباً ما يمد لضيوفه الطعام، ويستحسن لهم أصنافاً منه وعندما يريد أن يكرم أحدهم بشكل خاص يقتطع من صحن «الحلاوة» الخاص به، شرحة ويقدمها لضيفه أو يناوله لقمة من خبز القمح الصافي مغمسة بالعسل الصافي، (الذي يحبه عرفات).

وياسر عرفات لا يدخن، ولا يشرب الكحول، ويحافظ على نظام طعام صارم. يحب تناول السمك، ومن الفواكه يحب الجوافة، وفي الصباح يتناول الخضار والذرة الصفراء.

بين الحين والآخر، يحب ياسر عرفات أن يتناول صحناً من الحلوى، وأهم الحلوى لديه ما يسمى «أم علي».

لكنه زاهد جداً بشكل عام في طعامه ولباسه.

منذ أن غادر الكويت، لم يلبس ياسر عرفات سوى لباس المقاتلين إلّا عندما كان يضطر للتنكر أو التخفي، ويرفض أن يكون لباسه العسكري لباساً خاصاً، بل يختاره من اللباس الذي يوزع على المقاتلين.

وأذكر أنني أهديت له معطفاً عسكري اللون لأنه كان

على وشك التوجه إلى موسكو في زيارة رسمية، ولم يكن لديه معطف حقيقي يقيه برد وصقيع موسكو. احتج في بداية الأمر كون المعطف ثميناً.

فقلت له إن برد موسكو شديد ولا يمكن لثيابك العادية أن تقيك من بردها.

وبعد تردد قرر أن يلبس المعطف، والذي حماه من برد موسكو.

وعرفات لا يحب الطقس البارد ويتحاشاه، ويحب الجو الحار خاصة عندما يخلد للنوم. وأذكر أننا كنا نعاني الأمرّين من حر بغداد، خاصة في الليل، فقد كان الرئيس عرفات يأمر بإيقاف التبريد المركزي عندما يتوجه لغرفة النوم، وكنا نحن نعاني بينما هو يغطي نفسه، دون تبريد بعدة بطانيات.

يحب الجمال ويعجب به سواء كان جمال البشر أو الطبيعة أو الفن.

كان يرتاح ويسر عندما يرى أن من يرافقونه يتمتعون بالأناقة والشكل الجيد. ومصدر السرور، كما أحلله، هو أنه كان يفتخر أمام الآخرين بالشباب الفلسطيني الكفؤ والأنيق.

لا يحب السمنة، ولا يفلت ضابط من ضباط الجيش من تعليقه اللاذع، إذا لاحظ أن وزنه زاد عن الحد المقبول، ولا يتردد في إبداء ملاحظة حول الوزن، إذا

لاحظ زيادة فيه لدى أي من مساعديه أو وزرائه أو مستشاريه. ويعجب ياسر عرفات بالمرأة الجميلة ولا يتردد في إبداء ملاحظة تمدح جمالها أو أناقتها بتهذيب شديد، فهو يعلم أن هذا المديح سوف يثلج صدر المرأة ويجعلها سعيدة.

قلائل هم الذين شاهدوا ياسر عرفات يمسك بالإبرة والخيط ليغلق ثقباً في جرابه. وأنا أحد هؤلاء القلائل. وعندما سألته لماذا تفعل ذلك؟

قال: حتى لا أرمي الجراب وحتى أستخدمه مدة أطول، ولأن هذا العمل يريح أعصابي قليلاً، لأنه يبعدني عن العمل الذهني.

خلال السفرات البعيدة، ينام ياسر عرفات ملء جفنيه في الطائرة، ولا يستيقظ حتى حين تهتز اهتزازاً مقلقاً. ويستيقظ قبل الهبوط بنصف ساعة ليستعد للعمل.

أذكر أننا أقلعنا للجزائر من تونس في جو عاصف جداً. وكان المرحوم عبد الرحيم أحمد ضمن الوفد المرافق للرئيس الذي أخلد للنوم على مقعده. اهتزت الطائرة اهتزازاً شديداً، وفجأة هوت الطائرة عشرات الأمتار مما أفقد الجالسين توازنهم. وعندها فتح ياسر عرفات عينيه وقال «ماذا حصل؟».

أبلغوه بأن مطباً هوائياً كبيراً واجهنا، وأن الأمور الآن على ما يرام.

فأغلق عينيه ثانية وأخلد للنوم.

وقرر عبد الرحيم أحمد ألّا يعود على نفس الطائرة الصغيرة إلى تونس وأن يتوجه بطائرة تجارية كبيرة.

وعرفات مثقف ثقافة عالية من خلال مطالعاته وخلفيته العلمية (كمهندس)، والأحب له ربط معلوماته وثقافته ربطاً مفيداً بالواقع السياسي، وبالصراع دولياً وإقليمياً ومحلياً، فمعرفته بالتاريخ كبيرة، ومعرفته بتفاصيل بعض فصول التاريخ مذهلة. وكنت أستمتع بالإصغاء له عندما يسرد قصصاً تاريخية ترتبط بالبلدان التي نطير فوقها، ونحن متوجهون في زيارة لبلد ما. سرد لنا مرة تاريخ الأسطول اليمني (حضرموت) وكيف وصل إلى إندونيسيا وسنغافورة. وتحدث عن وسط مدينة سنغافورة وكيف أن اليمنيين حولوه إلى وقف يمني حتى لا يشتريه الصينيون الذين كان يدفعون بموجات بشرية كبيرة نحو سنغافورة.

وبقيت مباني وسط المدينة في سنغافورة حتى اليوم وقفاً إسلامياً يمنياً.

وتحدث حول «موزامبيق» ولماذا يطلقون عليها هذا الاسم؟ فالقائد العربي الذي نزل إلى شواطئها كان يدعى موسى بن شفيق ومع الزمن لفظ اسم موسى بن شفيق موزامبيق.

لم أكن أعرف هذه المعلومات ودهشت وسررت لسماعها.[1]

واكتشفت أن ياسر عرفات كان يلم بعادات وتقاليد كل بلد من البلدان التي زارها، وأنه كان يلم بوضعها الاقتصادي، ومشاكلها الاجتماعية والطائفية والسياسية.

وعلى سبيل المثال كان يلم إلماماً كاملاً بتاريخ وتقاليد القبائل الأفغانية، وتناقضات أفغانستان الطائفية وتناقضاتها القبلية، وكان يلم بأسماء أمراء القبائل ومنافسيهم، أو صلات القربى بينهم. كان مدهشاً بالفعل.

يلم ياسر عرفات بتاريخ اليهود، ومدارس الفكر الصهيوني، إلماماً كاملاً عبر التاريخ الطويل. ويدهش في كثير من الأحيان زواره من اليهود بعمق معرفته هذه.

وبطبيعة الحال يلم ياسر عرفات بتاريخ فلسطين إلماماً كبيراً جداً، ويعرف تفاصيل نضال هذا الشعب على مدى قرون. وكيف واجه هذا الشعب الغزوات الكبرى التي تعرضت لها فلسطين.

هذه الصفات المميزة، والمعرفة الواسعة، والخلفية العلمية لدى ياسر عرفات مكنته، استناداً لنضال شعبه، من أن يصبح عملاقاً من عمالقة الحرية والتحرر في العالم.

وحافظ ياسر عرفات دائماً على العلاقة الوثيقة بصفوف الشعب، وقدرته القيادية على اتخاذ قرارات حاسمة (وإن لم يعجب بها الشعب لفترة من الوقت) مكنته من الصمود والاستمرار.

(١)

القيادة على أرض المعركة

في الخامس من حزيران ١٩٦٧ ألحقت إسرائيل بالدول العربية هزيمة كبيرة. فقد دمرت ـ خلال ساعات ـ السلاح الجوي لكل من مصر وسورية والأردن، واجتاحت دون عقبات، سيناء والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة واحتلتها.

وساد في العالم العربي جو من الكآبة والإحباط والشعور بالذل، وراحت إسرائيل تتباهى بعدوانها واحتلالها للأراضي العربية، وطأطأ العرب رؤوسهم خجلاً وحنقاً.

وحاولت الجماهير التعبير عن هذا الحنق، والشعور بالذل بالخروج بمظاهرات عارمة، استهدفت السفارات الأميركية والبريطانية في الشرق الأوسط، وذلك تعبيراً عن قناعتها بأن هذه الهزيمة ما كانت لتلحق بمصر وسورية والأردن، لولا

مساعدة الولايات المتحدة وبريطانيا لإسرائيل.

كنت آنذاك كادراً من كوادر حركة القوميين العرب، التي أسسها الدكتور جورج حبش ولفيف من زملائه، منهم الدكتور وديع حداد، والدكتور أحمد الخطيب (الكويت)، وهاني الهندي (سورية)، وباسل الكبيسي (العراق)، وكانت معهم قيادات من ليبيا ومصر والمغرب والجزائر والأردن واليمن والسعودية.

وإثر تلك الهزيمة، اجتمعت اللجنة التنفيذية لحركة القوميين العرب في بيروت، في شهر تموز/يوليو من العام ١٩٦٧، لتناقش الوضع الخطير الذي آلت إليه الحالة العربية.

واتخذت قرارات عديدة، كان أهمها قرار تحويل الحركة من حركة مركزية التوجيه إلى حركة لا مركزية، تتولى قيادة كل إقليم (في ظل النظام الجديد) أمور الإقليم، ورسم برامجه، ووضع الآلية المناسبة لتنفيذ البرنامج القطري.

وأن تتولى أمانة عامة برأسها الدكتور جورج حبش التنسيق والتعاون والدعم المتبادل بين قيادات الأقاليم والأقطار.

وعليه فقد صدر الأمر من اللجنة التنفيذية للحركة بفرز شامل في صفوف الحركة، بحيث يلتحق كل عضو بإقليمه، وتم ذلك من القاعدة للقمة. كانت الخلايا عربية الطابع، أي كنت تجد مثلاً في خلية من خلايا حركة القومين العرب «بحريني وقطري وفلسطيني ومغربي».

وبعد قرار اللجنة التنفيذية أصبح لزاماً على القطري أن يلتحق بخلية قطرية لتنفيذ برنامج قيادة إقليم قطر، وهكذا.

وفرز الفلسطينيون لخلاياهم الفلسطينية، وأصبح لزاماً على قيادة إقليم فلسطين أن ترسم برنامج عمل وآلية تنفيذه.

وكانت حركة القوميين العرب قد فكرت بالكفاح المسلح منذ النكبة، وأنشأت عدة تنظيمات لم يكتب لها النجاح، مثل كتائب العودة في أوائل الخمسينيات. لكنها بدأت بالتحضير الجدي للكفاح المسلح منذ عام ١٩٦٤، فأنشأت تنظيم «شباب الثأر» وتنظيم «أبطال العودة».

لكن التنسيق مع الرئيس الخالد جمال عبد الناصر، أبقى هذه التنظيمات ضمن شعار «فوق الصفر تحت التوريط».

ذلك أن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، صارح قيادة الحركة بأن مصر غير جاهزة لمواجهة حرب مع إسرائيل في تلك الظروف وفي ذلك الزمن. فاكتفت الحركة بتدريب الكوادر والأعضاء عسكرياً (معظمهم في معسكرات تدريب في مصر وسورية)، وبالاستطلاع وتخزين الذخائر والسلاح داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة.

واستشهد خلال تلك العمليات الاستطلاعية والتخزينية عدد من الشباب.

لكن هزيمة ١٩٦٧ غيرت كل الموازين وألقت بشعار «فوق الصفر

تحت التوريط» جانباً. وتسلم قيادة إقليم فلسطين الدكتور جورج حبش والدكتور وديع حداد.

وبدأت عجلة العمل تدور. آلاف من الشباب دربوا ويعرفون كيف يستخدمون السلاح. وبدأ البحث يدور حول الشكل الذي سيتخذه الإقليم الفلسطيني لبدء القتال ضد الاحتلال. وتم الاتفاق على الدعوة لتوحيد كافة الفصائل الفلسطينية التي رفعت وترفع شعار الكفاح المسلح طريق تحرير فلسطين. وتم ذلك بعقد اجتماع نهاية شهر تموز/يوليو من العام ١٩٦٧ في دمشق. وشارك آنذاك في الاجتماع: فتح، شباب الثأر، أبطال العودة، وجبهة التحرير الفلسطينية (بقيادة أحمد جبريل).

وبدأ الحوار لتوحيد كافة التنظيمات في جبهة فلسطينية واحدة لمواجهة الاحتلال. ونجحت الفصائل في وضع برنامج عمل مشترك، وحدد موعد لاجتماع نهائي، يعلن بعده قيام الجبهة الوطنية الفلسطينية لتحرير فلسطين. وفي الموعد المحدد لذلك الاجتماع، لم يحضر ممثلو فتح.

فأعلن عن تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي ضمت جبهة التحرير الفلسطينية (أحمد جبريل) وشباب الثأر وأبطال العودة وترك الباب مفتوحاً لكل من يرغب في الانضمام للجبهة الجديدة.

ما الذي جرى؟ لماذا لم يحضر ممثلو فتح ذلك الاجتماع؟

في تلك الأيام عاشت قيادة فتح (اللجنة المركزية) صراعات داخلية حول القيادة ومسؤوليات أعضاء القيادة.

فهزيمة ١٩٦٧، منحت قيادة فتح الفرصة لتظهر للعلن بعد أن كانت سرية ومطاردة من معظم الدول العربية، خشية أن تورط تلك الدول في حرب مع إسرائيل.

وما إن بدأت اجتماعات التوحيد بين الفصائل في دمشق، حتى برزت مشكلة لم يفكر بها أحد من قيادات فتح، عندما كانت سرية الطابع.

من هو المسؤول؟؟

كانت فتح ضمن نظامها الداخلي، تعتبر أعضاء اللجنة المركزية سواسية ومتكافئين، ولهم نفس الحقوق والواجبات، وكان هذا ملائماً جداً في مراحل العمل السري منذ عام ١٩٦٥.

لكن الظروف اختلفت، وأصبح من الضروري أن يكون لفتح قائد، أو رئيس للهيئة القيادية وأصبح هذا ضرورياً، بشكل خاص، بعد أن طلبت المجموعة القيادية الصغيرة العدد، من فروع فتح (أساساً الخليج) إرسال مرشحيها للقيادة، وذلك لتوسيع صفوف القيادة، كي تكون قادرة على تحمل المسؤولية و متابعة العمل الذي أصبح ضخماً ومتشعباً.

ياسر عرفات كان الأنشط والأذكى والقادر على القيادة، لكن ذلك لم يتم بسهولة فقد رفض أعضاء في القيادة تسليمه الدفة.

وفي اجتماع عاصف سبق اجتماع الفصائل للوحدة الوطنية بيومين، غضب ياسر عرفات وخرج من الاجتماع.

وفي اليوم التالي، حاول زملاؤه الاتصال به عبثاً. وراحوا يبحثون عنه. فوجدوا في الغرفة التي كان يشغلها بدمشق ورقة صغيرة كتب عليها ياسر عرفات:

«القيادة في الميدان»

أي ميدان؟ الأرض المحتلة طبعاً.

في تلك الليلة، اتخذ ياسر عرفات قراراً أمام مواقف بعض زملائه في القيادة. اتخذ قراراً بأن يتسلل للأرض المحتلة.

كان ياسر عرفات قد فكر بذلك، حتى قبل نشوب خلاف حول من يقود فتح.

فعبر الحدود للأردن، والتقى بأخوة له قرب مدينة إربد، ومن هناك توجهوا جميعاً نحو غور الأردن. واقتربوا من نهر الأردن.

كان أخوته قد اختاروا له منطقة، كان بها غاطس نهر الأردن سطحياً وليس عميقاً. وعبروا جميعاً للجانب الآخر من غور الأردن ــ الضفة الغربية من النهر ولم يقفوا لحظة لالتقاط الأنفاس. فقد كان معلوماً أن السير من تلك النقطة إلى طوباس أو جوارها، يستغرق على الأقل عشر ساعات، وكان عليهم أن يختبئوا في مغاور معروفة للفلسطينيين، مرتسمة على طول تلك الطريق التي تتلوى من الغور (تحت سطح البحر) إلى جبال نابلس.

وحث الجميع الخطى.

وكلما تهالك أحدهم تعباً طلب بعض الراحة، كان عرفات ينظر له ويقول «الفدائي لا يتعب ــ شد حيلك قاربنا على الوصول».

بعد عناء وتعب شديدين، وصلت المجموعة لنقطة الاتصال مع قيادة تنظيم فتح في الضفة الغربية.

أخذ الجميع قسطاً جيداً من الراحة، وتناولوا الطعام، ثم انهال ياسر عرفات تخطيطاً لاستغلال الوقت، فقد كان يعلم أن الإسرائيليين سيعلمون بوجوده آجلاً أم عاجلاً، وأن عليه أن يستغل كل دقيقة لربط التنظيم وشده ومعرفة حاجاته وبالطبع لإعلامه أنه القائد.

تنقل ياسر عرفات من منطقة لأخرى، ومن قرية إلى أخرى، ونام في المغاور والبيوت وتحت الأشجار، وأوشك على استكمال عمله بعد ثلاثة أسابيع.

وفي ليلة من الليالي، كان عرفات نائماً في إحدى المغاور قرب رام الله، عندما هزت سقف المغارة جنازير مصفحة إسرائيلية، فهب هو ومن معه من النوم وراحوا ينصتون ــ كلام بالعبرية وأوامر تصدر وجنود يتحركون. أشار ياسر عرفات للمجموعة بوضع إصبعه على فمه، طالباً منهم عدم الكلام.

وانتظروا. وبدت الدقائق ساعات طويلة.

واستمر هذا الوضع قرابة ساعتين ومصفحات إسرائيلية، تقف على أرض هي سقف المغارة التي يختبىء بها ياسر عرفات.

وبدأت أصوات الجنود تتلاشى وهدير جنازير مصفحاتهم يختفي.

إنهم يغادرون.
رغم ذلك أشار ياسر عرفات للمجموعة بألا تتكلم.
وراح ينظر لساعته.

وبعد مضي نصف ساعة على مغادرة المصفحات والجنود ذلك الموقع أشار ياسر عرفات لأحد الإخوة (الذي كان من أهل البلد) أن يخرج ليراقب ويتأكد من عدم وجود أحد ففعل.

عاد أحمد للمغارة وقال: تجولت في المحيط، لا يوجد أحد، فقد غادروا.

ابتسم ياسر عرفات، ونظر إلى أخ آخر كان يفهم اللغة العبرية وسأله (رغم الاطمئنان) هامساً، هل فهمت ماذا كانوا يقولون؟

فأجاب: لقد فهمت معظم ما قالوه. كانوا يبحثون عن قائد تنظيم المخربين ولديهم أوصافه... إنه أنت؟؟

ابتسم ياسر عرفات مرة أخرى وقال:
يا إخوان «علينا أن نتوجه للقدس».
«القدس» صرخ الجميع بهمس.

أجاب نعم «القدس» يجب أن أغادر الضفة. لقد استكملت عملي وأتمنى لو كان بإمكاني البقاء هنا. لكن واجبي يفرض علي أن أهيئ

لكم العدة ورباط الخيل.

بحث الأخوة بين بعضهم البعض أفضل الطرق للوصول للقدس واختاروها.

قال ياسر عرفات: «هل نتوكل»؟

قالوا: أجل.

وتحرك الركب للقدس.

لم تسلك المجموعة الطرق الرئيسية، بل توجهت للقدس عبر طرق فرعية ملتوية، وعبرت مجموعة من القرى المحيطة بالقدس.

وصلوا في ساعة متأخرة من الليل مخيم عناتا الذي أقيم في قرية عناتا (إحدى القرى التي تشكل مدخلاً من مداخل القدس).

كان المخيم هادئاً وأنواره مطفأة ولا أحد في أزقته.

كان الجميع نياماً.

سارت المجموعة في زقاق من الأزقة يؤدي بنهايته لشارع جانبي يقودهم للقدس.

وفجأة سمع الجميع صرير شباك يفتح ببطئ، مفاصله صدئة.

وأطل نصف رأس من فتحة الشباك وهمس: من أنتم؟؟

فأجاب أحد الأخوة: «أصدقاء»

عاد الصوت يهمس: «هل تحتاجون لمساعدة؟».

فجاءه الجواب: كلا شكراً.

ثم تذكر ياسر عرفات شيئاً فقال له: هل تعرف كيف نصل لبيت أبو يوسف؟

فأجاب: إنه جاري.

عندها فتح الشباك كاملاً وأشار صاحب الرأس المطل من الشباك إلى بيت مقابل بيته.

شكره الجميع وتوجهوا للبيت المقابل.

استقبلهم أبو يوسف بالترحيب بعد أن بدت عليه علامات الدهشة والمفاجأة عندما رأى ياسر عرفات.

عانق ياسر عرفات عناقاً حاراً وأغلق الباب وراءهم بسرعة.

ابتسم ياسر عرفات وقال لأبو يوسف: جاهز يا أبو يوسف؟

سنبدأ العمل قريباً، أريد همتك وهمة الشباب.

فأجاب أبو يوسف: كلنا جاهزون.

ونظر إليه ياسر عرفات قائلاً:

الموضوع جاهز؟؟

فأجاب أبو يوسف: «طبعاً».

وأخرج من جيبه الداخلي هوية.

هوية القدس..

إنها هوية ياسر عرفات.

الصورة لياسر عرفات وباقي التفاصيل لقريب من أقاربه من سكان القدس.

شكره ياسر عرفات وقال: «في الصباح نتوكل على الله».

وهكذا كان.

في الصباح الباكر تحركت المجموعة باتجاه أريحا، وعبر ياسر عرفات نهر الأردن شرقاً، مستخدماً تلك الهوية التي لم يشك بها الإسرائيليون الذين كانوا يسهلون خروج الفلسطينيين من الضفة، ويصعبون دخولهم أو عودتهم.

وصل ياسر عرفات إلى دمشق بعد شهر من مغادرته لها، إثر ذلك الاجتماع العاصف. فقد أمضى في الأردن بضعة أيام لتنظيم الأمور، والإعداد لمرحلة جديدة من النضال ضد الاحتلال الإسرائيلي، فقد كان واضحاً لجميع الفصائل أن نهر الأردن سيكون المعبر الرئيسي للمقاتلين، والسلاح، والذخائر للأرض الفلسطينية المحتلة.

وعندما وصل إلى دمشق أبلغ زملاءه من قيادة فتح بوصوله من الأرض المحتلة فأسرعوا للسلام عليه وتهنئته بالعودة سالماً.

وقام ياسر عرفات بشرح مفصل لما قام به داخل الأرض المحتلة، وعن احتياجات التنظيم في الداخل وعما رتبه في الأردن. وقال لهم: حان وقت الجهاد، علينا أن نعمل بلا كلل.

كرس ياسر عرفات قيادته لفتح.. وفي اليوم التالي لذلك الاجتماع، نشرت الصحف في لبنان خبراً من عدة أسطر مع صورة صغيرة لياسر عرفات يضع نظارة سوداء.

كان الخبر إعلاناً بأن ياسر عرفات هو الناطق الرسمي الوحيد باسم حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح).

وبدأت مهمته الصعبة، وبدأ المشوار الطويل.

وكانت الخطوة الأولى البحث عن الأسلحة والذخيرة التي تركت في الجولان بعد أوامر الانسحاب التي صدرت للقوات السورية أثناء الحرب.

كان ذلك المصدر الأول للأسلحة والذخيرة.

قام عدد من الأخوة بهذه المهمة بعد أن دشن ذلك ياسر عرفات بسيارته «فولكسفاغن»، ليبث الحماسة في عروق الأخوة لجمع أكبر كمية ممكنة من السلاح، والذخيرة، ونقلها إلى غور الأردن ليتم تهريب الجزء الأكبر منها للضفة الغربية المحتلة، والاحتفاظ بجزء منها لقواعد الارتكاز في الأغوار.

(٢)

عندما خلع الرئيس عرفات ثيابه العسكرية ولبس دشداشة كويتية

بعد تصاعد العمليات الفدائية الفلسطينية ضد قوات الاحتلال الإسرائيلية، انطلاقاً من غور الأردن وعبر نهر الأردن، قررت القيادة الإسرائيلية شن هجوم بري وجوي واسع النطاق، لتدمير مواقع الفدائيين الفلسطينيين التي امتدت من شمال غور الأردن لجنوبه.

وجاءت نتائج هذه الحملة (معركة الكرامة) عكس ما توقع الإسرائيليون، فقد خسرت إسرائيل المعركة ودمرت دباباتها وشاهد المواطنون العرب، ولأول مرة منذ هزيمة حزيران ١٩٦٧، دبابات إسرائيلية مدمرة.

هزيمة حزيران ومناظر الطائرات الحربية العربية المدمرة فوق مدارجها، ومناظر الدبابات العربية المدمرة، وصور الجنود العرب الأسرى، هذه

المناظر التي كانت تبث على مدى أشهر منذ الهزيمة، لإحباط الجماهير العربية ولكسر معنوياتها وإشعارها في كل لحظة بذل الهزيمة.

لكن المناظر التي بثت لميدان معركة الكرامة أعادت جزءاً من كرامة العرب لهم. فها هي حفنة من المقاتلين المسلحين تسليحاً خفيفاً تلحق الهزيمة بالجيش «الذي أسمته أجهزة الإعلام الغربية: الجيش الذي لا يقهر».

وبدأ سيل عارم من المتطوعين الفلسطينيين والعرب وأحرار العالم، في التدفق على معسكرات الثورة الفلسطينية للالتحاق بالقتال ضد قوات الاحتلال الإسرائيلية. وكان هذا مصدر قلق شديد للحكومة الإسرائيلية والجيش الإسرائيلي. فقد تصاعدت العمليات حتى وصلت إلى معدل عشر عمليات فدائية يومياً، استهدفت الآليات العسكرية الإسرائيلية وجنود الاحتلال الإسرائيلي.

فقامت بشن حملة اعتقالات في جميع أنحاء الأراضي الفلسطينية المحتلة، وقررت اللجوء لأسلوب القصف الجوي، بدلاً من الحملات البرية التي كلفتها سابقاً الكثير.

الاستراتيجية الإسرائيلية الجديدة لم تقتصر على قصف مواقع وقواعد الفدائيين الفلسطينيين، بل استهدفت كافة القرى والبلدات القريبة من تلك المواقع في أوساط المدنيين ليمارسوا الضغط على الفدائيين للرحيل من مواقعهم القريبة من تلك القرى والبلدات.

وصعدت إسرائيل غاراتها الجوية، وكثفتها وصارت حدثاً يومياً.

وفي مواجهة ذلك خففت فصائل الثورة الفلسطينية من حجم القواعد القتالية وعدد المقاتلين، وتراجعت نحو التلال والجبال المطلة على غور الأردن، لكنها استمرت في شن عملياتها، التي أصبحت أكثر صعوبة لأن المسافة التي أصبح على الدوريات القتالية قطعها، مشياً على الأقدام، نحو نهر الأردن أطول بكثير، ولأن نقاط المراقبة الإسرائيلية، أتيح لها مزيد من الوقت لاكتشاف الدوريات القتالية المتقدمة نحو نهر الأردن عبر المزارع.

وازداد حجم المقاتلين الذين تمركزوا في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في عمان العاصمة وغيرها من المدن.

وأصبح للفصائل الفلسطينية مكاتب علنية ومقارّ قيادة في مدينة عمان مما بدأ يثير قلقاً لدى السلطات الأردنية، لأن هذا قد يعني أن تستهدف الغارات الإسرائيلية في المستقبل القريب عمان العاصمة ومخيماتها.

وبدأت حوادث الاحتكاك بين المقاتلين الفلسطينيين والجيش الأردني تتتابع، رغم النجاح في حل المشاكل الناجمة عن هذه الاحتكاكات، إلا أن التراكمات أدت إلى توتر شديد، وإصرار رسمي أردني على تنظيم العلاقة بحيث تحرم إسرائيل فرصة توجيه ضربات جوية لعمان.

اتفاق يتلوه اتفاق.

وسرعان ما تنتهي الاتفاقات إلى فشل.

ومع مرور الوقت تبلور تياران متطرفان سبّبا مزيداً من الاحتكاك والتوتر، المتطرفون في الجانب الأردني بدأوا العمل لافتعال الاحتكاك، ونشر الشائعات حول أعمال مخلة بالنظام، وأمن المواطن الأردني، يرتكبها مقاتلون فلسطينيون، ومتطرفون فلسطينيون راحوا يرفعون شعارات غير مقبولة فلسطينياً وأردنياً مثل شعار «السلطة كل السلطة للمقاومة».

وشهد شهر حزيران/يونيو من العام ١٩٧٠ تصعيداً غير مسبوق، ودارت اشتباكات واسعة استخدم فيها الجيش الأردني الدبابات والأسلحة الثقيلة. مما حدا بفصائل المقاومة على شن هجوم مضاد، خرج خلاله المقاتلون نحو شوارع عمان وسيطروا على فندق الأردن (إنتركونتننتال) الذي كان مزدحماً بالأجانب والزوار والصحافيين.

وقاموا باحتجاز الجميع كرهائن وهددوا بقتلهم ونسف الفندق إن لم توقف السلطات الأردنية هجومها.

وعقد الأمين العام للجبهة الشعبية مؤتمراً صحافياً في الفندق، ليشرح أهداف العملية والمطالب الفلسطينية.. وتوقف القصف ورضخ الجانب الأردني للمطالب ولكن على مضض.

لكن «القشة التي قصمت ظهر البعير» كانت عملية اختطاف الطائرات وإنزالها في مكان من صحراء الزرقاء. الذي أطلق عليه اسم «مطار الثورة».

مئات من الرهائن الأجانب والإسرائيليين احتجزوا في مطار الثورة، الذي كانت القوات البريطانية قد استخدمته أثناء الحرب العالمية

الثانية كمهبط للطوارئ، وأطلق عليه اسم «دوسون فيلد».

وتتابعت الأحداث الخطيرة بسرعة شديدة.

قامت إسرائيل باحتجاز مئات من أقارب قادة الجبهة الشعبية داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة، ووجهت إنذاراً للأردن مفاده أن إسرائيل ستضطر للقيام بعملية كبيرة لتحرير الرهائن إن لم يقم الأردن بذلك.

وأبلغت الولايات المتحدة بذلك. وبحث الملك حسين الأمر مع الرئيس جمال عبد الناصر، الذي رأى بوضوح التعقيدات والمخاطر الناشئة عن ذلك الوضع. واتفق مع الملك حسين على ضرورة أن يقوم الأردن بعملية محدودة مع بذل جهود مصرية سياسية لحل الإشكالات، تفادياً لتدخل إسرائيل.

لكن العملية الأردنية كانت أوسع وأقسى بكثير مما اتفق عليه، واستنفر الأسطول السادس الأميركي خلال الاشتباكات التي حصلت لاحقاً بعد تشكيل حكومة عسكرية أردنية كانت إنذاراً ببدء الهجوم.

ما إن شكلت الحكومة العسكرية في الأردن في السادس عشر من أيلول/سبتمبر عام ١٩٧٠، حتى بدأ القصف المدفعي وهجوم الدبابات على مواقع منظمة التحرير الفلسطينية، والتنظيمات الفلسطينية، في مخيمات عمان وضواحي المدينة وفي المدن الأخرى.

كان الهجوم كثيفاً ومركزاً وطال القصف جميع المواقع دون استثناء. لكن مواقع فتح في ضواحي جبل الحسين ومخيم الحسين، تعرضت في بداية الهجوم، لأكبر ضغط عسكري مما أدى إلى سقوط هذه المواقع واعتقال عدد كبير من قيادات فتح. وكان من بينهم أعضاء من اللجنة المركزية لحركة فتح.

لكن الرئيس عرفات، الذي أخلي مكتبه، تحرك مع المقاتلين للدفاع عن المواقع، وساهم في وضع المتاريس عند دوار مكسيم (الذي أصبح يسمى دوار فراس في جبل الحسين) لكنه كان يعلم أن وضع المتاريس لن يؤدي إلّا إلى عرقلة مؤقتة، ستمنحه مزيداً من الوقت للتحرك لموقع أمن، أو أكثر حماية.

وبالفعل تراجع الرئيس ومجموعة من المقاتلين تحيط به، ورئيس جهاز أمنه علي سلامة (أبو حسن سلامة) من دوار مكسيم (فراس) إلى مخيم اللاجئين (مخيم الحسين) ومن هناك هبطوا نحو شارع السلط (قرب البنك المركزي) عبر الدرج الطويل الذي كان يربط ذلك الجزء من جبل الحسين بشارع السلط (وسط مدينة عمان القديمة).

كان شارع السلط والشوارع المحيطة به خالية من المارة والمحال مقفلة ولا وجود للدبابات أو الجنود.

فتحركت المجموعة بسرعة شديدة متنقلة من زقاق لآخر حتى وصلت إلى سوق الذهب الذي كان قريباً جداً من جامع الحسين الكبير الذي بني وسط المدينة عند نقطة محورية تلتقي فيها الطرق (في الوادي) والتي تؤدي إلى شتى أنحاء عمّان ومخارجها.

وسلكت المجموعة راجلةً طريق المطار الذي يؤدي للأشرفية ومخيم الوحدات، حيث تتمركز قوات فلسطينية للدفاع عن المخيم.

مع حلول الظلام وصل الرئيس والمجموعة المقاتلة، المرافقة له، إلى مركز قوات صلاح الدين في الأشرفية، وكانت تلك القوات تابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ويقودها الحاج فايز جابر (الذي استشهد في مطار عنتيبي باشتباك مع القوات الخاصة الإسرائيلية).

رحب به أحسن ترحيب وأحيط وصوله بكتمان شديد. ووصل رسول من قوات صلاح الدين لمركز القيادة في الوحدات ليبلغ عن وصول الرئيس لمركز قوات صلاح الدين سالماً. وكانت الشائعات قد انتشرت حول مقتله بعد أن اعتقل عدد كبير من القيادات وزملاء الرئيس في اللجنة المركزية لحركة فتح.

فتوجه عدد منا على وجه السرعة لمركز صلاح الدين، وعانقناه مهنئين بسلامته.

وفيما كنا نشرب الشاي دار حديث حول اختيار مكان ليتمركز فيه، يكون بعيداً عن القصف وغير معروف من الناحية الأمنية.

وأعطيت التعليمات.

بعد ساعة من الزمن أبلغه الحاج فايز قائد قوات صلاح الدين، أننا وجدنا قبواً، يصلح ليكون موقعاً موقتاً له. وتحرك الجميع، فرداً فرداً حتى لا يلاحظ الذين يراقبون الأشرفية شارعاً شارعاً، ووصلنا إلى ذلك القبو.

كان موقع القبو قريباً من مقر الإذاعة الفلسطينية وقريباً من مستوصف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في نهاية شارع بارطو ـــ الذي يفصل الأشرفية عن مخيم الوحدات.

وانتشر خبر وصول عرفات للمنطقة وأنه سليم ولم يصب بأذى.

وعند منتصف الليل خرج الآلاف من سكان المنطقة متوجهين لجامع أبو درويش يهللون ويكبرون ويطالبون بوقف القصف والقتال.

وفي اليوم التالي دعا الرئيس جمال عبد الناصر لقمة عربية طارئة وعاجلة لبحث المأساة المتفاقمة في الأردن.

وكان القتال قد نشب في الشمال (منطقة إربد) والزرقاء (شرق عمان) واستنفر الأسطول السادس، ووجهت الولايات المتحدة إنذاراً لسورية التي فتحت حدودها لقوات فلسطينية معززة للتوجه لنجدة القوات الفلسطينية المحاصرة.

تفاقم الوضع وازداد خطورة فتحرك الرئيس عبد الناصر لعقد ذلك الاجتماع.

وتم الاتفاق على إبقاء القمة منعقدة، فيما تتوجه من بين القادة المشاركين فيها لجنة رباعية للأردن في محاولة لوقف القتال والتوصل لاتفاق.

ورحلت اللجنة إلى عمان.

كان الرئيس جعفر النميري يرأس تلك اللجنة وكان من بين أعضائها الشيخ سعد ولي العهد الكويتي.

أجرت اللجنة اتصالات بالجانب الأردني ولم تتمكن من إجراء اتصال مع الرئيس أو القيادة الفلسطينية.

وأصدرت بياناً بعد يومين تطالب فيه بحقن الدماء وتعلن أنها أدت مهمتها وستغادر عمان. في تلك الأثناء بثت الإذاعة الأردنية نداءات موجهة للرئيس عرفات من بعض إخوانه أعضاء اللجنة المركزية يدعونه فيها لوقف القتال وحقن الدماء.

توجهنا فوراً إلى «القبو» كان الرئيس مطرقاً وغارقاً في التفكير. فقلت له: اللجنة ستغادر ولم تلتق بنا. وعلينا أن نعلمها بأن عليها أن تلتقي بك.

فقال بنوع من الحدة والتوتر: وكيف نُعْلمها؟

فقلت فوراً: الإذاعة توجه رسالة للجنة عبر الإذاعة وتطلب منها أن تلتقي بالقيادة الفلسطينية حتى تطّلع على الحقائق من كافة زواياها.

وتم ذلك.

وراح الشباب يجمعون ــ كما درجت العادة كل يوم ــ كمية من المازوت لتشغيل مولدات الإذاعة (ليكون الصوت واضحاً) وبُثت رسالة الرئيس ورحنا ننتظر الرد. ولم يأت الرد سريعاً. لكن عند ساعات الفجر الأولى وصل إلى مقر قوات صلاح الدين، ضابط

مخابرات مصري طلب أن يرتِّب له لقاء مع عرفات بأسرع وقت ممكن.

رُحب به، وتحرك رسول نحو القبو ليبلغ الرئيس. رحب الرئيس بذلك وطلب إحضاره. وشرح الضابط باختصار وتركيز. عندما سمعت اللجنة الرسالة الإذاعية قررت تأجيل السفر وبحثت عن سبل ووسائل تأمين اللقاء دون معرفة الجانب الأردني خشية حدوث مكروه. وبما أن اللجنة الرباعية غير قادرة على الوصول إلى هذا المكان لأسباب عديدة، فقد أوكلت له مهمة ترتيب وصول الرئيس عرفات لمقر السفارة المصرية حيث ينتظره أعضاء اللجنة.

الطريق للسفارة كانت محفوفة بالخطر والسفارة نفسها تقع في منطقة يسيطر عليها كلياً الجيش الأردني.

فطلب الرئيس من أبو حسن سلامة دراسة خطة الوصول مع الضابط المصري (مقدم في المخابرات).

وتم الاتفاق على كل التفاصيل.

اختار رجلا الأمن طريقاً بعيدة عن الشوارع الرئيسية ويتخللها الانتقال من بيت لآخر عبر الأسوار المحيطة بتلك البيوت تفادياً لأي صدام.

ودرس موقع السفارة المصرية ومداخلها ومخارجها وتم الاتفاق من أين يتم دخول الرئيس مبنى السفارة. طبعاً لم يكن الدخول إليها من مدخلها الرئيسي.

وتحرك الجميع مع الغروب.

كان القصف شديداً وأزيز الرصاص في كل مكان وصوت رصاص رشاشات «٥٠٠» الثقيلة ينفجر في الجو متواصلاً.

أثناء القصف والقتال وتحت أزيز الرصاص تتغير المعالم. فما كنت أليفاً معه سابقاً يصبح غريباً أو على الأقل متغيراً. وينتابك شعور بالغربة. فهذا المكان الذي كنت أعرفه، حق المعرفة، أصبح غريباً عني وأنا غريباً عنه.

حتى الوجوه تختلف. ترى وجوهاً جديدة ويختلط القديم بالجديد. وحتى الوجوه القديمة تتغير ملامحها، إما قلقاً أو خوفاً أو شراسة.

الكل مختبىء لا يطل برأسه من نافذة خوفاً من رصاصة طائشة أو مستهدفة. الكل ينبطح أرضاً داخل المنازل خوفاً من شظية.

(لن أنسى منظر أخي الصغير ـ نائماً في حوض الاستحمام، ظناً منه أن حوض الاستحمام سيحميه من رصاصة أو شظية).

وكذلك تختلف مناظر البيوت التي تعرفها. غريب أن الحزن كان أيضاً يكسوها فبدت قاتمة، صامتة، حزينة ومخيفة.

من سور لآخر قفز أفراد المجموعة يتقدمون الرئيس، ثم يشيرون له ولمن معه بأن يتبعوهم، بعد أن يتأكدوا من سلامة الموقع وعدم وجود خطر أمني.

وهكذا استمر القفز إلى أن وصل. وأطل مرة أخرى ورفع يده بإشارة متفق عليها. فتقدم اثنان من المرافقين يحملان سلاحهما وعبرا الشارع بسرعة وقفزا لينضما للسابقين. وساد صمت مرة أخرى.

جاء دور الرئيس. فالمسلحان سبقاه ليؤمّنا غطاء نارياً في حال حدوث أي هجوم. وجاءت الإشارة فتحرك الرئيس بسرعة يحيط به خمسة مسلحين وعبروا الشارع بسرعة وقفزوا نحو حديقة السفارة.

كانت الحركة بعد هذا سريعة جداً. دخل الرئيس مبنى السفارة يرافقه أبو حسن سلامة فقط وأغلق الباب.

دار حديث طويل ونقاش طويل وطرحت أفكار وأفكار. كل هذا وأصداء القصف تهيمن على أجواء الاجتماع.

وعرضت اللجنة ما بحثه الملك حسين، وكان واضحاً أن الملك لن يقبل بأي حل يمس السيادة الأردنية المطلقة، وأن أي وجود فلسطيني يجب أن يكون منسقاً وتحت السلطة الأردنية الكاملة.

في نهاية النقاش اقترح الشيخ سعد أن يتوجه الرئيس عرفات معهم إلى القاهرة لحضور القمة، وأنه من الممكن أن يتم الاتفاق في القاهرة بوجود القادة العرب وبما لعبد الناصر من تأثير كبير.

وافق الرئيس وبدأ أبو حسن سلامة بدراسة خطة خروج الرئيس ياسر عرفات مع الوفد للمطار، ثم للقاهرة، فقد كانت هذه المرحلة أخطر مرحلة إذ إن الطريق من السفارة المصرية للمطار مدججة بالآليات والمصفحات والجنود.

اقترح أبو حسن سلامة أن يتنكر الرئيس بخلع ثيابه العسكرية، واستبدالها بدشداشة كويتية والحطة والعقال الكويتيين.

الشيخ سعد طويل وجسده ضخم فيما الرئيس رفيع متوسط القامة.

وانهمك أبو حسن وضباط المخابرات المصرية في ترتيب الدشداشة بحيث تبدو مناسبة (قدر الإمكان).

عندما انتهى الأمر ووضع الرئيس الدشداشة والحطة والعقال، أصبح الوفد جاهزاً للتحرك، كان قد رتب للوفد ثلاث مصفحات (أو مدرعات) لنقلهم للمطار واستخدم الشيخ سعد والرئيس وأبو حسن سلامة الذي ناسبته الدشداشة لطول قامته وضخامة جسمه إحدى المصفحات، فيما استخدم بقية أعضاء اللجنة العربية المصفحتين الأخريين.

وسار الموكب نحو المطار. الحواجز منتشرة على طول الطريق أوقفت الموكب عدة مرات، كان خلالها ضباط الحواجز يصرون على تفتيش المصفحات. لكن سرعان ما كانت الاتصالات تتم ويكمل الموكب مساره.

(أعتقد أن الأمر كان معلوماً، وأن تكثيف الحواجز كان مقصوداً لإظهار السيطرة من ناحية ولبثّ القلق في ركاب المصفحات من الناحية الأخرى).

وصل الموكب للمطار وأصدر الرئيس النميري التعليمات بالصعود للطائرة فوراً دون بروتوكولات بسبب الوضع الطارئ وللالتحاق

بالقمة بأسرع وقت ممكن. وصعد الرئيس للطائرة مع الشيخ سعد يتبعه أبو حسن سلامة.

عندما أقلعت الطائرة تنفس الجميع الصعداء.

وبدأت معركة من نوع آخر. معركة سياسية في القمة العربية التي اجتمعت لوقف القتال وحقن الدماء وللمساهمة في إبرام اتفاق بين الأردن و«م.ت.ف».

وتم الاتفاق على الأسس. وشكلت لجنة عليا من الطرفين لوضع آلية لتنفيذ الاتفاق. وخرجت القوات الفلسطينية من كافة المخيمات وتجمعت حسب الاتفاق في منطقة دبين. وجمعت أسلحة المليشيات وأقفل عليها في مخازن تحت إشراف اللجنة المشتركة ولم تطل الهدنة كثيراً. فقد شن الجيش الأردني هجوماً ساحقاً على المناطق التي حددت للقوات الفلسطينية واضطر جزء منها وعدد من القادة كان على رأسهم الرئيس ياسر عرفات للتوجه شمالاً. إذ إن مواقع الرئيس بالذات كانت مستهدفة بقصف شديد، واضطر قادة آخرون ــ بينهم الدكتور جورج حبش ــ للتوجه شمالاً نحو الحدود السورية.

وأسدل ستار على مرحلة من مراحل الصراع وبدأت مرحلة أخرى، هي مرحلة لبنان التي انتقل إلى جنوبها المقاتلون الفلسطينيون بعد أن عبروا من الأردن لسورية ومنها للبنان.

(٣)

السادات أسرّ لعرفات بساعة هجوم أكتوبر ١٩٧٣

منذ أن همس الرئيس أنور السادات في أذن ياسر عرفات حول قرار شن الحرب لتحرير سيناء، أيقن ياسر عرفات أن هناك فرصة لتطبيق قرار ٢٤٢ القاضي بانسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧. وذلك يعني بطبيعة الحال انسحابها ليس من سيناء فقط بل من الضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان.

ولذلك دعا قيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (المكتب السياسي) لاجتماع عاجل لحظة عودته إلى بيروت.

وخلال ذلك الاجتماع الذي عقد في بيت من البيوت، بعيداً عن المكاتب (التي قد تكون مراقبة أو معرضة لأجهزة التنصت، تحدث ياسر عرفات عن احتمال نشوب حرب تبدأها مصر، لتحرير

الأراضي المصرية التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧.

ولم يكن الكلام مقنعاً لأحد. إذ إن الرئيس أنور السادات لوح أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة بأنه سيلجأ للقوة لإخراج المحتلين الإسرائيليين من سيناء. لكنه كان بعد كل تلويح أو تهديد بشن الحرب لتحرير سيناء يتراجع تحت حجج مختلفة، كالطقس والظروف لدرجة أن تلويحه بالحرب لم يعد يؤخذ على محمل الجد.

لكن ياسر عرفات كان مصراً على أن السادات سيفعل ذلك، فيما شكك الآخرون بمن فيهم الشهيد أبو إياد الذي حضر الاجتماع الخاص والسري الذي عقد بين الرئيس أنور السادات وقيادة فتح (بعض أعضاء اللجنة المركزية فقط).

في الاجتماع الذي عقد بين قيادتي حركة فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (بعض أعضاء المكتب السياسي فقط) خلص عرفات للقول وبشكل جاد، إن علينا أن نستعد لاحتمال نشوب الحرب. فإن نشبت كنا مستعدين وإن لم تنشب سنعتبر الاستنفار تمريناً عسكرياً جدياً.

وأبلغ الحاضرين، أنه في حال نشوب حرب، يجب على الفلسطينيين أن يكونوا موجودين على ثلاث جبهات وأن يشاركوا مشاركة فاعلة، في الجولان من خلال جيش التحرير الفلسطيني المتمركز على الأراضي السورية، وفي سيناء من خلال جيش التحرير الفلسطيني المتمركز على الأراضي المصرية. ومن الحدود الشمالية الإسرائيلية خاصة في المرتفعات الفلسطينية المحتلة.

تعامل عرفات مع الاحتمال بشكل جاد، وأمر بإنشاء غرفة عمليات مركزية في البقاع اللبناني للتنسيق والمتابعة وتحريك القوات الفلسطينية. أقيمت غرفة العمليات المركزية، الخاصة بالحرب التي قد تشن وقد لا تشن، في بساتين قرية من القرى اللبنانية في البقاع الأوسط، كان أهلها من أشد أنصار المقاومة الفلسطينية وأكثرهم حماس لتحرير فلسطين. وفي صبيحة يوم الثامن من أيلول/سبتمبر من العام ١٩٧٣ اتصل بي الرئيس ياسر عرفات، وكنت حينها في مكتبي بمقر مجلة «الهدف»، في كورنيش المزرعة ببيروت الغربية، ودعاني للتوجه معه في زيارة للقوات الفلسطينية. ولبيت الدعوة فقد كانت فرصة لي للاطلاع على الأوضاع. اجتمع الرئيس ياسر عرفات بثلة من الضباط وراح يبحث معهم الخطط والخطط البديلة التي ستتبعها القوات الفلسطينية، في حال نشوب حرب.

كان عرفات يتحدث طوال الوقت في إطار الاحتمال النظري وليس إطار المعلومات التي باح له بها الرئيس أنور السادات.

جلست صامتاً أراقب وأستمع. خرائط للمواقع وإحداثيات للأهداف ثم نقاش حول مدى المدفع الفلاني والسلاح الفلاني ونقاش حول دور الكوماندوز (القوات الخاصة) والفدائيين إلخ.

كان يناقش مع الضباط مناقشة الخبير العسكري، وعندما تصطدم معلوماته بمعلوماتهم كان يتحداهم ويطلب المراجع حول خاصية كل سلاح ومداه وفاعليته، ليكتشف الجميع أنه على حق.

ياسر عرفات أيقن أنه إذا شنت مصر حرباً، وشاركت مع سورية فإن منظمة التحرير ستكون مكشوفة الأجنحة عسكرياً وسياسياً

ولذلك لابد لها من أن تشارك حتى يكون لها حضور عسكري يؤدي إلى حضور سياسي لاحق... أي حصتها... أي الضفة الغربية وغزة.

وعلى هذا الأساس كان يتصرف، وعلى هذا الأساس رسم الخطط، وعلى هذا الأساس خاضت القوات الفلسطينية المعارك على الجبهات الثلاث: مصر والجولان وجنوب لبنان.

وبث ياسر عرفات في نفوس الضباط روح الحماسة، وطلب أن يتصرفوا كأن الحرب واقعة لا محالة وأن عليهم أن يبلوا بلاءً حسناً لاسترداد حقوق شعبنا وحريته وحرية أرضه واستقلاله.

وغادرنا الموقع عائدين إلى مركز القيادة في بيروت. وسألت الرئيس أثناء رحلة العودة: هل تعتقد فعلاً أن الحرب ستقع؟

نظر إلي وقال: كما أراك. سوف تشن الحرب. لكنني لا أستطيع أن أجزم حول نتائجها. لكن علينا أن نكون في الميدان.

وأضاف: من لا يشارك في المعارك لا يجني ثمارها الإيجابية، إن كانت كذلك، وينال بعدم مشاركته السلبيات سواء كانت نتائجها إيجابية أم سلبية. وانتبهت لنفسي. فقد أصبحت فجأة أعيش جو الحرب رغم أنني كنت أشكك في ذلك الاحتمال.

لقد بعث فينا ياسر عرفات ذلك الشعور. وساد الصمت فيما يسرع الموكب نحو بيروت. عرفات يفكر فيما يحرك ركبتيه بعصبيته المعتادة عندما يواجه أمراً شائكاً وخطيراً. كان يحسب كل

الحسابات وكان يعرف الكثير عن ميزان القوى، ودون أن يقول ذلك، رجحت أنه يفكر في الحرب المتوقعة كحرب تحريك سياسي وليس كحرب تحرير.

فميزان القوى لم يكن خافياً على أحد، وتفوّق إسرائيل العسكري كان مضموناً من الولايات المتحدة. وكانت مصر قد أخرجت المستشارين العسكريين السوفيات، مما أدى إلى توتر كبير في العلاقات السوفياتية ــ المصرية. تحريك أم تحرير، كان قراره واضحاً:

على الفلسطينيين أن يكونوا في ميدان المعركة حتى لا يتركوا جانباً.

(٤)

صمود وتصدٍّ... وتسوية سياسية

منذ أن أخرجت قوات الثورة من الأردن في العام ١٩٧١ (تموز ـ آب) وتأكد أن سورية لا تريد تحمل مسؤولية أي نشاط فلسطيني فاعل عبر الحدود مع قوات الاحتلال، تأكد للرئيس عرفات أن جنوب لبنان هو المكان المناسب للبقاء والنشاط لفترة من الزمن.

وعندما اضطر للخروج من الأردن قال المقولة الشهيرة «الجبل، الجبل... يا سارية الجبل».

تدريجياً تمركزت القوات الفلسطينية في العرقوب، ثم تمددت نحو ساحل صور وصيدا وبذلك انتشرت في القطاعات: الشرقي، والأوسط، والغربي من الجنوب اللبناني المتاخم للحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية.

وما إن تمركزت حتى بدأت العمليات الفدائية ضد قوات الاحتلال

من القطاعات الثلاثة. وتحولت جبهة جنوب لبنان إلى «الجبهة الساخنة»، وبطبيعة الحال بدأت إسرائيل بشن مختلف أنواع الغارات براً، وبحراً، وجواً، مستهدفة مواقع القوات الفلسطينية ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين والقرى اللبنانية، كما كانت الحال على الجبهة الأردنية ــ الإسرائيلية، عندما تحولت إلى جبهة ساخنة.

وتركز جهد الرئيس على تمركز القوات الفلسطينية في مواقع استراتيجية، تمكنها من الصمود، وفي الوقت ذاته من شن الهجمات على القوات الإسرائيلية. وتمكن من حل كافة المشاكل الخطيرة التي برزت مع رحيل القيادة والقوات من الأردن إلى لبنان.

كذلك المشاكل التي برزت بانضمام لواء من الجيش الأردني لقوات الثورة. (وكان ذلك اللواء بقيادة سعد صايل الذي كان من ألمع ضباط الجيش الأردني والذي تفوق بامتياز من «وست بوينت» الأكاديمية العسكرية الأميريكية الشهيرة).

وفي العام ١٩٧٢ قررت غولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل شن حرب إرهاب سرية ضد منظمة التحرير الفلسطينية وقيادتها، والمبدعين من مفكري وأدباء الشعب الفلسطيني، وذلك إثر عملية ميونيخ التي نفذتها مجموعة «أيلول الأسود». وردت فتح وغيرها من المنظمات ــ خصوصاً الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ عبر دائرة العمليات الخارجية التي كان يقودها الدكتور وديع حداد، بعمليات آلمت إسرائيل ألماً شديداً.

اغتال الإسرائيليون غسان كنفاني في ١٩٧٢\٧\٨ وحاولوا اغتيال بسام أبو شريف في ١٩٧٢\٧\٢٥ والدكتور أنيس الصايغ (رئيس

مركز الأبحاث الفلسطيني) والدكتور وديع حداد بإطلاق صواريخ على منزله في حي عائشة البكار، في منطقة الصنايع ببيروت الغربية. ثم اغتالت في نيسان/أبريل من العام ١٩٧٣ كلاً من القادة كمال عدوان وكمال ناصر وأبو يوسف النجار، وقامت بعملية إنزال واسعة على شواطىء بيروت الغربية، ووصلت قواتها للفاكهاني في منطقة في غرب بيروت التي اكتظت بمكاتب المنظمات الفلسطينية، ونسفت عدة مقرات للمنظمات الفلسطينية. ووصلت قوة إسرائيلية خاصة إلى مقر الرئيس ياسر عرفات الذي تمكن من الانسحاب من مكتبه الرئيسي في الوقت المناسب وخرج من المنطقة عبر تجمعات تلك القوات الخاصة.

وجه الرئيس أنور السادات دعوة للرئيس ياسر عرفات لزيارة القاهرة، في شهر أيلول/سبتمبر من العام ١٩٧٣. وجاء في الدعوة، أنها دعوة لقيادة فتح فقط وليس لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وبذلك حدد الرئيس أنور السادات طبيعة اللقاء: إنه لقاء بين قيادة فتح والرئيس أنور السادات.

فتوجه الرئيس عرفات للقاهرة يرافقه عدد من قادة فتح كان بينهم صلاح خلف (أبو إياد) وخليل الوزير (أبو جهاد) وهايل عبد الحميد (أبو الهول). ولم يعرف آنذاك مضمون البحث أو عناوينه.

وعندما عاد الوفد إلى بيروت دعا الرئيس إلى اجتماع مشترك لقيادتي فتح والجبهة الشعبية (وكان التنظيمان قد عقدا اتفاقاً للتحالف مما أشعر الشعب الفلسطيني بأن صمود الثورة أصبح أقوى وأكثر صلابة).

اللجنة المركزية لحركة فتح والمكتب السياسي للجبهة الشعبية اجتمعا وناقشا الوضع السياسي واتخذا قرارات تتعلق بتصعيد التصدي للقوات الإسرائيلية وللموساد الإسرائيلي.

وفي نهاية الجلسة طلب الرئيس عرفات من الدكتور جورج حبش (الحكيم) أن يبقى لدقائق بعد خروج أعضاء القيادتين.

أمسك الرئيس عرفات بيد «الحكيم» وتوجها نحو غرفة صغيرة جانبية.

وباح عرفات بالسر لجورج حبش.

أبلغه أن الرئيس السادات أبلغهم أنه سيشن حرباً لإخراج الإسرائيليين من سيناء وأن الحرب وشيكة الوقوع.

شكك جورج حبش في ذلك قائلاً: «لقد أعلن السادات أكثر من مرة عن نيته. لكنه كان في كل مرة يعلن ذلك يعلله برداءة الطقس أو تغيير الظروف. لكن الرئيس ياسر عرفات عبر عن اعتقاده بأن السادات جادّ هذه المرة وأن على الفلسطينيين أن يكونوا مستعدين على أية حال.

وانتهى الاجتماع الثنائي وسار الاثنان نحو الباب. وقبل خروج الحكيم قال له الرئيس ياسر عرفات:

«من يشارك في الحرب يحصد نتائجها سلباً أو إيجاباً. ومن لا يشارك يبقى خارج دائرة النتائج والحصاد».

عقل الرئيس عرفات السياسي، ورؤيته بعيدة المدى راحا يتحركان ويتفاعلان... ها هي مصر، الدولة العربية الكبيرة تعد العدة لشن حرب... بأي هدف؟

الهدف هو إخراج الإسرائيليين من سيناء. أي الأرض المصرية التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧ والتي طالبها قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الانسحاب منها. ولم تفعل.

بذل السادات جهوداً سياسية كبيرة لحث الولايات المتحدة على إقناع إسرائيل بتطبيق قرار مجلس الأمن ٢٤٢ عبثاً. فقرر أن تنفيذ ذلك القرار يتطلب معركة عسكرية تجبر إسرائيل على تطبيقه.

سورية كذلك الأمر بالنسبة للجولان.

ولكن ماذا عنا نحن الفلسطينيين؟؟

هكذا فكر عرفات.

إذا أردنا تطبيق هذا الرأي، وإذا أخذنا بعين الاعتبار كل الحقائق وموازين القوى، فمن الطبيعي أن نصل إلى خلاصة تنسجم مع ما يقبله المجتمع الدولي (أي ما هو ممكن إن بذلت كل الجهود وشنت الحروب). وهذا يعني تطبيق قرار ٢٤٢ أي انسحاب إسرائيل من قطاع غزة والضفة الغربية.

وأصبح هذا في ذهن الرئيس عرفات «الممكن إن بذلت كافة الجهود».

وعليه فإن منظمة التحرير الفلسطينية مطالبة بالانسجام في برنامجها مع هذا الهدف «الممكن».

وعليها أيضاً أن تكون شريكاً ولو ثانوياً في المعركة حتى تحصد النتائج: سلبياً أو ايجابياً.

منذ اللحظة التي عاد فيها الرئيس عرفات من القاهرة بعد اجتماعه بالرئيس السادات، كثرت زياراته للبقاع الشرقي. وراح يهتم مباشرة بشؤون القوات العسكرية الفلسطينية في منطقة العرقوب.

ورافقته عدة مرات إلى غرفة عمليات أنشأها في البقاع تحسباً لنشوب الحرب.

كان يستدعي الضباط ويطرح عليهم الأسئلة ويناقشهم في التكتيكات العسكرية والقدرة على استخدام الأسلحة الثقيلة بكفاءة قصوى. كان يسأل عن المدى والتأثير لكل سلاح من هذه الأسلحة الثقيلة.

وقام بجولات على مواقع القوات المقاتلة في القطاعين الشرقي والأوسط من جنوب لبنان. ورسم هو والعسكريون خطة لتقدم القوات (فيما إذا نشبت الحرب) نحو الأراضي المرتفعة في تلك المنطقة، وهي أراض فلسطينية محتلة..

واستدعى ضباط جيش التحرير الفلسطيني المرابط في سورية والخاضع للقيادة العسكرية السورية، وشد من أزرهم وطلب منهم أن يكون بلاؤهم حسناً، إذا ما نشبت المعارك.

كان يسعى للحصول على حصة الفلسطينيين السياسية.

كان يتصرف وكأن المعركة واقعة غداً. لقد صدق كل كلمة قالها الرئيس أنور السادات، رغم أن معظم الآخرين اعتقدوا أن كلامه كان مناورة جديدة.

وعندما شن الجيش المصري هجومه البطولي عبر قناة السويس، كانت فرق الكوماندوز الفلسطينية تشن هجمات بطولية، شبه انتحارية، على كافة تلال الجولان لتسيطر عليها لفتح الطريق أمام القوات السورية لتتقدم لتحرير الجولان. وتقدمت القوات الفلسطينية من العرقوب نحو التلال العالية ــ سفوح جبل الشيخ لترابط فيها وترفع العلم الفلسطيني.

في ساعات الصباح الأولى، اتصل أحد مساعدي الرئيس وطلب مني الحضور فوراً لمقر الرئيس. بعد دقائق معدودة كنت في مكتبه، وتحرك الركب نحو البقاع... نحو غرفة العمليات.

وتوالت الأنباء والبرقيات العسكرية وأصبح واضحاً أن الصعقة الأولى نجحت وأن الجيش المصري بدأ الزحف في سيناء بعد أن هشم خط بارليف وأن قوات جيش التحرير الفلسطيني تمكنت، رغم الثمن الباهظ من السيطرة على تلال الجولان وأن القوات السورية تتقدم في الجولان.

الرئيس عرفات كان يعمل ويتصرف وكأنه يقود كافة الجبهات. لكنه ركز على نقطة مركزية، إثبات مشاركة القوات الفلسطينية في المعركة عبر إنجازات ملموسة، كاكتساح سفوح جبل الشيخ

الاستراتيجية، وإبراز دور جيش التحرير الفلسطيني في الجولان، ودوره على الجبهة المصرية (رغم أن الدور كان متواضعاً).

كانت الجيوش على الجبهات الثلاث تبلي بلاءً حسناً إلى أن جاء نداء الاستغاثة الذي أطلقته غولدا مائير للإدارة الأميركية:

– (SAVE ISRAEL) أنقذوا إسرائيل

جاء نداء الاستغاثة هذا، بعد أن انهار موشى ديان، وقرر أن يوجه بياناً للإسرائيليين عبر شاشات التلفزة، ليقول لهم الحقيقة، حقيقة انهيار الجيش الإسرائيلي أمام الهجوم المباغت.

(نداء غولدا مائير كان له شق لم يعلن عنه حتى الآن، وهو التهديد باستخدام السلاح النووي إن لم تقم الولايات المتحدة بالتدخل).

وحركت الولايات المتحدة أساطيلها لتقترب من شواطىء سيناء، وأنزلت مروحياتها الضخمة، وطائرات النقل، والدبابات المجهزة بالوقود والذخيرة على مقربة من أرض المعركة التي كانت تدور بين الجيوش المصرية المتقدمة والقوات الإسرائيلية المتراجعة.

ووجهت الولايات المتحدة إنذاراً للسادات، بأنها ستتدخل مباشرة إن لم يوقف زحف الجيش المصري. فقرر السادات التوقف.

وأخرجت تمثيليات الدفرسوار وبطولة شارون «ملك إسرائيل» كما حلا له أن يلقب نفسه وسلمت له دبابة أميركية.

مكن وقف القتال على الجبهة المصرية إسرائيل من توجيه قوة مدرعة كبيرة لشن هجوم مضاد في الجولان.

فموازين القوى تغيرت على الجبهات واستعادت القوات الإسرائيلية ما حرر من الجولان.

لكن سفوح جبل الشيخ بقيت تحت العلم الفلسطيني.

واستمرت الاشتباكات في الجولان وجبل الشيخ مئة يوم (بتشجيع من كيسنجر) ليتمكن وزير الخارجية الأميركي من إنجاز اتفاق فك ارتباط على الجبهة السورية بعد أن أنجزه على الجبهة المصرية.

وانهالت المساعدات العسكرية الأميركية على إسرائيل، لتعويض ما خسرته ولتأمين التفوق النوعي والتقني على كل الدول العربية مجتمعة.

رغم ذلك، كان الرئيس عرفات مقتنعاً بأن حلاً سياسياً يطبخ على هدوء. وأن عليه أن يعمل ليشمل ذلك فلسطين.

ولذلك حرص على عقد دورة المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة في العام ١٩٧٤. فقد كان التقليد المتبع أن يفتتح دورة المجلس الوطني رئيس البلد التي يعقد فيها. وكان من الطبيعي أن يفتتح الرئيس أنور السادات دورة المجلس الوطني التي عقدت في القاهرة عام ١٩٧٤ وأن يتحدث عن حرب أكتوبر والآفاق السياسية لتلك الحرب.

واجتمع الرئيس السادات باللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وراح يهيئها لآفاق الحل السياسي الممكن ــ تطبيق قرار ٢٤٢.

وخاض الرئيس ياسر عرفات نقاشات سياسية حادة وشائكة للخروج ببرنامج سياسي يلوح بقبول منظمة التحرير الفلسطينية لقرارات الشرعية الدولية ــ أي إنهاء احتلال الأراضي التي غزتها إسرائيل عام ١٩٦٧.

وبعد شد وجذب، وافق المجلس الوطني على برنامج «النقاط العشر» الذي يشير بخجل إلى قبول «م.ت.ف» بحل سياسي تقيم بموجبه «م.ت.ف» سلطتها الوطنية على جزء من الأرض الفلسطينية تنسحب عنه إسرائيل.

بدأت رؤية الرئيس عرفات تتخذ شكلاً ومضموناً واضحين. فالمعركة التي خاضها ويخوضها الآن على رأس الشعب الفلسطيني لا يمكن أن تؤدي (في أحسن الأحوال) إلا إلى انسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧.

وعليه أن يبلور تدريجياً برنامجاً سياسياً يستهدف إقامة دولة فلسطينية مستقلة على الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧.

لكن الأمر لم يكن سهلاً لمعارضة معظم التنظيمات الفلسطينية لمثل هذا البرنامج، ولمعارضة عدد لا يستهان به من قيادة فتح له.

وعاشت الساحة الفلسطينية مرحلة من التناقضات السياسية العميقة.

إذ إن زلزال حرب أكتوبر زلزل المعطيات السابقة. وخلق واقعاً جديداً.

كان لا بد للقوى الحية والجدلية من التعاطي معه لأن عكس ذلك كان يعني الاندثار السياسي.

وفي العام ١٩٧٧ دعي لعقد دورة جديدة للمجلس الوطني في القاهرة.

وافتتح المجلس الرئيس أنور السادات وتحدث للمجلس بصراحة أكثر حول الاتفاق السياسي الممكن. وفي جلسة خاصة مع اللجنة التنفيذية، حضرتها رغم أنني لم أكن عضواً في اللجنة التنفيذية، طلب الرئيس السادات من القيادة الفلسطينية أن تحسم أمرها وتتخذ قرارها قبل فوات الأوان. وكان صريحاً غاية في الصراحة.

«دولة فلسطينية على الضفة الغربية والقطاع هو أقصى ما يمكن أن يطمح إليه. وربما أن هذا الهدف يحتاج لحرب ثانية». لكننا سنبذل الجهد إن حسمتم الأمر وتوكلتم..

وخرج المجلس ببرنامج سياسي معدل يملؤه التلميح والغموض، ولا يبت بصراحة ووضوح بالمسألة المطروحة «هل يقبل الفلسطينيون دولة على الأرض الفلسطينية التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧؟».

بدأت أتشجع، لإخراج أفكاري لحيز الوجود.

طالما فكرت، أن الكفاح المسلح هو طريق لإبراز ضرورة التوصل

لحل سياسي وليس طريقاً للانتصار على القدرات العسكرية الإسرائيلية. فميزان القوى كان واضحاً جداً، وآفاقه المرئية لعشرات السنين واضحة أيضاً، خصوصاً أن هذا الميزان مرتبط بميزان قوى عالمي، تعتمد فيه الولايات المتحدة على تفوق إسرائيل العسكري في الشرق الأوسط.

(عندما تفكك الاتحاد السوفياتي، تبين أن أهم الأسلحة التي صدّرت للعرب كانت أسلحة أنهت القوات السوفياتية استخدامها كأسلحة أساسية وكانت الطائرات المقاتلة التي زود بها العرب، طائرات من جيل قديم تتقدم عليه خمسة أجيال على الأقل في ترسانة الاتحاد السوفياتي ــ وهذا بطبيعة الحال اتفاق بين الجبابرة على الحفاظ على ميزان قوى في الشرق الأوسط، يحافظ على تفوق إسرائيل العسكري).

دولة فلسطينية على الضفة الغربية وقطاع غزة ــ هو الهدف وإن كان صعب المنال.

في الوقت الذي خاض فيه الرئيس عرفات صراعاً داخلياً حول دخول المعركة السياسية المطروحة في الميدان، خاض معركة أخرى، تلك المعركة تمثلت بالضغط الذي مورس عليه لعدم الإقدام على تلك الخطوة السياسية من قبل الأنظمة العربية المعارضة للتفاوض مع إسرائيل لتحقيق حل سياسي.

فعندما أقدم الرئيس السادات على زيارة القدس وبدأ المفاوضات مع إسرائيل، شنت عليه حرب شعواء إعلامياً وسياسياً. وقد بدأت تلك الحرب عندما عقدت قمة بغداد لرفض التوجه السياسي للسادات.

وأرسلت القمة وفداً من بين قادتها.

وعندما وصل الوفد مطار القاهرة أمر أنور السادات بعدم دخول وفد القيادات العربية مصرّاً على الاستمرار في الخط السياسي الذي رسمه.

وقوطعت مصر. وأقرت قمة بغداد مبالغ كبيرة من المال لدعم صمود سورية والأردن وفلسطين في وجه التسوية السياسية التي قرر السادات المضي بها قدماً.

وفي تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٧٧ زار السادات القدس، وفي كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه دعي لقمة مصغرة عقدت في طرابلس الغرب.

وأعلن بعدها عن إقامة جبهة الصمود والتصدي.

قمة طرابلس:

هيمنت على تلك القمة التي حضرتها، ثلاثة مواضيع رئيسة.

- كيفية مواجهة خط السادات السياسي.
- إعادة توحيد صفوف «م.ت.ف» التي كانت منقسمة ومتصارعة.
- ورأب الصراع في العلاقة السورية ــ العراقية.

فشلت كافة الجهود لإقناع العراق بالانضمام لجبهة الصمود والتصدي. وكان واضحاً لي أن العراق الذي اتخذ موقفاً سياسياً معارضاً لخط السادات لم يكن منطقياً، أو منسجماً مع

نفسه عندما أبرز أسباب عدم موافقته على الانضمام لجبهة الصمود والتصدي.

أما على الصعيد الفلسطيني، فقد نجحت الجهود في إعادة توحيد صفوف الفلسطينيين وصدر بيان للرأي العام حول ذلك، وانضمت «م.ت.ف» لجبهة الصمود والتصدي.

واتفق الجميع على مواجهة خط السادات السياسي.

هذه النتائج لم تكن سهلة المنال. لا بل كانت صعبة جداً.

فقد دب خلاف حول من يحضر من الفلسطينيين جلسة القمة. الرئيس ياسر عرفات أراد أن يكون الوفد الحاضر وفد «م.ت.ف». لكن إصرار الدول مكن تنظيمات شكلت جبهة الرفض الفلسطينية، المعارضة لخط ياسر عرفات من الحضور. وقررت أن يحضر جورج حبش وأحمد جبريل. وعندما أيقن الرئيس عرفات أن هذا سيتم أصر على دعوة نايف حواتمة لحضور الجلسة. وكانت الجبهة الديموقراطية قد رفضت الانضمام لجبهة الرفض وبقيت في الوسط بينها وبين الرئيس عرفات.

وأدلى الجميع بكلماتهم.

الدكتور جورج حبش بدأ يطرح بهدوء الخط السياسي الذي يقترحه لمعارضة السادات. فقاطعه الرئيس حافظ الأسد (وكانت المرة الأولى التي يراه فيها) قائلاً: أريد أن أسالك... أنت دكتور طب أم سياسة؟ فأجابه أكثر من شخص: دكتور طب.

فاستمع الجميع له.

وحرص الرئيس عرفات على ترك المجال لنايف حواتمة بالحديث قبله، فبدأ كلمة طال أمدها لدرجة أن الرئيس هواري بومدين قاطعه قائلاً: قل لنا ماذا تريد بالضبط.

وعلى هامش جلسات قمة الصمود والتصدي، بدأت الجهود والضغوط لتوحيد الصف الفلسطيني. ولعب صلاح خلف دوراً بارزاً في ذلك وتعاونت معه إلى أبعد الحدود. وطلب مني أبو أياد أن أصوغ بياناً حول إعادة الوحدة لصفوف «م.ت.ف» فنظرت إليه متسائلا: (لأن هذا لم يتم بعد).

ابتسم قائلاً: سيتم.

صغت البيان، تدخل الليبيون والجزائريون ومورس الضغط فوافق الجميع. كان بيان إعادة التوحيد، خالياً من أي إشارة لموافقة «م.ت.ف» على قرارات ٢٤٢ وإقامة دولة فلسطينية على الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧. كان يشير فقط لمعارضة منهج السادات. ولم يكن الرئيس ياسر عرفات راضياً عن ذلك.

لكنه، وتحت ضغط موازين القوى الداخلية الفلسطينية والخارجية العربية رضخ دون أن يقتنع.

وجاء الرئيس القذافي إلى القاعة المطلة على شرفة قصر الشعب في طرابلس حيث عقد المؤتمر ـ وأمسك بذراع الرئيس عرفات وخرج به إلى الشرفة.

وخرجت مع الدكتور جورج حبش للشرفة والتقينا.

كان الرئيس عرفات يقول للرئيس القذافي:

«ألم تقل لي يوماً، عليك أن ترفع علم فلسطين المستقلة، حتى ولو على خيمة؟».

أجاب معمر القذافي ــ «نعم» ولا زلت عند رأيي. لكن أين الخيمة؟

فأجاب الرئيس عرفات: سأجدها وسأرفع العلم. وأفهم من كلامك أنك عند وعدك.

فقال «نعم».

وتقدم الرئيس معمر القذافي وأمسك بذراع الدكتور جورج حبش وذراعي وتقدم الجميع نحو حافة الشرفة المطلة على الساحة الكبيرة أمام قصر الشعب، حيث احتشد رجال الصحافة.

ورفعنا الأيدي متشابكة والتقطت الصور التي تعلن إعادة الوحدة لصفوف «م.ت.ف» وانضمامها لجبهة الصمود والتصدي.

لم يقطع الرئيس ياسر عرفات الخيط. وأبقى عينه على ما يدور على جبهة المفاوضات. لكن موقف بيغن الرافض للمشاركة الفلسطينية المتساوية هو الذي أغلق الباب أمام الرئيس ياسر عرفات الذي لم يرد إطلاقاً إغلاقه تحت شتى المسميات.

عندما قام السادات بزيارة القدس في ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٧ قررت جبهة الصمود والتصدي تجميد العلاقات الدبلوماسية مع مصر، وذلك في تلك القمة الأولى التي عقدت في طرابلس في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٧٧.ولذلك كان الرئيس عرفات ملزماً بقطع العلاقات حسب قرار القمة، لكن الاتصالات غير العلنية استمرت وأعلن السادات في تموز/يوليو من العام ١٩٧٨، دعوته لإسرائيل لإجراء مفاوضات حول انسحابها من الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية بعد فترة انتقالية تدوم خمس سنوات.

ورد بيغن برفض ذلك رفضاً قاطعاً.

كان هذا هو السبب الذي دفع الرئيس عرفات للاستمرار في جبهة الصمود والتصدي. وأعتقد أنه لو نجح السادات في فرض تلك المفاوضات لإنهاء احتلال الضفة وغزة والقدس الشرقية، لما تردد الرئيس عرفات بإرسال وفد للمفاوضات. لكن الرئيس عرفات لا يطلق عصفوراً من يده قبل أن يتأكد من أن عشرة عصافير تمسك بها يده الأخرى.

رد ريغن على اقتراح السادات حول إجراء مفاوضات لإنهاء احتلال الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية جاء بعد ثلاثة أسابيع من اقتراح السادات. لكن دعوة السادات تلك أثارت قلق دول الصمود والتصدي. فدعي لاجتماع قمة طارئ في الجزائر.

أراد المجتمعون أن يكبلوا الرئيس عرفات وأن يمنعوا أي نوع من التعاطي مع اقتراح المفاوضات حول الانسحاب من الضفة الغربية والقطاع والقدس الشرقية.

لم تدم القمة طويلاً. فقد حسمت جلسة مغلقه، حضرتها إلى جانب الرئيس عرفات، الأمور.

كان النقاش حاداً. وأراد المجتمعون أخذ تعهد من الرئيس عرفات بعدم التعاطي مع هذه الدعوة.

وحاول الرئيس عرفات التخلص من أي التزام لدرجة أنه قال:

«أستطيع أن أعطي أمراً الآن بإطلاق مئات الصواريخ على الجليل فمن منكم جاهز لتلقي نتائج ذلك «؟» إما أن تقاتل الأمة العربية أو أن تفاوض».

واتخذ قرار بأن ترسل «م.ت.ف» مذكرة للأمين العام للأمم المتحدة تؤكد فيها عدم تخويلها لأي جهة بالتحدث نيابة عنها أو التفاوض نيابة عنها. وخرجنا من القاعة.

أمسك الرئيس بومدين بذراع ياسر عرفات من جهته اليمين، وأمسك بذراعي من الجهة اليسرى (وكانت تربطني به علاقة صداقة عميقة).

فهمس الرئيس عرفات: لماذا هذا القرار؟

فأجاب بومدين ضاحكاً:
«لنتأكد أنك لن تتصرف بما يخالفه».

وأغلق الباب أمام فرصة لاحت لتحقيق إنجاز سياسي استناداً لما

حركته حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣.

لكن الإغلاق جاء من طرف بيغن.

وعلم عندها الرئيس عرفات أن أمام الشعب الفلسطيني معارك أخرى ليقتنع الإسرائيليون بضرورة التفاوض مع الفلسطينيين لإنهاء الاحتلال، وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

كل هذا كان يتم، وبرنامج «م.ت.ف» السياسي على حاله فميثاقها الأساسي كذلك.

وفي ٢٣ أيلول/سبتمبر من العام ١٩٧٨ رفضت قمة الصمود والتصدي التي عقدت في دمشق رفضاً قاطعاً، جملة وتفصيلاً اتفاق كامب ديفيد الذي وقعه السادات مع مناحيم بيغن في السابع عشر من شهر أيلول/سبتمبر من العام نفسه.

في تلك القمة التي حضرت جلساتها العامة والمغلقة، دار نقاش لم يخل من الحدة حول قطع كافة العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية مع مصر، فيما ناقش البعض بالاكتفاء بتجميد العلاقات الدبلوماسية.

كما دار نقاش معمق لم يخل من التوتر والصراحة حول دعم صمود دول الطوق و «م.ت.ف».

وتصادم في النقاش حافظ الأسد ومعمر القذافي وذلك حول الفجوة بين الموقف والعمل. وطالب الأسد بترجمة الأقوال إلى الأفعال. أي

أن الحديث عن التصدي يجب أن يترجم عملياً بالدعم المالي من الدول القادرة، خاصة الدول المنتجة والمصدرة للنفط وعلى رأسها ليبيا.

وفي جلسة مصغرة جداً ـ ضمت اليمن والجزائر وليبيا ـ حاول الطرف الفلسطيني التوفيق بين الطرفين. كان خالد الحسن صريحاً مع العقيد معمر القذافي وقال له إن المصداقية تذوب عندما لا يتبع الكلام بالفعل.

وعندما احتد النقاش، اقترحت أن تضع سورية لائحة بالأسلحة المطلوبة والطائرات المطلوبة لتقوم الدول القادرة بتمويل شرائها فأجاب العقيد معمر القذافي: أريد أن أوافق عليها، سأوافق على المساهمة لشراء السلاح والطيران اللازمين..

فيما نحن نناقش محاولين ردم الهوة، قرر معمر القذافي الاستئذان لأن لديه ارتباطاً. وترك الجميع يناقشون.

لم تكن لدينا أية فكرة حول ارتباط العقيد معمر القذافي.

لكن تبين أنه كان ارتباطاً مع الرئيس عرفات.

كان العقيد معمر القذافي قد أجرى اتصالاً بالعاهل الأردني، الملك حسين وأبلغه أنه يرغب في إجراء مصالحة بينه وبين الرئيس عرفات. (كانت العلاقات قد قطعت منذ معارك جبال عجلون في العام ١٩٧١).

ووافق العاهل الأردني. وكان الرئيس عرفات بحاجة لفتح هذه النافذة في ظل الالتزام بقطع العلاقات مع مصر.

إذ لا يمكن للرئيس عرفات أن يغلق على «م.ت.ف» كل الأبواب ويبقي باباً واحداً مفتوحاً. لأن هذا سيجعل الجهة التي تفتح بابها تتحكم بطريقة أو بأخرى (أو تؤثر على الأقل) بالقرار الفلسطيني.

وفي هذا الإطار، كان الاقتراح مفيداً جداً من الناحية السياسية. فبداية إعادة العلاقات مع الأردن ستخفف ضغط يد دول كسورية والعراق على «م.ت.ف».

انسحب العقيد القذافي من الجلسة.

عندما هبطت إلى قاعة الاستقبال في فندق شيراتون حيث عُقدت القمة، أبلغني البعض أنهم شاهدوا الرئيس القذافي والرئيس عرفات ينطلقان في موكب، بسرعة شديدة وأن الشائعة تقول بأنهما متجهان للأردن.

وانتشر الخبر كالنار في الهشيم.

واجتمعت القيادات فوراً.

قيادة فتح، الجبهة الشعبية، القيادة العامة، والجميع.

وتدارس المجتمعون الأمر. وقرروا إصدار بيان ضد هذه الزيارة وأهدافها. وطلب البعض الانتظار لحين عودة الرئيس عرفات للتأكد من الخبر والموضوع.

وتعددت المؤتمرات الصحافية التي هاجمت الرئيس عرفات. وكان أقساها ذلك المؤتمر الذي عقده أحمد جبريل أمين عام القيادة العامة (المقربة جداً من سورية).

وعندما عاد الموكب، بعد إجراء المصالحة، ثارت ثائرة الجميع فيما بقي عرفات هادئاً.

وعندما هدأ المجتمعون قال الرئيس عرفات: كيف تصدرون بياناً باسم «م.ت.ف» وأنا غائب. أنا رئيس «م.ت.ف» وانهال بكلام هادئ على قيادات فتح التي شاركت في الاجتماع ووافقت على البيان ثم ابتسم قائلاً:

لقد خطفني العقيد معمر ليصالحني مع الملك حسين. «أتريدون أن تبقى «م.ت.ف» والأردن في حالة خلاف دائم.

أليس من مصلحة الشعب الفلسطيني في ظل كامب ديفيد أن تكون له علاقات طبيعية مع الأردن.

سوف نواجه حرباً أو حروباً في لبنان. ألا ترون ذلك. لقد رفض بيغن فكرة التفاوض على الانسحاب من الضفة وغزة والقدس الشرقية لأنه يبيت لنا حروباً.

وساد الصمت.

وبدأت الأصوات هنا وهناك تتراجع. وانتهى الأمر في جلسة القمة بأن أعلن العقيد معمر القذافي أنه قام باختطاف ياسر عرفات ليجري

مصالحة بينه وبين الملك حسين لأن في هذا خيراً لجبهة الصمود والتصدي.

وخرج ياسر عرفات وتوجه لبيروت ليواجه أول تلك الحروب التي توقعها ــ وكانت غزواً إسرائيلياً جزئياً لجنوب لبنان قامت به قواتها في شهر آذار/مارس من العام ١٩٧٨.

(٥)

خطة غزو لبنان في حزيران ١٩٨٢ وصلت لأيدينا في آذار

في بداية شهر آذار/مارس عام ١٩٨٢ جاءني من يقول لي إن إسرائيل قررت غزو لبنان. كان شاباً في العشرين من العمر، لم يسبق لي أن رأيته. حضر إلى مكاتب مجلة «الهدف» الكائنة في كورنيش المزرعة ببيروت. وأبلغ سكرتيرتي أنه يريد أن يراني لأسباب هامة جداً وضرورية.

وطلبت من السكرتيرة إبلاغه أنني سأراه بعد أن أنهي كتابة المقال الافتتاحي لمجلة «الهدف».

قادته السكرتيرة إلى مكتبي فوقفت محيياً. كان مرتبكاً ويده مبللة بالعرق. فابتسمت له ودعوته للجلوس. وتحولت من وراء مكتبي نحو مقعد بقربه لأشعره بالاطمئنان. فسألته عن اسمه فأجاب

بسرعة وبتوتر (فايز).

«أهلاً بك يا فايز (خيراً إن شاء الله).

قال بصوت متهدج وبتمتمة:

«لدي معلومات أن إسرائيل ستغزو لبنان، وستصل إلى بيروت وتحاصركم وتقضي عليكم».

حدقت في وجه الشاب فايز ملياً، يكاد يرتجف، وحبيبات من العرق بدأت تظهر على جبينه. قلت له: «فايز، هذا كلام مهم جداً. كيف علمت بذلك؟».

نظر فايز حوله وكأنه يريد أن يتأكد من عدم وجود شخص آخر في الغرفة، ثم توجه إليّ ليقول لي إنه اطلع بالصدفة على أوراق وخرائط تتصل بهذا الموضوع. بقيت صامتاً أنظر إليه في دعوة صامتة له أن يستمر بالكلام. فلم يزد على ما قاله.

فسألته: «هل يمكن أن نحصل على هذه الأوراق؟»

قال لا أدري، سأحاول. علقت فوراً وأنا أربت على كتفه: يا فايز هذا موضوع هام وكبير، وستكون قد أديت خدمة وطنية كبيرة إن نجحت في ذلك. هب فايز عن مقعده قائلاً: سأحاول، وكأنه يريد الهرب.

ودعته على أمل لقاء قريب.

مر أسبوع من الزمن ولم يعد فايز. فبدأت تتلاشى من ذهني أهمية الموضوع وقلت في نفسي، أي شاب ربما كان يتخيل الأمور.

ولكن بعد أسبوعين تقريباً، جاءني مدير الإدارة ليقول لي إن شاباً يدعى فايز قد حضر للمكتب، وطلب رؤيتي، وأنه طلب منه العودة مساء لأنني سأكون موجوداً في مكتبي.

أحسست بالغبطة، فقد عاد الموضوع ليحتل بسرعة مكانه في ذهني. فالموضوع هام جداً إن كان صحيحاً.

كانت الساعة تقارب التاسعة والنصف ليلاً عندما عاد فايز. هذه المرة كان أكثر اضطراباً ويبدو عليه الفزع واضحاً.

هدّأت من روعه وجلست على مقعد إلى جانبه وقلت له: «هل نجحت؟».

لم يتمكن من التفوه وأخرج من جيبه الداخلي بيد ترتجف بعض الأوراق وسلمها لي. صفحة كبيرة تحمل خريطة مليئة بالأسهم والإشارات. وورقة ثانية تحمل رسم خريطة ساحل بيروت الممتد من الكرنتينا حتى فندق الريفييرا ومجمع الجامعة الأميركية، وكانت أيضاً محملة بالأسهم والإشارات. بسطت الخريطتين على الطاولة الصغيرة أمامي ورحت أحاول قراءة الأسهم والإشارات.

الخريطتان نسختا على عجل وبيد مرتجفة. وكان هذا واضحاً من عدم دقة الخطوط والتعرجات. بعد دقائق أدرت وجهي نحو فايز الذي بدا أقل توتراً وقلت له:

«فايز من أين حصلت عليها؟».

تردد فايز فأتبعت القول فوراً بطمأنته أن هذا الأمر بيد أمينة وإن علينا أن نتأكد من مدى جدية الموضوع، وأن هذا لا يمكن أن يحصل إلّا إذا عرفنا المصدر.

قال فايز متمتماً وبسرعة شديدة خشية أن يسمعه أحد، أو حتى أن تسمع أذناه ما يقول: أنا أعمل لدى أحد قادة القوات اللبنانية، وهذه الأوراق كانت على طاولة مكتبه في المنزل.

لم يترك لي فايز أي مجال آخر فقد هب واقفاً ماداً يده للوداع. صافحته وأفهمته أهمية ما قام به وسألته عند بوابة مكاتب «الهدف»: «فايز..... هل تعرف متى؟».

أجاب وهو يهرول «هذا الصيف». عدت لمكتبي أقرأ بشكل أدق أسهم وإشارات تلك الخرائط، من جنوب لبنان إلى بيروت، ومن بيروت الشرقية إلى بيروت الغربية.

سياسياً كان الاحتمال معقولاً ومنطقياً، فقد كانت قد وصلتنا رسائل أميركية عبر قنوات عربية متعددة، حول ضرورة سحب قواتنا من جنوب لبنان مسافة أربعين كيلومتراً شمالاً، وإلّا فإن الولايات المتحدة لن تتمكن من منع إسرائيل من اكتساح هذه المنطقة دفاعاً عن شمال إسرائيل، الذي كان يتعرض لهجمات صاروخية بين الحين والآخر.

لكن خطة الهجوم وأبعاده الجغرافية المدونة على الأوراق أمامي

تتعدى ذلك. فهي تصل لصيدا المشرفة على بيروت، وجبال المتن المطلة على بيروت، ومحاصرة بيروت من كل النواحي، وغزوها من جميع نواحيها، بما في ذلك الاندفاع من بيروت الشرقية نحو الغربية عند ساحل الجامعة الاميركية.

هل يعقل هذا؟

التوتر والترقب انتقل لي أنا.

أملك الآن بين يدي سراً خطيراً، إذا ثبتت صحته فهو انتصار كبير.

لكن الأمر يحتمل وجهاً آخر وعندها سيصبح الأمر مضحكاً: هل هي خدعة؟

هل يريدون خداع القيادة من خلالي؟

لماذا اختارني أنا؟

ماذا أفعل بها؟

أول من تبادر في ذهني «أبو عمار» ـــ وكانت تربطني به (وما زالت طبعاً) علاقات حميمة آنذاك، بالرغم من تناقض الجبهة الشعبية معه حول الموقف السياسي.

اتصلت به ولم أجده.

على كل حال سلمت نسخة من المخطط للأخ أبو جهاد (خليل الوزير) رحمه الله. وأبلغت الدكتور جورج حبش بالأمر وسلمته نسخة.

ورغم عدم قناعة الجبهة الشعبية بالأمر، كلفت رجال أمن الجبهة أن يسلموا نسخة من المخطط لمدير المخابرات السورية المكلف ببيروت.

فسلمت نسخة له علمت لاحقاً أنه أرسلها فوراً للواء علي دوبا واللواء محمد الخولي.

لم أشعر أنني قمت بواجبي كاملاً، فبعد عدة أيام عشتها أفكر في الأمر بعمق اقتنعت تماماً أن الغزو قادم.

ولذا كان لزاماً عليّ أن أتحدث مع أصحاب القرار حول هذا الأمر لاتخاذ الاحتياطات.

فتحدثت مع الأخ أبو عمار الذي طلب احتياطاً من المجلس العسكري الأعلى أن يضع خطة دفاع في حال قام الإسرائيليون بغزو لبنان فعلاً.

وعقدت عدة ندوات صحافية في أكثر من قطر عربي محذراً من الغزو. ولم يصدقني رفاقي في الجبهة الشعبية فقد ظنوني يمينياً أسعى لتزيين التنازلات السياسية للأخ أبو عمار واعتبروا رأيهم ــ وهو أن إسرائيل لن تغزو لبنان وانها ستوجه ضربات هنا وهناك ــ الرأي الصحيح.

لم أعر هذا الرأي اهتماماً، واتخذت إجراءات وقائية، تفرضها مسؤوليتي المباشرة تحسباً لهذا الغزو، وأثبتت الإجراءات أنها كانت فاعلة وأنقذت الكثير من الأمور عندما بدأ الغزو.

في الرابع من حزيران/يونيو ١٩٨٢ قصفت الطائرات الإسرائيلية المدينة الرياضية في بيروت، وشاهدت بأم عيني سحب الدخان من مكتبي الذي كان قريباً من الموقع، وكان الإسرائيليون يظنون أن الفلسطينيين حولوا المدينة الرياضية إلى مخزن للصواريخ والعربات والذخائر - والظن بعيد عن الحقيقة.

فالفلسطينيون لم يفعلوا ذلك. دمرت الطائرات أجزاء كبيرة من المدينة الرياضية وأكواخ لاجئين هربوا من جنوب لبنان فأقاموا أكواخهم داخل المدينة الرياضية.

دعوت لاجتماع فوري، وأبلغت جميع العاملين بأن الحرب قد بدأت وأن عليهم تنفيذ الخطة التي وضعناها قبل شهرين فوراً. وغادرت المكان إلى المقر الجديد.

(٦)

ريغان قال لشارون: دمرهم إن استطعت وإلّا عليك التعاطي معهم

في الرابع من حزيران/يونيو بدأ الغزو الإسرائيلي للبنان. ومن خلال تتبعي لسير المعارك تأكدت تماماً من صحة أفكاري. فقد استغربت كثيراً خطة الغزو التي أحضرها لي فايز من حيث إنها حددت نقطة الاقتحام البري على أنها مواقع قوات الأمم المتحدة.

فهذا انتهاك للقوانين والأعراف الدولية. لكن الأمر حصل واقتحمت إسرائيل لبنان انطلاقاً من مواقع قوات الأمم المتحدة. وكي أكون صريحاً، فقد فاجأ هذا القوات الفلسطينية، لأن خطط الدفاع اعتمدت على أخلاقية عسكرية عالية أي استبعاد اقتحام القوات الإسرائيلية لبنان انطلاقاً من مواقع ترفع علم الأمم المتحدة، ويعسكر فيها آلاف الجنود والضباط الذين يعتمرون القبعات الزرق.

لكن شارون داس على كل القوانين والأعراف ولطخ علم الأمم المتحدة واندفع بقواته من ذلك المحور. قطع الأخ أبو عمار زيارة التعزية التي كان يقوم بها للسعودية بعد وفاة الملك خالد وعاد إلى بيروت. وانضممت له فوراً في غرفة عمليات رقم (٥).

كانت غرفة عمليات (٥) عبارة عن طابق تحت الأرض معبأ بأجهزة الاتصال والخرائط، وأثاث بسيط، وعدد من الأسرة العسكرية، وكمية من المعلبات.

كان الرئيس أبو عمار قد طلب من اللواء سعد صايل تهيئة مجموعة غرف عمليات بعيدة كل البعد عن مراكز القيادة المعروفة. ذلك أنه كان متوقعاً أن تقصف إسرائيل جواً كافة مراكز القيادة المعروفة في بيروت وغيرها من المدن. لذلك كانت غرفة عمليات (٥) غير مكتظة كعادة غرف العمليات المعروفة، في غرفة عمليات (٥) كان الرئيس أبو عمار يتفحص عبر الخرائط خطط الدفاع الموضوعة من قبل المجلس العسكري الأعلى، والتي كان اللواء سعد صايل يقوم بشرحها له.

خط الدفاع الأول، خط الدفاع الثاني، وبين الحين والآخر كان الرئيس يستوقف أبا الوليد مستفسراً أو معدلاً أو مضيفاً، وبين الحين والآخر كان العقيد أبو أحمد فؤاد القائد العسكري للجبهة الشعبية، الذي كان هو الآخر موجوداً معنا في غرفة عمليات (٥) يتدخل شارحاً، وكان يعد صيدا هي مركز الثقل في الدفاع.

انتهى الشرح وانتهت التعليقات، ثم ساد صمت والكل ينتظر تعليمات الرئيس الذي نظر نحو لا أحد ولا شيء، كان يفكر.

بعد لحظات بدت لنا طويلة جداً، التفت أبو عمار إلى اللواء سعد صايل سائلاً:

هل تحصين بيروت ممكن؟ أظنه من أصعب الأمور.

فكر أبو الوليد لحظات وقال: لكن لا شيء مستحيل. لنحصّن بيروت.

على بركة الله. بيروت هي الهدف. ولما أنهى أبو عمار الكلام. استأذن العقيد أبو أحمد فؤاد من الرئيس للتوجه إلى صيدا وعين الحلوة فقال له:

على بركة الله.

وساد صمت مرة أخرى، وكان الرئيس مستغرقاً في التفكير يقطع المسافة بين الحائط والحائط بخطوات بطيئة وهادئة. اقتربت منه ورحت أقطع المسافة معه.

فذكرته بالخرائط التي أحضرها فايز. فقال لي: تذكرتها، وأرسلت من يحضرها، أظنها صحيحة.

وذكّرته بجملة كان أحد أصدقائنا الأميركيين قد نقلها لي ومفادها أن الأميركيين أعطوا ضوءاً أخضر لغزو لبنان ولكنهم أبلغوا بيغن وشارون أنه في حال فشلهم في القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية وقيادتها بسرعة فعليهم بعدها أن يتعاملوا معهم.

«DO IT IF YOU CAN. BUT IF YOU FAIL YOU WILL HAVE TO DEAL WITH THEM».

فأشار للأخ هاني الحسن الذي كان في عمليات (٥) أن يقترب وقال له:

(علينا أن نتذكر هذا دوماً ولا يغيب عن أذهاننا أبداً) وأعاد إلى مسمع الأخ هاني الحسن تلك الجملة التي نقلت لنا من صديقنا الأميركي.

كانت الطائرات الإسرائيلية قد تعاقبت في الإغارة على منطقة الفاكهاني حيث معظم مقرات التنظيمات الفلسطينية ومنها مقر الرئيس ياسر عرفات الذي أطلق عليه الـ (١٧) كونه معسكر حرس الرئيس الخاص (وهو الفرقة ١٧). كان بقرب ذلك القبو الذي حول مقراً للرئيس.

الـ (١٧) قصف أكثر من عشر مرات فتحطمت البنايات المحيطة والبناية التي ارتفعت فوق مقر الرئيس. لكن المقر لم يدمر بل تحطم زجاجه، وشكل الركام تلالاً أمام مدخله الرئيس. وحفرت القنابل في ذلك الشارع حفراً كبيرة تصلح أن تكون حمامات سباحة.

في تلك اللحظة وردت إشارة تفيد أن الجنرال كالاهان قائد قوات الأمم المتحدة في جنوب لبنان يطلب لقاء عاجلاً مع الجنرال سعد صايل، وأنه سيحضر إلى بيروت على متن طائرة هليكوبتر في أي ساعة يحددها الجنرال أبو الوليد.

وقف اللواء سعد صايل وقفة استعداد انتظاراً لتعليمات القائد.

سأل أبو عمار: أين ستلتقون؟

تداولنا الآراء ورأى الرئيس أن اللقاء يجب أن يتم في (الـ ١٧) غرفة قيادته المعروفة بالرغم من كل الدمار. وطلب من اللواء سعد صايل تحديد موعد للجنرال كالاهان في السادسة والنصف مساء حتى يتسنى للشباب تهيئة المكان. وأصدر تعليماته أن يذهب اللواء سعد صايل بصحبة الأخ هاني الحسن وأنا.

أصدر اللواء أبو الوليد رحمه الله تعليماته الفورية، وكان قليل الكلام وكانت كلماته كطلقات مسدس لا يخطىء.

أريد منكم أنجاز التالي قبل الخامسة والنصف:

تنظيف المكان بشكل تام وإعادة تركيب الزجاج وتركيب كل الأشرطة الكهربائية، وأجهزة التبريد يجب أن تعمل. والمقر من الداخل «لازم يلمع لمع». أريد أن أدخل المقر فأجده نظيفاً ومبرداً. لا تنسوا: الجنرال كالاهان يحب الليموناده الطازجة والشاي فحضروا كل شيء.

توجهنا خارج عمليات (٥) وفي الخامسة اتصل اللواء سعد صايل ليطمئن على سير الأمور، فأعلم أن كافة الأوامر قد نفذت على أكمل وجه، فعلق بنصف ابتسامة (كانت ابتسامته نادرة تماماً).

نظر إلى الأخ هاني الحسن وإليّ وقال: كل شيء جاهز؟

توجهنا للمكان وكان الأمر فعلاً مثيراً للإعجاب، فخلال ساعتين من الزمن أتم الشباب تنظيف المدخل من الركام، وأعادوا كافة أمور مقر الرئيس أبو عمار إلى طبيعتها، وكان المقر بارداً في ظل حرارة بيروت ورطوبة صيفها.

وفي السادسة والنصف مساءً وصل الجنرال كالاهان يرافقه اثنان من ضباط الأمم المتحدة، صافحناهم وتوجهنا نحو طاولة الاجتماع. اتخذنا مواقعنا في جانب من جوانب الطاولة: اللواء سعد صايل وهاني الحسن وأنا بقينا واقفين. وعلى الجانب المقابل الجنرال كالاهان وضابطاه بقوا واقفين. أدى الجنرال كالاهان التحية العسكرية للأخ أبو الوليد، فبادله التحية العسكرية، لكنه لم يأذن له بالجلوس بعد، وحسب الأعراف لا يمكن له أن يجلس قبل أن يدعوه اللواء سعد صايل إلى ذلك. كنت أنا وهاني كمن يفسر أحجية. فاللواء سعد صايل هو من العسكريين البارزين الذين تخرجوا من أهم كلية عسكرية في العالم «وست بوينت الأميركية» والجنرال كالاهان يعلم ذلك. وراحت طلقات مسدس أبو الوليد التي لا تخطئ تتكلم بالإنكليزية بوضوح وبهدوء، ولكن الهدوء القاسي الرزين.

«جنرال كالاهان» لقد خنت شرفك العسكري فلقد سمحت للقوات الإسرائيلية أن تمر عبر مواقعك دون مقاومة».

أطلق أبو الوليد.

أجاب الجنرال كالاهان وهو يقف وقفة استعداد:

«سيدي الجنرال، أنت تعلم الوضع على الأرض أكثر مني. إن حجم الاندفاع كان كبيراً إلى الحد الذي لا يمكن لي وضباطي معه أن نتصدى له».

وأطلق سعد صايل:

«جنرال، إن شرفك العسكري كان يقتضي منك أن تطلق حتى لو رصاصة واحدة من مسدسك. هكذا تعلمنا الأخلاق العسكرية أليس كذلك.؟».

وطأطأ كالاهان رأسه فدعاه عندها أبو الوليد للجلوس. شرح كالاهان حجم الهجوم، وأنه لم يكن يتوقع وصولهم بيروت.

وكالاهان مندهش.

قال له أبو الوليد:

«أنا أعلم أن الوقت ضيق وعلي أن أعود لغرفة العمليات. لكن أريد أن أقول لك إنني بدأت بتحصين بيروت.

فردّ كالاهان على الفور:

«ولكن يا جنرال بيروت لا يمكن تحصينها».

فابتسم أبو الوليد قائلاً:

دعهم يظنون هذا «وقوفاً».

تحية عسكرية. حرس الشرف يأخذ الاستعداد وفجأة يصل الرئيس

ياسر عرفات.

«جنرال كيف حالك» بادره أبو عمار بالتحية.

أدى الجنرال كالاهان التحية للرئيس الذي كان يحمل عصا قصيرة وأجابه: الوضع صعب سيدي الرئيس.

فأجابه أبو عمار بسرعة:

«سيكون صعباً عليهم. لن أؤخرك، لدي جولة في كافة المواقع».

وغادر أبو عمار

وغادر الجنرال.

(٧)

يوم فشل الإسرائيليون في اصطياد عرفات

امتدت أيام الحصار وأصبح ليلها طويلاً وصاخباً. وأطالت قذائف المشاعل عمر النهار وازداد القصف حقداً وحصداً.

- من البحر قصف
- من الجو قصف
- من البر قصف

وفي آن واحد.

أين المفر؟

الملاجىء دفنت

والبنايات دمرت

والشوارع حفرت

وراحت الطائرات تحصد البشر والإسمنت على حد سواء.

وضاقت الرقعة الجغرافية التي يمكن للقيادة أن تتحرك فيها بحرّية نسبية.

وأصبح عقد اجتماع للقيادة قضية معقدة جداً أمنياً.

فقد دمر الطيران الحربي الإسرائيلي بنايات عديدة في منطقة الفاكهاني والمزرعة والملا وغيرها، وكانت طوابقها السفلى قد استخدمت كغرف عمليات أو أماكن للاجتماعات القيادية.

في تلك الفترة كانت شبكة الهاتف تعمل بانتظام مذهل. إذ رغم القصف والتدمير استمرت الشبكة في العمل، مما أعطى فرصة لا مثيل لها للعملاء لإبلاغ الإسرائيليين المعسكرين على التلال المحيطة ببيروت معلومات حول القوات المشتركة، أو قيادات القوات المشتركة، فأصدر الرئيس أبو عمار أوامره لكافة القياديين بعدم استخدام سياراتهم لأنها تلفت النظر، وتجمعها في مكان اللقاء يعرض المكان للقصف والتدمير. إذ رغم القصف الشديد استمر أعضاء القيادة في التوجه للاجتماعات بسياراتهم السوداء وسيارات مرافقيهم مما كان يلفت الأنظار ويفتح المجال أمام العملاء لتبليغ الإسرائيليين في المنطقة الشرقية من بيروت المعلومات حول مكان الاجتماع.

اتخذ شارون لقيادته مقراً في فندق ألكسندر في منطقة برمانا من أعالي جبال المتن الذي كان يشرف على بيروت. وكان بإمكان مدفعية الإسرائيليين ومدفعية دباباتهم المتمركزة فوق تلك

التلال إصابة أهداف في بيروت بشكل دقيق ناهيك عن الطيران الذي كان يتدخل لإصابة أهداف تحميها من المدفعية البنايات العالية.

في العاشر من آب/أغسطس وجه الرئيس أبو عمار الدعوة لاجتماع طارئ للقيادة لبحث آخر التطورات العسكرية والسياسية.

ولقد وزعت الدعوة باليد وطلب من الجميع الحضور إلى نقطة معينة قرب محال سبينس في منطقة الرملة البيضاء.

وعندما وصلت إلى تلك النقطة أبلغت بمكان الاجتماع، وهو بعيد كل البعد عن الرملة البيضاء فتحولت لذلك المكان. كان هذا احتياطاً من الاحتياطات الأمنية. إذ إن الدائرة بدأت تضيق وأصبح واضحاً أن أهداف شارون تركز في تلك الفترة على تصفية القيادة التي اتخذت مواقف شجاعة من عروض الأميركيين والإسرائيليين بالخروج من بيروت عزلاً من السلاح وتحت راية الصليب الأحمر.

وصلت إلى غرفة الاجتماع ولم تكن قد اكتظت بأعضاء القيادة بعد. لكن سرعان ما بدأوا يتوافدون يصافحون بعضهم البعض ويتحدثون حول ما جرى اليوم. ثم ساد الصمت عندما دخل الرئيس أبو عمار.

كان وجه أبو عمار يحمل علامات القلق والانزعاج.

وبادر أحد أعضاء القيادة بتوجيه سؤال للرئيس أبو عمار حول سير

المفاوضات مع فيليب حبيب المبعوث الأميركي إلى لبنان لمعالجة تبعات الغزو الإسرائيلي.

لم يجب الرئيس على السؤال بل هبّ واقفاً مصدراً أوامره بالخروج فوراً من مكان الاجتماع.

علت أصوات البعض بالاحتجاج كون هذا الاجتماع مخصصاً لبحث العروض السياسية والمفاوضات.. لكن أبو عمار كرر كلامه بحزم آمراً الجميع بالخروج فوراً.

وأسرع أبو عمار نحو المدخل ممسكاً بيدي لأرافقه.

وما إن جلسنا في سيارته حتى انطلقت بسرعة جنونية نحو شارع الحمراء في راس بيروت، لكن الرئيس أصدر أمره للسائق عندما اقتربنا من مبنى سينما البيكاديللي أن يهبط نحو مراب السيارات. هبطنا ستة طوابق تحت الأرض وأوقف السائق السيارة منتظراً تعليمات الرئيس.

عندها فقط تمكنت من الحديث: سألته ماذا جرى؟ لماذا أمرت بإخلاء المكان؟

أجابني الرئيس: المكان معرض الآن للقصف في أية لحظة.

كيف عرفت؟ سألته.

هذه الأمور ليست بالمعرفة أو المعلومات. إنه التحليل والإحساس، فعندما حضرت للمكان لاحظت أن عدداً لا بأس به من الناس

تجمعوا لأنهم لاحظوا وصول عدد كبير من القيادات للمكان. وشاهدت بوضوح أن الشرفات في البناية المقابلة تعج بالفضوليين الذين كانوا يراقبون ما يجري. ومن أسهل الأمور أن يتعرف أحد هؤلاء الناس على وجوه بعض القيادات، ومن أسهل الأمور أن يبلغ أحد العملاء هاتفياً فندق ألكسندر بمكان الاجتماع والمكان مكشوف للمدفعية المتمركزة عند تلال برمانا.

لذلك طلبت إخلاء المكان فورا قبل فوات الأوان.

صمتُ لأفكر في بُعد نظر هذا القائد الشجاع واحتياطاته الأمنية.

قد لا يتعرض المكان للقصف، لكن الاحتمال يبقى وارداً، والتصرف السليم في هذه الحالة هو عدم اتخاذ أي موقف قد يعرض القيادة للهلاك. في تلك اللحظة وصلت سيارتا حماية انتشر أفرادهما في المكان، ثم وصل محسن إبراهيم الذي كان يترأس مجلس القوى والأحزاب الوطنية اللبنانية. هبطنا من السيارة وراح الرئيس يتمشى على مهل في قاعة المرآب الخالية إلا من سيارته، وسيارتي حراساته، وسيارة محسن إبراهيم.

كان الرئيس يسير على مهل مطرقاً مفكراً وكأنه ينتظر شيئاً ما.

وفجأة بدأنا نسمع ونحن على عمق ست طوابق تحت الأرض صدى قصف مدفعي.

قصف المكان.

ونجت القيادة من التدمير.

عندها ابتسم الرئيس أبو عمار وأصدر الأمر بالتحرك.

ما إن وصلت السيارة بوابة المرآب على وجه الأرض، حتى أمر الرئيس أبو عمار السائق بالتوجه نحو منطقة رأس بيروت إلى بيت رئيس الوزراء آنذاك شفيق الوزان.

(٨)

وليد جنبلاط يبلغ الرئيس أبو عمار رسالة الإسرائيليين

عندما أحكم الإسرائيليون طوقهم على بيروت واستقر شارون في فندق ألكسندر في بلدة برمانا في المتن قام مسؤولون إسرائيليون بزيارة وليد جنبلاط في قصر المختارة في بلدة المختارة في جبل الشوف.

بعد ذلك استدعي وليد جنبلاط للقصر الجمهوري ـ حيث فيليب حبيب المبعوث الأميركي لمتابعة حرب لبنان.

واعتذر عندها وليد جنبلاط بسبب عدم سلامة الطريق، فقرر فيليب حبيب إرسال سيارة السفير الأميركي المصفحة ضد الرصاص والقذائف، وذات الحصانة أمام الحواجز الإسرائيلية لتحضر بوليد جنبلاط للاجتماع الذي اعتبر آنذاك هاماً جداً. علمنا في بيروت أن

فيليب حبيب اقترح تشكيل لجنة استشارية مكوّنة من أربعة أشخاص: ماروني، سني، شيعي، ودرزي ـ والدرزي المقترح كان بطبيعة الحال وليد جنبلاط.

بعد أن أنهى وليد جنبلاط الاجتماع الذي عقد في القصر الجمهوري في بعبدا توجه إلى بيروت الغربية نحو منزل آل جنبلاط في المصيطبة الغربية من كورنيش المزرعة. كان وليد كمال جنبلاط متوتراً جداً وقلقاً. جلس على المقعد الذي كان يجلس عليه والده المرحوم كمال جنبلاط وهو يهز ساقيه بتوتر.

كان يفكر فيما العمل. من أين عليه أن يبدأ. فقد حمل رسائل غاية في الخطورة لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ولرئيسها ياسر عرفات. استمرت هذه الحال بوليد قرابة نصف ساعة. كان غارقاً في التفكير والقصف ينهال على المنطقة من كل الاتجاهات. وأخيراً هب واقفاً وطلب من مرافقه أن يتصل بالأخ محسن إبراهيم أمين سر المجلس الأعلى للقوى الوطنية اللبنانية الذي اتفق معه على الحضور فوراً للشأن الهام الذي حمله وليد جبنلاط من بعبدا.

وما إن وصل محسن إبراهيم مقر جنبلاط في المصيطبة حتى أسرع صاعداً الدرج القديم المؤدي إلى غرفة مكتب جنبلاط الفسيحة والتي تملأ جدرانها مئات الكتب والمجلدات القديمة.

حياه وليد ودعاه للجلوس وتهاوى إلى ذلك المعقد الجلدي الطويل. وعادت ساقاه الطويلتان تهتزان بتوتر وبدأ يروي لمحسن إبراهيم قصة ما جرى منذ أن زاره الإسرائيليون في المختارة إلى أن وصل بيته في المصيطبة. أطرق محسن إبراهيم مفكراً ثم قال على عجل: يجب

أن تدعو لاجتماع طارئ للقيادة المشتركة كي تطرح عليهم مباشرة كل ما دار وماهية الرسالة والاقتراحات المتصلة بوضع بيروت.

ودّع محسن إبراهيم وليد جبنلاط على أن يتصل به خلال ساعة لإبلاغه بما تم بالنسبة لدعوة القيادة المشتركة اللبنانية ــ الفلسطينية لاجتماع طارئ لإبلاغهم بما حصل. توجه محسن إبراهيم فوراً نحو غرفة عمليات جديدة اتخذ منها الأخ أبو جهاد مقراً مؤقتاً بسبب القصف المستمر لغرف العمليات الأخرى أو محيطها.

كانت غرفة العمليات تلك قبواً لبناية قرب ثكنة الحلو اللبنانية والتي كانت مقراً لقوات الفرقة ١٦. وهي فرقة أمن للتدخل ضد الشغب.!!

كنت هناك أتحدث مع الأخ أبو جهاد حول الوضع وتوقعات محاولة شارون اقتحام بيروت، والاحتمالات الأرجح لخيارات شارون لموقع الاقتحام. وكانت وجهة نظري في ذلك الحديث مرتكزة على تلك الخرائط التي حملها لنا، فايز. انقطع الحديث عندما دخل محسن دخولاً صاعقاً. جلس إلى تلك الطاولة التي كنا نجلس إليها وشرح للأخ أبو جهاد وللموجودين مضمون حديث وليد جنبلاط، وأنه ــ أي محسن ــ اقترح عقد اجتماع طارئ للقيادة المشتركة، لأن الأمر يتطلب أن تتحمل القيادة المشتركة مسؤوليتها التاريخية باتخاذ القرارات المناسبة، والتي تخدم المصلحتين الوطنيتين اللبنانية والفلسطينية.

هز أبو جهاد رأسه مؤيداً والتفت حوله ليرى مَنْ مِنْ مساعديه أو مرافقيه أقرب إليه، وأشار لأحدهم بالاقتراب. كتب أبو جهاد بعض

الكلمات على ورقة صغيرة موجهة للأخ أبو عمار ثم توقف قليلاً ناظرا إلى محسن إبراهيم وسائلاً: أين نقترح عقد هذا الاجتماع؟ نريد مكاناً غير معروف.

فطلب محسن دقائق للتفكير ثم رسا رأيه على مكان قريب من ثكنة الحلو هو مخزن للسجاد العجمي يملكه صديق له. وشرح للأخ أبو جهاد بشكل دقيق خريطة الموقع ومداخله. وافق أبو جهاد ودوّن ذلك في رسالة للأخ أبو عمار.

وحدد موعد الاجتماع بعد أربع ساعات لتتسنى الفرصة لإبلاغ الجميع الذين كانوا تحت ظروف أمنية غاية في التعقيد. وبعد أربع ساعات كنت أدخل مخزن السجاد، وبدأ أعضاء القيادة المشتركة يتوافدون تباعاً حتى اكتظ المكان. جلست إلى جانب محسن إبراهيم الذي لم يشرح طبيعة الموضوع الذي دعوا للاجتماع من أجله، لكنه قال بوضوح إن وليد جنبلاط يحمل رسالة موجهة للقيادة من الإسرائيليين والأميركيين، وأنه يريد أن يطرحها على القيادة.

وصل وليد جنبلاط إلى المكان محيياً الجميع برفع يده. ولم يجلس بل راح يتمشى في المخزن ذهاباً وإياباً والتوتر الشديد باد عليه. كان بالفعل متوتراً جداً لدرجة أنه كان يقهقه بالضحك مع نفسه وهو يتمشى وكأنه يضحك على هذا الوضع. ثم وصل الأخ الرئيس أبو عمار الذي جلس ــ بعد أن حيا الجميع ــ في رأس الطاولة. ومرة أخرى تهاوى وليد على مقعد قرب الرئيس. أوشك الاجتماع أن يبدأ لولا مقاطعة محسن إبراهيم، الذي طلب الانتظار قليلاً لحين حضور الدكتور جورج حبش الذي رأى محسن حضوره أساسياً

لأن القرارات ستكون تاريخية ولها أبعادها على كل القوى الوطنية وتاريخ الأمة العربية.

أيد أبو عمار كلام محسن إبراهيم، لكنها لحظات تلك التي مرت قبل أن نرى الحكيم يهبط درج المخزن متعكزاً على عصاه، أسرع أبو عمار ليمسك بيد الحكيم بحنان ليساعده على هبوط الدرج. وما إن جلس الحكيم حتى بدأ الاجتماع.

التفت أبو عمار إلى وليد جنبلاط دون أن يتفوه بكلمة وكأنه يدعوه للحديث. كان وجه وليد محمراً من الغضب والتوتر. أمسك أبو عمار بقلم رصاص كان موضوعاً أمامه على الطاولة وراح يحدق به ويبرمه بيديه الاثنتين منتظراً كلام وليد جنبلاط. الصمت إذ استمر دقيقة بدا طويلاً. اخترقه صوت محسن إبراهيم الذي قال لوليد جنبلاط: الجميع يصغي إليك وليد بيك.

قال وليد بصوت متهدج جداً: باختصار، مطلوب مني أن أطلق عليكم رصاصة الرحمة. قال هذا وانهار بالبكاء. ثم انفجر بالضحك ثم تماسك نفسه وشرح ما حمّلوه إياه: يريدون من الفلسطينيين الخروج من بيروت دون شروط وتحت علم الصليب الأحمر. وإنهم إذا لم يوافقوا فإن الطيران والمدفعية والبحرية الإسرائيلية ستدمر بيروت وتقتحمها.

وساد صمت مرة أخرى، هذه المرة صمتٌ دام دقائق وقلم الرصاص بقي هادئاً بين يدي أبو عمار الذي لم تفارق عيناه القلم.

وكسر ذلك الصمت «الحكيم» رافعاً يده اليسرى غير المشلولة

ليستأذن بكل أدب ولياقة من الأخ أبو عمار بالحديث. فأجاب أبو عمار فوراً: تفضل يا حكيم.. تفضل.

قال الحكيم بهدوء المصمم وبعمق تاريخي نضالي:

«أرجو من الأخوان قيادة القوى الوطنية اللبنانية، أن يسمحوا لنا أن نستشهد على أرضهم، دفاعاً عن فلسطين والأمة العربية وأول عاصمة عربية يحاصرها الإسرائيليون».

واكتفى بذلك.

تتابع الكلام وأكد معظم قيادات الحركة الوطنية اللبنانية وقوفهم إلى جانب الثورة الفلسطينية واستعدادهم للاستشهاد دفاعاً عن بيروت. نظرت إلى وجه وليد جنبلاط الذي كان يصغي لما يدور فرأيت هدوءاً بدأ يحل محل التوتر. وكان وجود هذا الحشد من القيادات والتعبير عن إرادتهم في مقاومة الغزو قد أعاد لنفسه بعض الثقة. الأخ أبو عمار بقي صامتاً عندما انتهى الكلام. عبر الكل عن موقفه. وراح الجميع ينتظرون تعليقاً من أبو عمار. عندها رفع رأسه وفارقت عيناه ذلك القلم. وقال بثبات:

«أشكر إخواني على هذا الموقف القومي الرائع. نحن سوياً سنمنع إسرائيل من احتلال أول عاصمة عربية. طريقنا واحد وسيسجل التاريخ وقفة العز هذه. لا تنسوا أننا نقاتل وحدنا أقوى جيش في الشرق الأوسط بأسلحة خفيفة. هذه هي معجزة الإرادة.

أما بالنسبة لأخي وليد فأريد أن أقول إننا معاً وسوياً لمواجهة هذا

الغزو الغاشم، وإن العمل السياسي ضروري أيضاً، وسنكون جنباً إلى جنب بعض».

ووقف أبو عمار منهياً الاجتماع قائلاً:

يجب أن نعود لغرفة العمليات فنحن نتوقع محاولات اقتحام لا بد من التخطيط للتصدي لها.

(٩)

مشاكل الحصار العملية، وجد لها عرفات حلولاً عملية

لا بد من الاعتراف أنه بالرغم من المؤشرات التي وردت حول نية إسرائيل غزو لبنان، فإن الترتيبات والاستعدادات العملية لمواجهة الغزو، لم تصل إلى حد التفاصيل الحيوية والعملية.

صحيح أن خطة الدفاع العسكرية قد وضعت، لكنني أعتقد أن القيادة لم تقتنع أن شارون يمكن أن يذهب إلى حد حصار بيروت عاصمة لبنان. لذلك لم تكن الاستعدادات قد شملت احتمال محاصرة بيروت لأسابيع وأشهر.

كان التصور الغالب على توقعات القيادتين الفلسطينية واللبنانية، وكذلك تصور القيادة السورية، هو أن الاجتياح الإسرائيلي المتوقع سوف يمتد مسافة ٤٠ كيلومتراً شمال الحدود اللبنانية ــ الإسرائيلية،

وان إسرائيل ستشن حرب قصف جوي وبحري على كافة المواقع الأخرى، بما فيها بيروت ومواقع القيادة هناك. لكن احتمال حصار بيروت حصاراً كاملاً كما حصل واقعياً لم يكن مرجحاً لدى القيادة السياسية والعسكرية.

ونتيجة لذلك واجهت القيادة الفلسطينية ــ التي كانت تتحمل مسؤولية المواجهة والدفاع بشكل كامل «عملياً» ــ مشاكل عديدة بعضها يشل حركة القوات والقيادة.

البنزين:

محطات الوقود في بيروت لم تتخذ احتياطاتها، لأن محاصرة بيروت كانت مستبعدة، إضافة إلى أن القيادة المشتركة لم تنبه أحداً إلى هذا الاحتمال ليتخذ احتياطاته.

وما هي إلّا أيام معدودات من الحصار الكامل، حتى أصبح البنزين مادة نادرة، ويتداول التجار به في السوق السوداء بأسعار خيالية.

حاولت التنظيمات أن تحل مشكلة البنزين كل تنظيم على حدة.

فسارع الإداريون للاتفاق مع محطات الوقود المنتشرة في بيروت الغربية، ودفعت التنظيمات ثمن الكميات التي ما زالت مخزونة، واستلمت إدارة المحطات توزيع البنزين على آليات وسيارات التنظيمات ــ ١١ ليتراً يومياً لكل سيارة. كان هذا هو القرار. وإذا كان القيادي أو العسكري نشطاً ومتحركاً فاللترات المحدودة ما كانت لتكفي لتحركه حتى منتصف النهار.

بعد مضي شهر على الحصار تفاقمت الأزمة وراح إداريو المنظمات يشترون البنزين من السوق السوداء بأسعار مرتفعة جدا.

إلى أن جاء في صبيحة يوم من الأيام الحمراء ــ ذات اللهيب ــ من يقول لي: هل أنتم مهتمون بشراء البنزين؟ فقلت له: «بالتأكيد نعم».

فأبلغني أن خزانات ضخمة يمكن أن تتحرك نحو بيروت عند حاجز من الحواجز الإسرائيلية، لأنه اتفق مع ضابط الحاجز على دفع نسبة معينة له عن كل خزان يمر من نقطته لصالح ذلك الرجل.

تساءلت حول الأمر فاختصر بالقول:

«طبقت ضابط الحاجز. سأدفع له عن كل صهريج بنزين ألف دولار، وأستطيع أن أدخل أي عدد من الصهاريج بين الساعة الثانية صباحاً والخامسة صباحاً وهي فترة مناوبته».

طلبت منه الانتظار دقائق، واتصلت بالمسؤولين الإداريين، الذين أرسلوا أحدهم ليبحث الأمر، وتبين له أن الاقتراح يوفر علينا مبالغ ضخمة من الأموال بحسب ضوء سعر البنزين في السوق السوداء.

واتفقنا معه على الأمر مع التخطيط. إذ قد يكون الأمر ضرباً من الخداع والغش. طلب أن ندفع له ثمن عشرة صهاريج بنزين سيمررها فجر ذلك اليوم فرفض الإداريون بالطبع.

واتفقوا معه في نهاية الأمر أن يكون من طرفهم مواطن لبناني في

موقع قبل الحاجز الإسرائيلي، ومواطن آخر بعد الموقع الإسرائيلي وأن عملية التبادل الأولى تتم هناك إن حصل.

ووصل البنزين للمحطات. وسارت الأمور بعدها عبر النقيب شلومو على ما يرام، وأبلغنا كل الجهات المعنية بشراء البنزين أن الحواجز الإسرائيلية يمكن رشوتها بالدولار.

فراحت الصهاريج تدخل في ساعات محددة من كل بوابات بيروت المحاصرة.

المازوت:

أما المازوت أو ما يسمى في هذه المنطقة «سولار» فقد كانت معالجة أموره مختلفة.

فالمازوت يستخدم في تشغيل المولدات الكهربائية. (وكانت الكهرباء قد انقطعت عن بيروت بسبب القصف) وفي سلاح الدبابات، والسيارات العسكرية إلخ... وكانت الكميات المطلوبة ضخمة. ومحطات وقود بيروت لم تكن تهتم بذلك لأن الطلب عليه يكبر في فصل الشتاء لتشغيل محركات التدفئة المركزية، أو الفرعية في بنايات بيروت.

وكان القصف الإسرائيلي الشديد من كافة الاتجاهات في شهر تموز/ يوليو، قد دفع عشرات الآلاف لمغادرة منازلهم في الضاحية الجنوبية لبيروت، ومنطقة المطار وبئر حسن وشاتيلا وبرج البراجنة وغيرها نحو جنوب لبنان، أو رأس بيروت المنطقتين اللتين أصبحتا بعيدتين

عن التدمير والقصف.

وعند مناقشة النقص الخطير في مصادر المازوت في أحد الاجتماعات القيادية قال اللواء سعد صايل: لقد وجدت حلاً لهذه المشكلة. ولم يشرح ما هو الحل. فقد كانت هذه عادته: كتوماً إلى أن ينجح.

وعلمنا بعد أسبوع كيف تمكن أبو الوليد من حل هذه المشكلة، بنايات بيروت ـ بدون استثناء ـ تحتفظ تحت الأرض بخزانات للوقود لكل شقة من شقق البناية التي قد تكون مؤلفة من عشرة طوابق وعشرين شقة وغيرها.

فأمر بشراء مضخات وأرسل صهاريج فارغة في ظل القصف الشديد، إلى كل المناطق التي هجرها المواطنون وسحب من الخزانات كل قطرة مازوت وأفرغها في خزانات محطات وقود كانت قد توقفت عن العمل بسبب عدم وجود البنزين أو المازوت.

وهكذا حل اللواء العبقري سعد صايل مشكلة المازوت في بيروت بأكملها وليس فقط مشكلة المازوت للقوات المشتركة اللبنانية الفلسطينية.

الخبز والطحين:

مع اشتداد الحصار وازدياد القصف، وامتداد الوقت، بدأت الأفران تبيع الخبز للمواطنين بأسعار عالية، وأصبحت بعد فترة أسعاراً مجنونة لا يمكن معها للفقراء أن يأكلوا خبزاً.

وطرح الأمر ــ وهو خطير ــ في اجتماع مختصر للقيادة اللبنانية ــ الفلسطينية المشتركة. ولم يحضر ذلك الاجتماع سوى عدد بسيط من أعضاء القيادة المشتركة.

استمع أبو عمار للأمر وقال: غداً سأحل المشكلة. ولم يشرح كيف سيحل المشكلة لكن الجميع اكتفوا بكلمات أبو عمار، وهم يعلمون أنه إن وعد بحل مشكلة ما فإنه قادر على ذلك.

في اليوم التالي أمر أبو عمار بمصادرة كل كميات الطحين الموجودة في مخازن التجار في بيروت.

فتم ذلك.

ودعا التجار لاجتماع. وسألهم سؤالاً واحداً: ما هو السعر الذي كنتم تنوون طرحه على الأسواق؟

لم يتفوه أحد بكلمة.

كان الجميع يرتعب.

فتحدث أبو عمار بهدوء حول الحصار والمعارك الوطنية، ومعاناة الشعب وضرورة التكاتف.

وعاد إلى سؤالهم مرة أخرى عن السعر.

أجابه في آخر الأمر أحد التجار بذكر سعر معين من الواضح أنه أعلى بكثير من سعر السوق.

توجه أبو عمار للجميع سائلاً: هل هذا السعر مقبول للجميع؟

كان رد فعلهم إيجابياً.

فأمر ياسر عرفات بدفع قيمة الطحين المصادر.

وأمر أبو عمار بتوزيع الطحين على كافة الأفران بالكميات التي كانت الأفران تستخدمها عادة، على أن يوزع الخبز مجاناً على المواطنين بعد أن يُدفع لمسؤولي الأفران أتعابهم وأرباحهم.

(١٠)

السوفيات يطلبون من عرفات الخروج من بيروت تحت راية الصليب الأحمر

منذ أن بدأ الغزو الإسرائيلي للبنان، في الخامس من حزيران/يونيو من عام ١٩٨٢ ركزت عجلة الدعاية الإسرائيلية أن هدفها من العملية العسكرية هو هدف دفاعي، وأن قواتها ستطهر منطقة الأربعين كيلومتراً المحاذية لحدودها الشمالية، بحيث تمنع القوات المشتركة الفلسطينية والوطنية اللبنانية من قصف مستوطنات وبلدات شمال إسرائيل بالصواريخ. وعندما تمكنت القوات الإسرائيلية من السيطرة على قلعة الشقيف («بوفور» كما يسميها الفرنسيون) أذاع رئيس الوزراء بيغن بياناً أوحت لهجته أن أهداف الغزو قد تمت، لكن القوات الإسرائيلية استمرت في تقدمها عبر تكتيك القفز، ففي الوقت الذي كانت فيه القوات المشتركة تقاتل بضراوة جحافل الجيش الإسرائيلي في منطقتي صور وصيدا، أنزلت سفن بحرية أميركية الصنع قبالة شواطىء خلدة جنوب بيروت عشرات الدبابات

البرمائية ظناً أن القيادة المشتركة ستؤخذ على حين غرة، وأن معنويات المقاتلين ستنهار لأنهم سيظنون أن الإسرائيليين اجتاحوا كل مناطق الجنوب وأنهم يقومون باقتحام بيروت.

إلّا أن التصدي البطولي أجبر هذه القوة الغازية على التراجع بعد أن دمر المقاتلون عدداً من الدبابات وأسروا اثنتين منها.

ولم يبدُ الغزو الإسرائيلي خطيراً للسوريين ــ إذ كانوا قد أُبلغوا عبر الولايات المتحدة أن الإسرائيليين يقومون بعملية محدودة رداً على ضربات الصواريخ ــ إلا عندما تقدمت ارتال دباباتهم في عمق الشوف، ووصلت قواتهم بحمدون في جبل لبنان. عندها استنفرت سورية قواتها الخاصة، ونقلتها بالطائرات المروحية وخاضت هذه القوات ملاحم بطولية لوقف التقدم الإسرائيلي الذي كان يستهدف السيطرة على مرتفعات جبل لبنان المطل على البقاع والتي تمكن ــ إن تمّت ــ المدفعية الإسرائيلية من ضرب دمشق.

لكن سورية عادت فوافقت على وقف إطلاق النار في العاشر من حزيران/يونيو، بعد اتصالات سوفياتية أميركية مكثفة، وخرجت سورية من المعركة، وبقيت القوات الفلسطينية واللبنانية الوطنية في مواجهة الجيش الإسرائيلي بكامل عدده وعدته. واستثار الصمود الفلسطيني ــ اللبناني جنون الجنرال شارون الذي أصدر تعليماته بقصف بيروت جواً وبراً وبحراً دون انقطاع... وتغيّر البيان الإسرائيلي، إذ لم يعد الهدف «تطهير» الأربعين كيلومتراً، وإبعاد قاذفات الصواريخ عن مستوطنات وبلدات شمال إسرائيل، بل أصبح تصفية القيادة الفلسطينية وتطهير بيروت من الفلسطينيين. كان الأخ أبو عمار يجري اتصالات مكثفة مع سفراء الدول دائمة

العضوية في مجلس الأمن، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، لوضع حد للغطرسة الإسرائيلية، ولقد لعب الأخوة اللبنانيون دوراً هاماً مع الدول الغربية، خصوصاً فرنسا. لكن حلفاء منظمة التحرير الدوليين تمثلوا آنذاك بالمعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفياتي، القوة العظمى الرادعة، لاجتياحات كهذا الذي حصل في لبنان. وقول «الرادعة» من باب ضغط الاتحاد السوفياتي على الولايات المتحدة لتقوم بدورها بالضغط على إسرائيل لوقف عملياتها العسكرية. إلّا أن هذا الأمر لم يحصل منذ أن وقّعت سورية اتفاق وقف إطلاق النار في العاشر من حزيران/يونيو، وبدا المعسكر الاشتراكي عاجزاً كل العجز عن تقديم يد المساعدة تماماً كما كان الوضع العربي. فكان على منظمة التحرير الفلسطينية وشركائها الوطنيين اللبنانيين أن ينظموا أنفسهم للصمود طويلاً أمام الغزاة الإسرائيليين، بالرغم من الحصار المحكم الذي فرض على بيروت، وتناقص الذخائر، والمواد التموينية، والطبية، وفي الوقت نفسه كان على القيادة برئاسة الأخ أبو عمار أن تشحن كل طاقاتها وحكمتها السياسية لتصل إلى حل مشرف، من خلال التفاوض مع فيليب حبيب المبعوث الأميركي، الذي كان يجري اتصالاته بالقيادة عبر الأخوان اللبنانيين سواء كانوا مسؤولين رسميين مثل رئيس الوزراء شفيق الوزان أو غير رسميين مثل رئيس الوزراء الأسبق صائب سلام، وتشير حقائق الأمور والمعلومات الدقيقة أن الولايات المتحدة الأميركية أعطت إسرائيل ضوءاً أخضر لضرب منظمة التحرير، وأنها مددت لها أكثر من مرة الفترة الزمنية المسموح بها لتحقيق هذا الأمر، وأن هذا الموقف أبلغ للسوفيات الذين لم يبلغونا، بالرغم من تعلق بعض القياديين بحبال الهواء حول الموقف السوفياتي وادعائهم أنهم تسلموا رسائل من موسكو ـ وكانت كلها من ممثليهم في العاصمة السوفياتية، ولا علاقة للكرملين بها. ولقد وصلت الأوهام ببعضهم إلى حد

التحدث في اجتماعات رسمية حول قرب وصول حاملات طائرات هليكوبتر سوفياتية قبالة شواطئ بيروت وقرب التدخل السوفياتي. كان الأمر يبدو لي مضحكاً وصبيانياً، وأضحكني هذا الأمر كثيراً عندما تحدث بعضهم في اجتماع ترأسه الأخ أبو عمار فقالوا في مداخلاتهم إن السوفيات أكدوا في رسالة مستعجلة وصلت إلى أحد القياديين أنهم سيتحركون بسرعة، وأنهم سيتدخلون.. فأجابهم الأخ أبو عمار بهدوء شديد «ولماذا يضع السوفيات سرهم لدى فلان من القيادات فبإمكانهم الاتصال برئيس منظمة التحرير مباشرة إذا كان لديهم قرار خطير كالذي تتحدثون عنه». وخرج بعدها الأخ أبو عمار ليتابع المفاوضات السياسية مع رئيس وزراء لبنان شفيق الوزان. والحقيقة بعدها كانت معروفة للأخ أبو عمار، وهي بالضبط ما أبلغه إياه السفير السوفياتي في بيروت نقلاً عن الكرملين مباشرة.

حضر إلى بيتي الكائن في تلة الخياط، الكولونيل نوسكوف، وكان آنذاك مسؤول الاستخبارات العسكرية السوفياتية في سفارتهم ببيروت، وأبلغني أن هناك رسالة عاجلة من الكرملين وصلت للتو، وأن السفير السوفياتي يريد أن يبلغها للأخ أبو عمار فوراً، فقلت له أنني سأبلغ الأخ أبو عمار بها بأسرع ما يمكن. كان هذا في الساعة الثالثة فجر السابع عشر من تموز/يوليو.

لأسباب أمنية، لم يكن ممكناً أو مسموحاً الاتصال هاتفياً، فأسرعت نحو مقر الأخ أبو عمار السري وأبلغته بالأمر. فأمر بالتوجه فوراً للسفارة السوفياتية، ورافقته في تلك الزيارة الخاطفة. كان القصف الإسرائيلي البحري والبري مستمراً. وفيما كانت السيارة الصغيرة التي نقلتنا تلتهم كورنيش المزرعة، متجهة نحو السفارة السوفياتية،

أنارت قنابل الإضاءة الإسرائيلية سماء بيروت، فأمر الأخ أبو عمار السائق أن يقود السيارة بسرعة عادية.

وما هي إلّا دقيقة أو نحو ذلك وصلنا بوابة السفارة السوفياتية. وكان الحرس السوفياتي منتشراً، وكأنه ينتظر زائراً هاماً، على الرغم من أن الرئيس لم يبلغ السفارة بتلك الزيارة. فتحت الأبواب فوراً، ودخلت سيارته الصغيرة باحة السفارة الداخلية، وهبط منها الأخ أبو عمار الذي سار في المقدمة بخطوات عسكرية سريعة كعادته، وما إن وصل درج المبنى الرئيسي حتى هرع السفير ومعه طاقم السفارة الأساسي لاستقباله.

«كاك دي لا» بادر الأخ أبو عمار بمرح وبمعنويات عالية السفير السوفياتي الذي أجاب بمعانقته ومرافقته بسرعة إلى داخل السفارة.

في تلك اللحظة بدأت أصوات الصواريخ والقنابل التي قذفت من الطائرات الحربية الإسرائيلية تصم الآذان وتهز أركان السفارة.

(بدا القلق على وجوه السوفيات. الرئيس كان هادئ الأعصاب «هل تشربون الشاي سيادتكم»؟ سأل السفير أبو عمار.

أجاب الأخ أبو عمار بأن الوقت ضيق، وأنه لا يريد أن يجرب كرم السوفيات، ثم أطرق ناظراً إلى السفير وكأنه يدعوه للكلام.

قال السفير محاولاً أن يضفي على ملامحه هدوءاً كمثل الذي بدا على وجه الأخ أبو عمار:

لقد وصلتني للتو رسالة من مجلس السوفيات الأعلى وهي موجهة لكم يا سيادة الرئيس. تابع الأخ أبو عمار صمته منتظراً كلام السفير: «الوضع خطير يا سيادة الرئيس ويبدو ان الولايات المتحدة (تعد) المنطقة منطقة نفوذ لها، ونحن على يقين أنها أعطت ضوءاً أخضر للإسرائيليين أن يصفّوا قيادة منظمة التحرير.

«والرسالة التي وصلتني من الكرملين واضحة كل الوضوح، فالرفاق يرون أنه من الحكمة أن تحني الرأس قليلاً لتنقذ ما يمكن إنقاذه، لأنه لا مجال للتدخل السوفياتي سياسياً أو عسكرياً، أو حتى إنسانياً، وأنه إذا عرض عليكم أن تخرجوا من بيروت على ظهر سفينة حربية أميركية فلا تترددوا».

ابتسم أبو عمار بهدوء بارد كزرقة مياه المحيط، وقال: إننا نعلم ذلك، ولقد قررنا الصمود والمقاومة حتى نتمكن من إيجاد حل سياسي مشرف على طريقتنا.

لن نخرج في شاحنات الصليب الأحمر رافعين أيدينا مستسلمين، ولن نخرج على ظهر سفينة حربية أميركية، بل سنخرج في الوقت المناسب لنحمي ثورتنا ومستقبلنا، ولكن بالمحافظة على كرامتنا، وزخم استمرار نضالنا لمنع شارون من دخول بيروت مهما كلف الأمر.

أرجو أن تبلغ هذا للرفاق الأعزاء والأوفياء في موسكو.

شكر السفير وهبّ واقفاً معتذراً أن الوقت ضيق، وعليه أن يتابع مواجهة خطة شارون للدخول إلى بيروت التي يمكن أن تبدأ صباح ذلك اليوم.

(١١)

يوم حاول شارون اقتحام بيروت

ظن شارون أن القصف اليومي والليلي براً وبحراً وجواً سوف ينهك الفلسطينيين، ويجعل اقتحام بيروت عملية سهلة، وظن أن نضوب ذخائرهم سوف يجعل دفاعهم هم وحلفائهم الوطنيين اللبنانيين أمراً صعباً.

واختار ــ حسب خطته ــ منطقة المتحف في بيروت، وهي المنطقة التي أصبحت بفعل تقادم الحرب الأهلية، خطاً فاصلاً بين ما اصطلح على تسميته «بيروت الغربية» و«بيروت الشرقية»، والمتحف ملاصق لميدان سباق الخيل في بيروت وهو ميدان واسع جداً ومعروف.

وظن الجنرال شارون أنه إذا اقتحم بيروت من تلك النقطة، واندفع بدباباته نحو البحر فإنه سيقطع أوصال بيروت الغربية، ويختصر احتلال أول عاصمة عربية بدفع دباباته على كورنيش المزرعة كيلو

مترات قليلة لتصل البحر.

لكنه لم يكن يدري أن ما حلم به ليلاً لن يكتب له النجاح نهاراً، فقد كانت المدينة مستعدة للدفاع عن حجارتها وشوارعها وأسوارها وأهلها.

بين متر وآخر ـ متراس ومدافع عن الوطن ـ عن العرب، وكان شارون يظن أن اندفاع دروعه من المتحف وميدان سباق الخيل نحو الحمام العسكري لن يأخذ منها سوى ساعة أو ساعتين.

أعد الجنرال شارون العدة خلف الأسوار، وظن أن عدة داود الحديدية كافية لاقتحام «لحم جوليات» وأن شمشون سينتصر على دليلة، ساعده (أعداء الداخل) لكن هذا لم يكن الأساس، كان درع داود هو الذي يغزو بعنجهية وغطرسة القوة واليأس.

فقد كانوا أقوى درعاً ومدججين بأسلحة تدميرية لا تبقي ولا تذر.

وظن الشرير شارون أن بإمكانه أن يقتحم بيروت.

بيروت التي تحولت بفعل الحرب الأهلية وبفعل الغزو الإسرائيلي إلى «شوارع وبواريد وخنادق».

وازداد عنادها..

لتقاوم..

وراحت تلتقط حجارتها المتساقطة بفعل قذائفهم المنهمرة لتقذفها في

وجوههم.

حجر يسقط..

حجر يلتقط..

ونضرب به عدونا

وكدس شارون دباباته بصلف وبغض ـ لم يفكر لحظة بأن على خط المواجهة شباباً اشتروا الموت بثمن دبابة إسرائيلية.

وأنهم يتباهون بعدد الدبابات التي دمرها كل منهم.

على كل حال، جمع آلياته وعسكره، قرر داود المدجج بالدروع والمدفعية أن يقتحم خطوط جوليات، تجمعت دبابات شارون خلف المتحف، وكانت خطته أن تقتحم الدروع أسوار ميدان سباق الخيل من الجهة الشرقية، وأن تتقدم داخل أسوار الميدان نحو أسواره الغربية وأن تقتحمها لتطل بفوهات مدافعها على كورنيش المزرعة حيث «أبو خضر» يبيع لأهل بيروت ساندويشات.

السفارة التشيكية كانت عبارة عن بناية شاهقة تطل على ميدان سباق الخيل. وهي تطل في واقع الأمر على مناطق المتحف، وأبو خضر، وكورنيش المزرعة، وجوارها.

أبو جهاد أرسل شاباً مزوداً بمناظير بعيدة المدى، ليعتلي مبنى السفارة ويطل على المتحف وميدان سباق الخيل، والجوار، كي يبلغ عبر جهاز إرسال غرفة العمليات بكل تحرك في المنطقة.

الخطة كانت حسب تصور الجنرال شارون ذكية وناجعة وأنها ستحقق ما يريد بمفاجأة الفلسطينيين.

استمر سمير صامداً على سطح مبنى السفارة التشيكوسلوفاكية يراقب كل التحركات من الشرق، ويبلغ عبر جهازه الصغير غرفة العمليات عما يشاهد أو يلاحظ. في غرفة العمليات، اختلف الوضع فوراً، فقد تأكد الجنرال سعد صايل (أبو الوليد) والأخ أبو جهاد من أن شارون ينوي فعلاً اقتحام بيروت.

وأبلغ الرئيس بذلك.

رأى الرئيس أن معركة المتحف هي معركة حاسمة ولها أبعاد سياسية خطيرة سلباً وإيجاباً.

وأصدر تعليماته للأخوين أبو الوليد وأبو جهاد أن يعدّا العدة جيداً لتلقينهم درساً. واستنفر الجميع.

وراحت غرفة العمليات تعمل كخلية نحل.

أوامر تصدر..

ضباط ينفذون..

اتصالات بكل المواقع..

أبو الوليد، ذو الوجه الذي لا يبتسم عادة، علت وجهه في تلك اللحظات ملامح متشابكة لمشاعر متشابكة: الجدية ــ الغضب ــ التصميم ــ الاحتراف العسكري ــ التحدي.

وطلب من أحد ضباط غرفة القيادة أن يأتيه بالإحداثيات المناسبة، انطلاقاً من كل المواقع، بطاريات المدافع والصواريخ.

وتابع إصدار التعليمات في كل اتجاه. طلب استدعاء المسؤولين العسكريين للتنظيمات لاجتماع فوري.

وطلب منهم بكل حزم تحديداً دقيقاً لمدافعهم، وبطاريات صواريخهم، وحجم الذخائر المتوفر لديهم، ووعد الجميع بتجميع المعلومات المطلوبة خلال ساعتين من الزمن.

خلال ساعتين بدأت المعلومات المطلوبة تصل إلى يد أبو الوليد وأبو جهاد.

علق أبو الوليد باقتضاب المصمم:

لدينا فوهات نارية كثيفة وكميات من الذخائر تستطيع أن توقف الاقتحام. وجمع ضباطه حول خريطة تفصيلية للموقع وتسلم كل منهم مهمتة: تحديد أهداف كل فوهة وتثبيت إحداثيات تلك الفوهة.

وأصدر أمراً للجميع بعدم إطلاق النار إلا بأمر مركزي، وحسب التحديدات المقررة في غرفة القيادة المركزية. وراح الوقت يمر بطيئاً.. أبلغ الأخ أبو جهاد الرئيس الذي كان يتابع عن كثب عملية الاستعداد لمواجهة الاقتحام أنه سيتوجه لمنطقة «ميدان سباق الخيل» ليطمئن على الوضع وليتأكد بأن كل الشباب المقاتلين على استعداد للمواجهة، فأجابه الرئيس «على بركة الله».

القصف الأعمى من الجو والبحر والأرض استمر دون توقف، كان ذلك اليوم يوماً جهنمياً. لم تر الحروب العالمية مثله.

فقد أراد الجنرال شارون أن يمهد الطريق لدباباته وجنوده. ورغم اختلاف تقديرات الخبراء العسكريين لكمية الأطنان من المواد المتفجرة التي قذف شارون بيروت بها ذلك اليوم، فقد أجمع الخبراء أنها تعادل تلك التي ألقيت على مدينة دريسدن في ألمانيا إبان الحرب العالمية الثانية والتي مسحت مدينة دريسدن عن الوجود.

واقتربت اللحظة: لحظة اقتحام الجنرال شارون بيروت.

استمر القصف..

عاد أبو جهاد لغرفة العمليات، وأفاد الرئيس والموجودين بأن المقاتلين على أهبة الاستعداد.

«إنهم يتحركون ببطء نحو سور ميدان السباق».

جاء صوت سمير عبر جهاز الالتقاط.

إذاً.. بدأت المعركة.

نهض أبو الوليد فوراً وتوجه نحو الخريطة يحيط به ضباط غرفة العمليات.

«أكدوا على الجميع ألا يطلق أحد النار إلّا عندما يصدر الأمر».

وانهمك الضباط في الاتصال وتأكيد الأوامر.

وجاء صوت سمير من جهاز الالتقاط هامساً وكأنه لا يريد أن يسمعه الإسرائيليون: «الدبابات تتقدم ببطء ومن بعيد. هناك مئات

الجنود يستعدون للتحرك خلف الدبابات».

أبو الوليد وأبو جهاد يتأكدان من سلامة الأمور، والرئيس يقطع المسافة بين الحائط و الحائط ذهاباً وإياباً مفكراً.. ينظر إلى ساعته أحياناً... وينتظر... واستمر سمير تزويد غرفة القيادة بالمعلومات، وقال إن الدبابات الأولى تقترب من الأسوار وتتقدم ببطء.

«عشر من دباباتهم هي الآن داخل الأسوار وتتقدم نحو الأسوار الغربية».

راقبت وجه الجنرال أبو الوليد:

كان صامتاً كحد السيف ـــ مستغرقاً وكأنه يقارع دماغ شارون.

كان ينتظر معلومة ما من سمير.

دقائق مضت قبل أن يأتي صوت سمير حاملاً خبر هرولة عشرات الجنود خلف الدبابات المتقدمة، وأنهم أصبحوا في منتصف المسافة بين السور الشرقي والسور الغربي.

حبس الجميع أنفاسهم في حركة لا شعورية، وكأنهم لا يريدون تفويت فرصة المفاجأة.

كان الرئيس ينظر إلى ساعته...

وكذلك نظر أبو الوليد إلى ساعته ـ وكان كلاهما يقيسان المسافة والزمن لتحديد موعد المباغتة.

أشار أبو الوليد لضباط غرفة القيادة أن استعدوا.

وبعد ثلاث دقائق أطلق ذلك الصاروخ الهادئ الجدي والصارم «افتح النار».

انطلقت الحمم الفلسطينية من مئات الفوهات كلها.. نحو نفس الهدف: القوة المقتحمة.

بين عويل الصواريخ ودوي المدافع كان صوت سمير يحاول التسلل لآذان ضباط غرفة القيادة يصف ما يجري، وكيف تناثرت أشلاء الدبابات وسقط الجنود وأنهم يحاولون التراجع عبثاً.

فالنيران تحاصرهم.

وأمر أبو الوليد: «افتح النار».

المرحلة الثانية:

ولاحقت الصواريخ والمدافع أرتال العدو الخلفية.

ثم صدر الأمر «أوقف النار».

فتوقف الإطلاق.

سمير يقول: هدوء يسود الميدان.

ثم يقول إن جنوداً يتقدمون لانتشال من سقط على ميدان سباق الخيل.

«افتح النار» أمر الجنرال أبو الوليد فانصبّت عليهم.

واستمر المقاتلون بتسجيل الأهداف إلى أن أسدل الليل ستاره.

أصبح الجنرال شارون في حيرة من أمره بعد أن فشل فشلاً ذريعاً في اقتحام كورنيش المزرعة.

وأصبح همه الوحيد أن يلم أشلاء دباباته وجثث جنوده.

ولقن الفلسطينيون الجنرال شارون درساً يبدو أنه نسيه هذه الأيام.

(١٢)

طرابلس... طرابلس

ساد العلاقات الفلسطينية ــ السورية توتر شديد وصل لاحقاً إلى حد الصدام أثناء الحرب الأهلية اللبنانية في النصف الثاني من عقد السبعينيات.

لقد تفجر الصراع الداخلي في لبنان، بسبب تراكم الإجحاف الذي كان يلحق ببعض الطوائف، لصالح طوائف أخرى، في وقت انقلبت فيه الموازين الديموغرافية. فالشيعة في لبنان أصبحوا الأكثرية، لكن حقوقهم برلمانياً واقتصادياً وحصتهم في السلطة التنفيذية بقيت على حالها التي رسمها الفرنسيون قبل خروجهم من لبنان ونيل الاستقلال.

لكن الظروف الإقليمية التي انفجر فيها هذا الصراع كانت ظروفاً خطيرة، من حيث رغبة إسرائيل وسعيها لتدمير منظمة التحرير

الفلسطينية، وإقامة حكومة لبنانية مستعدة لتوقيع معاهدة سلام مع إسرائيل. في الوقت الذي كانت سورية تسعى فيه للسيطرة على الملفين اللبناني والفلسطيني لتصبح القوة الإقليمية القادرة على التفاوض مع إسرائيل لإنهاء احتلالها الجولان والضفة الغربية وغزة.

ورفض ياسر عرفات كافة أشكال محاولات الهيمنة أو رهن القرار الفلسطيني للاستراتيجية السورية.

ورغم ذلك سعى وعمل لمنع تورط «م.ت.ف» في الصراع الداخلي اللبناني، وإضافة ثقل كبير لوزن القوى الوطنية اللبنانية التي كانت تعمل لكسر الإجحاف في المجتمع اللبناني وخلق نوع من التوازن القائم على الحقائق الديموغرافية الراهنة.

تماماً كما كانت تخشى سورية من أن تتجه القوى المسيحية اليمينية في لبنان نحو إسرائيل طلباً للعون، كان عرفات يخشى ذلك.

وحاول منعه برفض الضغوط التي كانت تمارسها بعض فصائل منظمة التحرير والقوى الوطنية اللبنانية، لزج القوات الفلسطينية في الصراع الدائر إلى جانب القوى الوطنية اللبنانية.

لكن سورية قررت التحرك بزج قواها العسكرية إلى جانب القوى المسيحية اليمينية (لمنع ارتمائها في أحضان إسرائيل) مما أخل كثيراً بالمعادلة، وزاد من الضغوط على ياسر عرفات، الذي استمر في معارضة ذلك.

في ذلك الوقت لم تكن سورية تملك المعلومات الكافية حول

العلاقات التي نسجتها القوى اليمينية اللبنانية مع إسرائيل تدريباً وتسليحاً وتنسيقاً. وراحت دوائر استخباراتية في هذه الأحزاب اليمينية، تعمل عبر الاستفزاز والاستهداف لجر القوات الفلسطينية أكثر فأكثر نحو ساحة المعركة، وذلك لتقوية الروابط مع إسرائيل من ناحية ولجر السوريين لمواجهة مع الفلسطينيين تخدم مصلحتهم الاستراتيجية.

لعشرات الآلاف من المسلحين الذين كانوا يتصارعون على أرض المعركة لم تكن هذه الحسابات واضحة أو ربما حتى واردة.

ولم تكن كذلك للعديد من القيادات. كان الجميع يفكر بمصلحة ذاتية. فئات تدافع عن الأمر الواقع الذي أكل الدهر عليه وشرب، وفئات تعمل لتغيير ذلك دون أن يكون واضحاً بذهنها شكل ومضمون المعادلة الجديدة، فاحتدم الصراع... كل يحاول القضاء على الآخر. أما إسرائيل فقد كانت منغمسة سراً، وتراقب عن كثب مجريات الأمور، لتحديد مكان وزمان اقتناصها الفرصة لتدمير «م.ت.ف» وإقامة حكومة لبنانية (أو حكم) موالية أو موال لها.

وكانت حسابات إسرائيل تأخذ بعين الاعتبار كل الروابط الإقليمية، فكانت تسعى لتحقيق حد أدنى (إن لم تحقق الأعلى) وهو إقامة حكم لبناني لا يسمح لأية قوة استخدام أراضيه للهجوم على إسرائيل (سورية وفلسطين).

بدا أن التوتر الشديد في العلاقات السورية ــ الفلسطينية سببه تفجر الحرب الأهلية اللبنانية. لكن السبب الحقيقي كان إصرار سورية على الهيمنة على القرارين الفلسطيني واللبناني لتقوية موقعها

التفاوضي بما أن خيار الحرب لم يعد وارداً منذ نهاية ١٩٧٣.

وراحت سورية تنسج سراً علاقات مع مراكز وقوى داخل «فتح» بهدف خلخلة زعامة عرفات، وإقناع «فتح» بالتحالف الاستراتيجي مع سورية.

وتبين ذلك واضحاً في المجلس الوطني الفلسطيني الذي عقد في دمشق (مقر الاتحاد العام لنقابات العمال) عام ١٩٧٩.

فقد تمكن تحالف قوى اليسار مع مراكز قوى في اللجنة المركزية لحركة «فتح» من شل المجلس الوطني.

واستنفر عرفات وراح يعبئ الفتحاويين، تارة يطلب منهم الخروج من الجلسة لإفقادها النصاب، وتارة أخرى يعودون وهم ينشدون: أنا ابن فتح ما هتفت لغيرها.

إلى إن حصل ما لم يكن في الحسبان.. فقد اغتالت إسرائيل «أبو حسن سلامة» علي سلامة في بيروت، وكان مقرباً وعزيزاً على قلب عرفات.

فتقرر أن يعزي أعضاء المجلس الوطني الرئيس ياسر عرفات، الذي وضع نظارة سوداء على عينيه وراح يتقبل التعازي وكأنه يتقبل المبايعة مرة أخرى، بعد أن كادت البيعة أن تفرط.

بعد انتهاء العزاء عاد عرفات لقاعة المجلس الوطني وهرول الجميع للقاعة ولم يترك مجالاً لأحد، فقد كان الخطر يكمن في إنهاء

جلسات المجلس الوطني من دون أن تنتخب قيادة، مما كان سيخلق فراغاً خطيراً.

وأعلن الرئيس اقتراحه بأن تبقى القيادة على حالها أي أن يعيد المجلس الوطني انتخاب أعضاء اللجنة التنفيذية السابقة.

وبالرغم من المداخلات ومحاولات التعديل أصر ياسر عرفات. فقد كان يريد أن يثبت لسورية أن القرار الفلسطيني سيبقى مستقلاً، وأنها لن تتمكن (حتى وإن تحالفت مع بعضٍ من «فتح») من التأثير أو التحكم بالقرار. وهكذا كان. صوّت المجلس الوطني بالأغلبية، ورفع ياسر عرفات الجلسات وتحرك موكبه، دون إبطاء، إلى بيروت رغم تحذيره من أن طريق الجبل مغلقة بسبب الثلوج.

رغم أنني كنت في تلك الفترة عضو المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وقفت إلى جانب عرفات في تلك المعركة.

وتحركت نحو بيروت في الوقت الذي تحرك موكبه.

عندما شارف الموكب على الوصول إلى ظهر البيدر بدأ الثلج يتكاثف. فربطت دواليب السيارة بالجنازير، ورغم ذلك توقف الموكب عن التحرك عند ظهر البيدر لكثافة الثلج. فهبط ياسر عرفات من سيارته وبدأ يدفع السيارة للإمام. وهب الجميع بطبيعة الحال وراحوا يدفعون السيارات للإمام إلى أن تخطت المغطس الثلجي الخطير. وبدأ الموكب بالهبوط نحو بيروت.

كانت هذه إحدى ميزات شخصيته. يبدأ هو العمل أمام الجميع

ليحذو الجميع حذوه.

هكذا فعل عندما قاوم الهجوم على مكتبه في عام ١٩٧٠ في الأردن وعند دوار مكسيم في جبل الحسين.

وهكذا فعل في العرقوب جنوب لبنان. كان يعرف كيف يبث الحماسة والحمية في الآخرين وما زال. هو المقاتل وهو القائد. وقيادته تستمد جذورها من كونه مقاتلاً لا يتلكأ في القيام بأي عمل ضروري. استمرت المحاولات لإصلاح العلاقات السورية ــ الفلسطينية، ودعت دمشق وفداً من اللجنة المركزية لحركة فتح لبحث العلاقات.

وفي نهاية الاجتماعات بين القيادتين السورية والفلسطينية (دون حضور عرفات والأسد) تمت صياغة وثيقة تحت عنوان «التعاون الاستراتيجي الفلسطيني ــ السوري».

وكان على الطرفين أن يتبادلا موافقة القيادتين عليها قبل أن تصبح سارية المفعول. وكان أبو إياد يرأس وفد اللجنة المركزية لفتح.

«ماذا يريد حافظ الأسد».

بادرني بالسؤال قبل منتصف الليل في مكتبه بمقر جيش التحرير الفلسطيني قرب جامعة بيروت العربية في بيروت.

ناولني نص مشروع التحالف الاستراتيجي لأطلع عليه وأبدي الرأي.

بعدها أجبته: من الواضح أنه يريد الثقل الفلسطيني إلى جانبه، وهذا

يتطلب وضع ضوابط لهذا الثقل بحيث لا يخرج عن تصوره أو عن تحركه.

هذا يعني فقدان استقلالية القرار الوطني الفلسطيني، سأل الرئيس، فأجبت: هذا وارد جداً في مضمون الوثيقة المقترحة.

وفي اليوم التالي زارني ليلاً صديقي وأمير شعرائنا محمود درويش.

وفيما نحن نتحدث، وقد كسرت عقارب الساعة كل الحواجز، قرع باب البيت. فتحت فإذا بفتحي، كبير مرافقي أبو عمار، يقف أمامي حاملاً سلاحه وقال بسرعة «الرئيس قادم». كانت الساعة تقارب الثالثه صباحاً. بعد بضعة ثوان أطل الرئيس قائلاً وهو يبتسم ابتسامة عريضة «قفشتكم» (أي لقد أمسكت بكم).

رحبت به.

جلس بهدوء وصمت لحظات ثم قال:

أريد أن أسألكما سؤالاً.

«ماذا يريد حافظ الأسد؟».

لقد طرح السؤال ذاته الذي كان قد طرحه علي بالأمس في مقر جيش التحرير الفلسطيني.

واستمع الرئيس لنفس الجواب، فهبّ واقفاً وقال: إذاً علينا أن ندافع عن استقلالية قرارنا. وقد يكون لذلك ثمن عالٍ.

وأصبح واضحاً للجميع أن محاولات لجم «م.ت.ف» والهيمنة

عليها أو اعتقال قرارها المستقل، فشلت.

وراحت إسرائيل من طرفها تهدد وتتوعد. ووجهت أكثر من رسالة تهديد لسورية (التي كانت تنشر قوات لها في أكثر من موقع في لبنان- باستثناء الجنوب) عبر الولايات المتحدة ودول أوروبية.

والرسائل كانت واضحة.

«إذا لم تلجموا «م.ت.ف» سنضطر نحن للقيام بذلك.

وطلب الإسرائيليون من سورية أن تضغط على «م.ت.ف» لإعادة نشر قواتها بحيث تبتعد عن الحدود الإسرائيلية ــ اللبنانية أربعين كيلومتراً، وذلك كي يصبح مدى صواريخ القوات الفلسطينية أقصر من أن يضرب أرضاً إسرائيلية.

هيأت إسرائيل نفسها للغزو باجتياح عام ١٩٨٠ الذي كان محدوداً. وراح المسؤولون الإسرائيليون يحثّون الإدارة الأميركية على منحهم الضوء الأخضر «لتنظيف» أربعين كيلومتراً من أرض الجنوب اللبناني من أي وجود عسكري فلسطيني.

وفي ربيع العام ١٩٨٢ أعطى الرئيس ريغان الضوء الأخضر فقام شارون في الخامس من حزيران/يونيو عام ١٩٨٢ بغزو لبنان وليس تنظيف أربعين كيلومتراً حسبما طلبت إسرائيل سابقاً.

واضطرت القوات الفلسطينية والقيادة الفلسطينية للخروج من لبنان بناء على الاتفاق الذي أبرمه فيليب حبيب المبعوث الرئاسي الأميركي للبنان.

وقّعت سورية اتفاقاً لوقف إطلاق النار في العاشر من حزيران/يونيو أي بعد خمسة أيام من المعارك مع الجيش الإسرائيلي الغازي، لتترك بذلك أجنحة القوات الوطنية اللبنانية والفلسطينية مكشوفة. وكانت خطط الدفاع الفلسطينية قد أخذت بالحسبان وجود القوات السورية في تلك المواقع.

لقد أبلى الجنود السوريون في بحمدون والجبال الشرقية بلاء حسناً وأوقفوا تقدم الجيش الإسرائيلي. لكن اتفاق وقف إطلاق النار أخرجهم من المعارك. فيما تحولت قواتهم (قليلة العدد) في بيروت إلى كم غير فاعل بسبب فقدان الذخائر وتحملت القوات الفلسطينية مسؤولية رعايتهم.

أدت كل هذه التراكمات بياسر عرفات إلى رفض فكرة التوجه إلى سورية بعد الاتفاق على مغادرة القوات الفلسطينية والقيادة الفلسطينية بيروت بحماية دولية، وأن تحل محلهم قوات متعددة الجنسيات لحماية المخيمات.

قرر ياسر عرفات التوجه أولاً لليونان ومن اليونان إلى أماكن أخرى.

ولم يكن لدى أحد شك بأن قراره هذا كان نوعاً من العتاب (أو الإدانة) للموقف السوري.

وحاول الرئيس ياسر عرفات أن يقنع أعضاء القيادة الفلسطينية بالخروج معه، وعدم التوجه لدمشق حتى تكون الرسالة واضحة. لكنه لم ينجح في إقناع قادة التنظيمات اليسارية أو قادة «يسار فتح» بالخروج معه.

قبل ثلاثة أيام من مغادرتنا بيروت إلى طرطوس (ميناء سوري على شاطىء البحر الأبيض المتوسط) عقد المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين اجتماعاً طارئاً لبحث الترتيبات النهائية للخروج ومتابعة العمل من سورية.

ترأس الاجتماع الدكتور جورج حبش الأمين العام للجبهة الشعبية. وكان ذلك في مكتبي بمقر مجلة «الهدف» التي كنت أرأس تحريرها لفترة طويلة.

وبينما نحن منهمكون في مناقشة الترتيبات، فتح باب المكتب وإذا بالرئيس ياسر عرفات يرافقه عدد من المسلحين يطل قائلاً وهو يضحك:

«كبسة» «كبستكم» على من تتآمرون؟

كان يضج بالحيوية ويمازح ويضحك. وهرع نحو الحكيم ليعانقه وجلس قائلاً: «اعتبروني عضو مكتب سياسي عندكم. لنكمل الحديث». وضحك الجميع.

أطرق قليلاً وهو يهز ساقه ثم رفع رأسه وقال: اسمحوا لي أن أقول كلمة قبل أن أترككم تتابعون عملكم.

«رغم ضآلة إمكاناتنا، هزمنا شارون. ــ ألحقها فوراً بكلمة «وحدنا» ــ «عارفين يعني إيه وحدنا، وهم يتصورون أننا نغادر بيروت نحو الاندثار والانهيار؟ لكننا لن ننهار ولن نندثر.

أنا عائد للقدس. ولا أعتقد أن أحداً منكم يمانع في عودتي للقدس. لكن طريق القدس لن تمر بدمشق. يجب أن نشق طريقنا.

لذلك. أقول لأخي جورج «تعال معي».

تلاحمنا في الميدان يجب أن يتلوه تلاحم سياسي «تعال معي» أنا رايح اليونان، ومن هناك سأتوجه لأرض الله الواسعة».

فأجابه «الحكيم» بكل تهذيب أن وجهة مغادرته تخضع لقرار المكتب السياسي، وليس لقراره الشخصي. وأن قرار المكتب السياسي هو أن يتوجه لسورية. وكذلك أعضاء المكتب السياسي المضطرون للمغادرة.

رفع الرئيس رأسه الذي كان مطرقاً لسماع ما يقوله الحكيم، وقال:

«حسناً، إذاً جئتكم مودعاً وسنلتقي حتماً». وقف وصافح الحكيم والبقية وخرج من المكتب.

رافقته للخارج.... حتى باب سيارته، وفيما هو يدخل السيارة قال لي:

لقد صمدنا وانتصرنا. وخروجنا من بيروت هو توجه للقدس.

«بسام هل تحتاج شيئاً؟» سألني.

فقلت له «كلا شكراً».

فقال لي: إذاً إلى اللقاء. لا أدري متى أو أين لكننا سنلتقي.

فسألته: ألن تأتي إلى دمشق؟

أجابني: بالطبع.... بالطبع.

وتحرك موكبه. وعدت أنا لاجتماع المكتب السياسي.

انتهينا من الاجتماع وتحرك الجميع كل باتجاهه ليهيىء نفسه للمغادرة.

ازداد التوتر الذي ساد العلاقات السورية ـ الفلسطينية مع الزيارة الأولى التي قام بها الرئيس لدمشق بعد خروجه من بيروت على ظهر سفينة يونانية إلى اليونان.

فقد شددت السلطات السورية من إجراءاتها لتقييد الحركة والنشاط الفلسطيني. وفرضت في منطقة البقاع إجراءات تحد من حركة الفلسطينيين وتغير مواقعهم.

وبلغ التوتر حداً كبيراً حين نصب مسلحون كميناً لموكب اللواء سعد صايل قائد القوات الفلسطينية في البقاع واغتالوه.

وسرت شائعات كثيرة بعضها يتهم السلطات السورية باغتياله، والبعض يتهم عملاء إسرائيليين. لكن الحد الأدنى لتلك الشائعات كان يوجه اللوم للسلطات السورية لعدم إرسالها طائرة هليكوبتر لنقل اللواء سعد صايل إلى المستشفى، وتركه ينزف حتى استشهد.

كان من المقرر أن يقوم الرئيس بتلك الجولة على القوات للتهنئة

بالعيد. لكنه ألغى ذلك بناء على تحذيرات وصلته. فقد مُنعت القيادة الفلسطينية منذ خروجها من بيروت من العودة للبنان.

وحذر الرئيس كافة القيادات من التوجه إلى لبنان وحاول ثني اللواء سعد صايل، الذي أصر على زيارة القوات وتهنئتها بالعيد خاصة بعد خروج القيادة من بيروت، مؤكداً أن هذه الزيارة سترفع معنويات القوات.

وشمل التضييق منع الفرق الإعلامية (التلفزيونية وغيرها) من دخول دمشق لإجراء مقابلات من الرئيس ياسر عرفات.

وفي غرفة داخلية صغيرة، من غرف مكتب الرئيس بدمشق (٢٣) سألني الرئيس: ما هو رأيك، هل أذهب للمطار وأقابلهم هناك وأغادر؟

فكرت قليلاً وقلت: لا أعتقد أنه يجب التسرع.

كانت أصداء مجزرة صبرا وشاتيلا ما زالت تهز ضمائر الجميع. وفي تلك الفترة وافق الرئيس على إجراء سلسلة مقابلات (على غير عادته) للتركيز على مجزرة صبرا وشاتيلا.

قرر الرئيس ألا يغادر. لكنني شعرت أنه بدأ يعيد حساباته منذ تلك اللحظة. غير أن زيارته الثانية شهدت توتراً أكبر. وطفح الكيل بالنسبة للسلطات السورية التي كانت تلاحظ حركة واسعة لإعادة انتشار القوات الفلسطينية في البقاع والهرمل. فصدر الأمر بترحيل عرفات، الذي أبلغ القيادة الفلسطينية أنه تلقى تبليغاً بمغادرة سورية.

فرافقه الدكتور جورج حبش ونايف حواتمه في نفس السيارة كحماية له من أي اعتداء يمكن أن يتعرض له وهو في طريقه للمطار.

كانت الإجراءات بعيدة كل البعد عن اللياقة. وطلب ضابط صغير الرتبة من الرئيس أن يغادر على أول طائرة مهما كانت وجهتها.

استنفر مرافقو الرئيس وكانوا يحملون أسلحتهم الرشاشة، وبدأ البحث عن طائرة مغادرة ليستقلها الرئيس ومرافقوه.

بحث الإخوة الأمر مع قائد طائرة تونسية تتهيأ للإقلاع. فاتصل بتونس وأعطي ضوءاً أخضر بأن يضع نفسه وطائرته تحت تصرف الرئيس ياسر عرفات.

وغادر أبو عمار دمشق.

كانت تشيكوسلوفاكيا قد دعت منذ فترة لمؤتمر دولي حول السلام في الشرق الأوسط. ولم نكن ندري ما إذا كان الرئيس سيلبي الدعوة أم لا.

فبعد أن غادر الرئيس دمشق بقيت فيها مع زملائي أعضاء المكتب السياسي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

وكنت ضمن الوفد الذي تقرر أن يمثل فلسطين في هذا المؤتمر. فغادرت دمشق إلى براغ.

ضم الوفد عدداً كبيراً من القيادات الفلسطينية. لكن الجميع كان يترقب الخبر اليقين. هل سيحضر الرئيس ياسر عرفات أم لا.

وفي الصباح الباكر من يوم افتتاح المؤتمر أبلغنا سفير فلسطين لدى تشيكوسلوفاكيا (عاطف أبو بكر آنذاك) بأن الرئيس سيصل إلى براغ، وأن على من يريد المشاركة باستقباله في التوجه إلى قاعة التشريفات الرئاسية في مطار براغ. فتوجهت للمطار.

الطقس كان بارداً جداً، ورغم ذلك لم أمتلك نفسي فخرجت من القاعة المدفأة نحو المدرج الذي ستصل إليه الطائرة، ورحت أنتظر وكأنني أستعجل وصول الطائرة.

وهبطتْ أخيراً وسارت على مهل إلى أن توقفت أمام السجاد الأحمر.

فتح باب الطائرة وهبط الرئيس ومن خلفه مرافقوه. صافح الجميع وعانقهم. وعندما عانقني ضغط بشدة على كتفي عوضاً عن الكلام. وتحركنا على عجل. وهرول الجميع نحو السيارات بينما سرت على مهل مفكراً ومتأثراً.

لقد مضت فترة شهور منذ أن رأيته آخر مرة في دمشق.

وفجأة انتبهت أنني أقف وحيداً على رصيف تلك القاعة الضخمة. كل السيارات غادرت. نظرت حولي باحثاً عن سيارة أجرة. لا أحد.لم يكن مسموحاً لسيارات الأجرة أن تقف عند تلك القاعة. وكان علي أن أسير في هذا الطقس العاصف مسافة كيلومتر لأصل

إلى أقرب موقف للسيارات. وقلت لنفسي. عليك أن تفعل ذلك بدلاً من الوقوف والانتظار دون جدوى.

بدأت أسير. وفجأة سمعت أصوات سيارات من خلفي، نظرت فإذا هو موكب الرئيس. توقفت سيارة الرئيس وفتحت النافذة وطلب مني الرئيس أن أصعد إلى جانبه.

كان يجلس في المقعد الخلفي إلى جانب المسؤول التشيكي الذي كان على رأس المستقبلين. فصعدت إلى جانبه وأسرع الموكب نحو المقر المخصص للرئيس.

ضغط على يدي دون أن يتفوه بكلمة.

بعد انتهاء المؤتمر وتفادي الصدام السياسي مع الوفد السوري التقينا في منزل سفير فلسطين عاطف أبو بكر.

وتحدث الرئيس للموجودين حول الأوضاع الخطيرة في المنطقة. وحول محاولة السلطات السورية شق حركة فتح، وشق القوات الفلسطينية، وحول استخدامها لبعض قيادات فتح التي انشقت وانحازت لها، لضرب حركة فتح. وأن هذا التصرف هو استكمال للمؤامرة على منظمة التحرير الفلسطينية، ومحاولة تصفيتها، الشيء الذي عجزت عن تنفيذه إسرائيل.

انتهى الاجتماع وبدأ الفريق المرافق للرئيس يتهيأ للمغادرة.

انتحى الرئيس بي جانباً وسأل:

هل ستعود إلى دمشق؟ فقلت له نعم.

فقال: خذ حذرك. أما أنا فسأتوجه إلى طرابلس قريباً.

فسألت بدهشة كبيرة: طرابلس؟

طرابلس الغرب؟؟

فأجاب: لا طرابلس الشمال. أخوك أبو جهاد ينتظرني هناك..

ولم أعلق. كان قراراً خطيراً جداً.

فهو يعلم أن إسرائيل تريد تصفيته، وأن السلطات السورية لا ترغب بوجوده في تلك المنطقة، وأن طرابلس الشمال مطوقة من كل الجهات بما في ذلك البحر.

كان قراراً خطيراً يشبه قرار الانتحار. لكني لم أعلق:

كان واضحاً أنه يريد أن يقول للسلطات السورية أن لا أحد يستطيع الهيمنة على القرار الفلسطيني، وأن من انشق وانحاز لهم لا يمثل حركة فتح أو منظمة التحرير الفلسطينية. وأنه مستعد للاستشهاد دفاعاً عن استقلالية القرار الفلسطيني.

لكن كيف سيصل إلى طرابلس ــ سألت نفسي ــ سورية مغلقة، لبنان مغلق، البحر مغلق، فالشاطىء اللبناني يعج بالزوارق الحربية الإسرائيلية.

لكنه وصل إلى طرابلس. كيف وصل؟؟

قصة وصول الرئيس إلى طرابلس قصة تشبه الأفلام البوليسية. وقد لا يتخيل إنسان أن الرئيس اتخذ قراراً بمجازفة كان من السهل أن يكون ضحيتها. لكنه اتخذ القرار وجازف ووصل.

هذه إحدى ميزات شخصية أبو عمار، فهو لا يأبه للمخاطر عندما يريد الوصول إلى هدفه لكنه يعمل كل ما يمكن عمله لتخفيف تلك المخاطر قدر الإمكان. ويحسب حساب كل صغيرة وكبيرة. ويضع أمامه كل العوامل المتغيرة التي يحتمل أن تفاجئه. وبعدها يشرع في العمل.

ورتبت رحلة الرئيس إلى طرابلس الشمال في بداية الأمر دون استخدام الهاتف أو الفاكس أو البريد الإلكتروني، عبر لقاءات مباشرة بين منظمي الرحلة والأشخاص المعنيين. وذلك تحاشياً لأي خطأ أو خرق أمني. واختيرت مجموعة من الشباب من الذين رافقوا الرئيس على مدى سنوات، والجميع يطمئن لوفائهم وولائهم وحرصهم على الرئيس.

سفير فلسطين لدى قبرص فؤاد البيطار لعب دوراً محورياً في ترتيب تلك الرحلة. «طرابلس... طرابلس».

كانت المرة الأولى التي يتخلى فيها الرئيس عن بزته العسكرية ومسدسه والحطة الفلسطينية.

مضت فترة زمنية طويلة نسبياً بين تلك الاتصالات الأولية المباشرة.

صباح اليوم السادس عشر من أيلول/سبتمبر العام ١٩٨٣ (قبل

يومين من عيد الأضحى) اتصل مكتب الرئيس في تونس بالسفير فؤاد البيطار سفير فلسطين لدى قبرص، هاتفياً. أبلغه أحد مساعدي الرئيس، أن مجموعة من أصدقاء الرئيس ستصل إلى لارنكا، وأن الرئيس يطلب منه الاهتمام بهم لأنهم عزيزون عليه. ولم يتطرق للتفاصيل.

وأجرى مكتب الرئيس اتصالاً هاتفياً آخر مع السفير فؤاد البيطار بعد ثلاث ساعات من الاتصال الأول. وكرر أحد مساعدي عرفات توصية الرئيس بالاهتمام بالمتوجهين إلى لارنكا. لكن هذا الاتصال تطرق إلى مواضيع جديدة، فقد أعلم فؤاد البيطار أن المجموعة ستصل لارنكا، وأن عليه تأمينهم في الفندق، وترتيب وصولهم إلى طرابلس، لرؤية الأخ أبو جهاد الذي كان موجوداً في طرابلس على رأس القوات الفلسطينية.

أدرك السفير أن الأمر ليس توصية عادية بل إن مهمة هؤلاء الأصدقاء مهمة خاصة. وازدادت الحيرة، إذ لم يبلغوا فؤاد بيطار عن رقم الرحلة، أو موعدها أو موعد السفر. وعندما استفسر هو لم يتلق أي جواب.

وفي اليوم التالي اتصل الرئيس ياسر عرفات بنفسه بفؤاد البيطار وقال له «يا فؤاد، إنهم أصدقاء مهمون، وهم يحملون رسالة لأخيك أبو جهاد، وأريد منك أن تهتم أنت شخصياً بهم».

وازدادت حيرة السفير.

وعندما خطر له أن المجموعة القادمة قد تكون الرئيس ومن معه،

طرد الفكرة مباشرة، إذ لو كان الرئيس هو الذي سيصل إلى لارنكا، لما تحدث معه هاتفياً.

بعد منتصف الليل، تلقي فؤاد اتصالاً هاتفياً آخر من مكتب الرئيس، للاستفسار عما إذا أجرى الترتيبات اللازمة لركاب الطائرة الخاصة، طائرة رجال الأعمال التي ستصله صباحاً.

وبعد ساعة من ذلك الحديث تلقى فؤاد اتصالاً آخر وكان المتحدث هذه المرة الرئيس نفسه.

أكد على فؤاد اهتمامه الشخصي بالإخوة المتوجهين إلى لارنكا، وأنه يعتمد عليه لأنه سيتوجه للجزائر ثم لليمن، لقضاء العيد مع القوات الفلسطينية المتمركزة في هذين البلدين الشقيقين. وأنه لن يتمكن من الاتصال به قبل ساعات.

فوعد فؤاد الرئيس خيراً وطلب منه أن يطمئن من كل النواحي.

قام فؤاد بالترتيبات اللازمة واستأجر زورقاً سريعاً قادراً على قطع المسافة بين لارنكا وطرابلس خلال ثلاثة ساعات. وفي الصباح التالي، أبلغ فؤاد بأن الطائرة الخاصة تقترب من مطار لارنكا، فتوجه فوراً لقاعة التشريفات بالمطار. وعند الساعة التاسعة صباحاً حطت الطائرة واقتربت، كما هي العادة من الباحة الخارجية لقاعة التشريفات. وما إن هدأت محركاتها، اقترب فؤاد منها ــ وعندما فتح الباب وأنزل سلمها الصغير، صعد فؤاد للطائرة ليحييّ المجموعة وليتعرف إليها.

ويقول فؤاد البيطار، أنه في تلك اللحظات كان على يقين، وهو يصعد سلم الطائرة ان الرئيس ياسر عرفات، لا يمكن أن يكون ضمن المجموعة.

ولهذا كان ذهوله كبيراً عندما رأى الرئيس يجلس على مقعد من مقاعد الطائرة. كان الرئيس حليق الذقن، إلا من شارب كثيف، ويلبس ثياباً مدنية.

لم يعتد أحد على رؤية الرئيس عرفات بهذا الشكل. لكن ها هو في طائرة خاصة وينوي التوجه إلى طرابلس.

أسقط بيد فؤاد البيطار الذي قال: لا أستطيع تحمل هذه المسؤولية سيدي الرئيس؟؟

فأجاب الرئيس فوراً:

«هذا أمر عسكري، لنتحرك بسرعة ولا تضع الوقت».

أمام هذا الأمر، هبط الجميع من الطائرة وتوجهوا لقاعة التشريفات التي كانت تبعد أمتاراً عن الطائرة.

ولم ينتبه أحد لهوية المجموعة. وجلس الجميع في القاعة، والذهول ما زال يسيطر على فؤاد البيطار الذي شعر بجسامة المسؤولية التي يتحملها في تلك اللحظة.

لكن سرعان ما تحرك فؤاد. فقال للرئيس: من الأفضل أن نتحرك فوراً لمنزلي، حتى لا ينكشف سرّنا. فقد يدخل القاعة في أية لحظة

ضيوف التشريفات. وتحرك الجميع فورا لمنزل السفير، وترك الرئيس لأخذ قسط من الراحة.

كان كل شيء جاهزاً..... لكن في اللحظة الأخيرة حصل ما لم يكن متوقعاً. فقد اعتذر صاحب الزورق السريع وأبلغ ملاذ ــ نائب السفير ــ بأنه لن يتمكن من القيام بتلك الرحلة لأسباب طارئة.

أجرى فؤاد اتصالات سريعة لتأمين زورق آخر. وتم ذلك ولكن الزورق هذه المرة كان زورقاً بطيئاً وستستغرق الرحلة تسع ساعات مما يعرضه للمخاطر أكثر بكثير من المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها الزورق السريع. فالساعات التسع ستضع الزورق تحت رحمة أية دورية خفر سواحل أو زوارق حربية إسرائيلية. لكن قرار الرئيس كان قاطعاً: على بركة الله، لنتوجه فوراً.

وتحرك الجميع إلى لارنكا مرة أخرى.

أسدلت الستائر على نوافذ السيارة وجلس الرئيس في المقعد الخلفي وطلب منه عدم لمس الستائر وألا يلتفت لأحد عند الوصول.

قرب الميناء، أوقفت السيارة وهبط فؤاد ليكمل الاتفاق مع صاحب الزورق، وأعطى الرئيس صحيفة يونانية، وطلب منه تصفحها تمويهاً.

خلال دقائق تم كل شيء، وكانت الساعة تشير للحادية عشرة والنصف صباحاً عندما صعد الرئيس ومرافقوه للزورق.

مجموعة من خيرة الشباب الشجعان رافقت الرئيس، جهاد الغول،

أبو سليم، كاسترو، وأبو علي حسن.

لم يصعد فؤاد للزورق لتوديع الرئيس خشية أن يلفت الانتباه. ودعه دامعاً، وتم الاتفاق أن يتصلوا بفؤاد فور الوصول لطمأنته وطمأنة الإخوان.

أبحرت الباخرة الصغيرة نحو شواطىء لبنان. وعاد فؤاد للسفارة، واستدعى كل من ساهم في الترتيبات وطلب منهم الجلوس في مكتبه، وأبلغهم أنه سيغلق عليهم الباب، وسيقطع خطوط الهاتف عنه إلى أن يصل الرئيس، وبعدها سيكونون أحراراً. وقبل خروجه من المكتب نظر إليهم قائلاً: هذا الإجراء حماية لكم في حال حدوث أي خطأ.

زاد بطء القارب رتابة فيما كانت تنشدّ قلوب وأعصاب المجموعة نحو الوصول للشاطىء بأسرع وقت ممكن.

وبعدِ مضي عدة ساعات أراد الرئيس أن يصعد إلى سطح المركب ليرى من بعيد شواطىء لبنان وفلسطين.

حاول المرافقون ثنيه عن ذلك لكنه أصر.

لاحظ القبطان أن شيئاً غريباً يكتنف هذه المجموعة. كان القبطان سوري الأصل من أرواد.

وعندما صعد الرئيس لسطح الزورق تحيط به المجموعة، دقق النظر في وجهه وعرفه. عرف أنه يحمل في زورقه الرئيس ياسر عرفات.

هجم القبطان معانقاً الرئيس قائلاً:

يا رئيس أنت قائدنا ورمزنا. أنت أمانة في عنقي.

فشعر الرئيس أن بإمكانه التمتع بمنظر الشاطىء، شاطىء فلسطين ولبنان.

وعند الوصول للمياه الإقليمية اللبنانية أبلغ الرئيس أن قاربه (الباخرة الصغيرة) تحتاج لمياه عميقة للرسو. وأن الشاطىء القريب من نهر البارد ليس عميقاً.

أعطى قبطان الباخرة إشارات لقوارب الصيد المنتشرة في تلك المياه فاقترب واحد منها. فاوضه القبطان واتفق على نقل المجموعة للشاطىء مقابل أجر كبير.

واضطر قارب الصيد أن يتوقف على بعد أمتار عديدة من الرمال لأنه لا يستطيع التقدم أكثر.

فقام أحد المرافقين بحمل الرئيس على كتفه وعبر بضعة الأمتار المعدودة من البحر. كانت المياه تصل إلى وسطه، فتقدم حتى وصل الشاطئ وانزل الرئيس من على كتفه.

ولحق الآخرون بهما.

أسرعوا نحو الشارع العام وأوقف أحد الأخوة سيارة أجرة وطلب من السائق أن يقلهم لمدخل المخيم.

انتبه السائق فراح ينظر عبر مرآة السيارة للراكب الذي جلس في الخلف يحيط به الشباب. ثم راح يصرخ فجأة «أبو عمار قائدنا». كلنا فداك».

أراد السائق أن يوقف السيارة ليعانق الرئيس. لكن الرئيس طلب منه أن يتابع سيره بسرعة.

فتابع سيره نحو مدخل المخيم. أوقف السائق سيارته عند مدخل المخيم وهرع نحو الباب الخلفي ليفتحه. فهبط الرئيس من السيارة، وعانقه السائق بقوة وودعه داعياً له بالنصر.

وتقدم الجميع نحو المخيم.

كانت الراحة تبدو على وجه الرئيس، وأعصابه مرتاحة، فسار يحث الخطى نحو مقر القيادة.

وهناك كان أبو جهاد بانتظاره.

انتهت الرحلة الخطرة لتبدأ المعركة الأخطر.

(١٣)

طرابلس ـ دمشق ـ نيودلهي

أثناء حضورنا مؤتمر السلام العالمي في براغ، وعشية توجه الرئيس إلى طرابلس، طلب الرئيس من الجميع أن يحثوا التنظيمات لإلحاق قواتها بقواته في طرابلس. لأن ذلك سيكون إعلاناً جماعياً عن رفض الاحتواء والهيمنة على القرار الفلسطيني المستقل. وحمل آنذاك عضو قيادة الجبهة التحرير الفلسطينية بلال القاسم الذي كان مشاركاً في الوفد الفلسطيني للمؤتمر، رسالة إلى أبو العباس حول حساسية الوضع وخطورته.

وطلب منه في الرسالة أن يتحرك على رأس قواته إلى طرابلس. وكذلك فعل مع الجبهة الديموقراطية، التي كانت عملياً، تساعد أبو جهاد في تحريك القوات وانتقال الضباط ببطاقات الجبهة الديموقراطية إلى طرابلس الشمال.

تماماً كما كان الرئيس يحشد فلسطينياً حشدت الحكومة السورية التنظيمات المقربة منها، مثل القيادة العامة ومجموعة أبو موسى وأبو خالد الفتحاوية.

وكان الجميع يسودهم القلق مما سيجري.

أما الجبهة الشعبية فقد اتخذت موقفاً رافضاً لزج قواتها في اقتتال داخلي. واتخذت موقفاً سياسياً يدين توجه عرفات إلى طرابلس الشمال ويطالبه بالخروج منها.

ممدوح نوفل الذي كان مسؤولاً عسكرياً للجبهة الديموقراطية لعب دوراً فاعلاً في مساعدة أبو جهاد وضباطه على الانتقال من البقاع والهرمل إلى طرابلس الشمال. وأثار هذا حفيظة المسؤولين السوريين.

وعلى الطرف الآخر، قاد أحمد جبريل الأمين العام للقيادة العامة قوات معززة بأسلحة وآليات سورية، للهجوم على مواقع فتح والرئيس وأركانه في شمال لبنان.

ووضعت تحت تصرف أحمد جبريل تسهيلات إعلامية كبيرة. وبثت التلفزيونات الغربية تصريحات للجنرال أحمد جبريل يعد فيها بتصفية ياسر عرفات والخلاص منه.

كنت في دمشق عندما بدأ القصف على مواقع فتح والتنظيمات المتحالفة معها. وكنت أيامها مسؤولاً للإعلام في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ورئيس تحرير مجلتها المركزية «الهدف».

كانت مشاعر الفلسطينيين في دمشق منصبة على ما يجري في طرابلس.

وكل الفلسطينيين الذين خرجوا من بيروت في نهاية عام ١٩٨٢ إلى سورية تذكروا القصف الذي تعرضوا له وحرب الأشهر الثلاثة بينهم وبين شارون وجيشه.

واحتار الجميع: ماذا يفعلون؟

فإذا بقي الواحد منهم في دمشق، فعل ذلك بناء على قرار من قيادته وليس بناء على موقفه أو شعوره.

وكان عليه أن يلتزم بقواعد اللعبة. أنت في دمشق إذاً أنت لا تخالفها، وإن اختلفت معها تبقى صامتاً.

وحسمت المواقف. فمن توجه إلى طرابلس انضم إلى الرئيس، وحدد موقفاً واضحاً، ومن توجه إلى طرابلس تحت راية أحمد جبريل، حسم الموقف لصالح الحكومة السورية. ومن بقي دون الانحياز عسكرياً هنا أو هناك، لاذ بالصمت في أحسن الأحوال أو انتقد تصرف الرئيس وطالبه بالخروج من طرابلس.

وقرعت طبول الحرب وبدأ القصف. وامتدت رقعة القتال والقصف من مخيمات الفلسطينيين شمالي طرابلس (نهر البارد والبداوي) إلى طرابلس المدينة وميناء طرابلس.

وفي خضم هذا الصراع بين مشاعرك وأفكارك ومواقفك وبين

الموقف الرسمي للقيادة، تعذب الجميع وراحوا يراقبون ما يدور ويجري.

كانت أحداث طرابلس هي الخبر الأهم والحدث الأهم.

وكان علي أن أعطي التعليمات لتغطية هذه الأحداث الدامية وأهيئ العدد الأسبوعي للطباعة.

الإعداد كان يتم في دمشق، والطباعة كانت تتم في دمشق، ومن دمشق يتم التوزيع إلى شتى أنحاء العالم.

فما العمل؟

فقد كانت المطابع (وربما ما زالت) في دمشق تحت رقابة مستمرة من دوائر المخابرات المختلفة، وذلك لمنع طباعة أية مادة تحريض أو معادية أو معارضة للحكومة.

فكيف يمكن لنا أن نتحدث عن الاشتباكات الدامية في طرابلس دون اتخاذ موقف؟

وكيف ننشر موقفاً لا ترضى عنه الحكومة السورية من خلال رقابتها المخابراتية على المطابع؟

جهز المحررون كافة المواد، وقام مخرج المجلة بتصميم العدد، وبقي لدينا همّ الطباعة والتوزيع.

كان الوقت متأخراً. واتصل مدير المطبعة ليسأل عن المجلة لطباعتها فطلبت منه إمهالنا دقائق، وأن يحضر كل الأجهزة لطباعتها فوراً.

واستدعيت المخرج وسألته عن الغلاف. فقال لي: أنا أنتظر تعليماتك.

فطلبت منه الجلوس. وشرحت له فكرتي عن الغلاف.

غلاف أسود اللون يكتب عليه بالأحمر الغامق كلمة «الجريمة» وتقطر من كلمة الجريمة دماء من سقطوا في طرابلس.

تم ذلك وكان الغلاف مؤثراً جداً. وأرسلت المجلة للطباعة، فيما نحن نحسب أخماساً بأسداس.

في العاشرة والنصف ليلاً وصل حاملو أعداد المجلة للمطبعة فكان الرقيب قد غادر لارتباطات عائلية.

ولم يهتم مدير المطبعة بإلقاء نظرة واحدة. بل أصدر تعليماته بالبدء فوراً بالطباعة. كان يريد أن ينهي العمل بأسرع وقت ممكن.

بقيت في مكتبي أنتظر. ولم أتنفس الصعداء إلّا عندما أحضرت لي أول رزمة من «الهدف».

أصدرت التعليمات بعدم الانتظار وبالمباشرة بالتوزيع فوراً، خشية أن تصادر أعداد المجلة.

وبالفعل انهمك الجميع في عملية التوزيع. ومع شروق الشمس توجهت لمنزلي لأخذ قسط من الراحة. كنت أعلم أن «الهدف» في ذلك الأسبوع ستُحدث ضجة كبيرة وستخلق مشاكل كبيرة. لكن ما كان بإمكاني إلّا أن يكون عدد «الهدف» هكذا. ولم يكن بإمكاني أن أتناقض مع عقلي وضميري ومشاعري. ولم يكن بإمكاني أن أسكت على الجريمة.

نمت نوماً عميقاً. وعند الظهر صحوت وبدأت بإجراء بعض الاتصالات. فقد كان عليّ أن أتوجه إلى نيودلهي لحضور مؤتمر ناميديا (إعلام دول عدم الانحياز). رتبت الأمور. واتصلت بعدها بالرئيس في طرابلس لأستفسر عن الأوضاع.

شرح لي الموقف. وأبلغته أنني سأتوجه للهند لحضور مؤتمر ناميديا.

فحملني رسالة شفهية للسيدة العظيمة أنديرا غاندي.

واختتم قائلاً وهو يضحك:

«تذكر أن تطرح لها موقفي وليس موقف من هم في دمشق».

لم تتح فرصة للمنتقدين المحتملين لذلك العدد من مجلة «الهدف» بأن يفرغوا ما لديهم في وجهي. فقد توجهت إلى نيودلهي لحضور ذلك المؤتمر ومقابلة الرئيسة أنديرا غاندي. كان مخططاً لأعمال المؤتمر أن تستمر يومين. وكنت قد أعددت كلمتي ومشروع برنامج تعاون بين أجهزة إعلام دول عدم الانحياز للانفكاك من احتكار الخبر من قبل الوكالات الغربية.

فألقيت كلمتي وطرحت المشروع على اللجان في اليوم الأول. ثم طلبت من مسؤولي البروتوكول ترتيب موعد لي مع الرئيسة أنديرا غاندي لنقل رسالة الرئيس ياسر عرفات المحاصر في طرابلس لبنان.

أبلغت في اليوم الثاني أن الرئيسة حددت لي موعداً في الخامسة إلا ربعاً بعد الظهر في مكتبها بمقرّ رئاسة الوزراء.

وصلت إلى مكتبها في الرابعة والنصف، وشرحت لمديرة مكتبها أنني جئت مبكراً حتى لا أصل متأخراً في ظل ازدحام السير بمدينة نيودلهي.

فابتسمت وقالت: لا بأس تفضل وادخل إلى مكتب الرئيسة.

مذهل... مذهل.

غرفة كبيرة جداً، تشبه قاعة استقبال.

ومكتبها كان عبارة عن لوح خشبي عرضه متر يلتف دائرياً من طرف الغرفة إلى طرفها الآخر. وأمام ذلك اللوح الخشبي وضعت مقاعد عملية جداً. أما هي فكانت تجلس على مقعد متواضع يتحرك على عجلات.

كانت الرئيسة أنديرا تقابل أحد الذين طلبوا موعداً لبحث موضوع، وتتحدث باختصار وتدون ملاحظات على دفترها. ثم تتحرك جارّة ذلك المقعد للشخص التالي. وبنفس السرعة والكفاءة تنهي معه وتسجل ملاحظات وتنتقل للتالي. مذهل. لا وقت للقهوة، ولا وقت للحديث المطول، ولا وقت للمجاملات.

كان قد اصطف أمامي عشرون من هؤلاء الزوار. وأتاح لي ذلك فرصة المراقبة والإعجاب الشديد بهذه المرأة الشجاعة التي تقود أمة تعدادها مليار نسمة.

اقتربت من المقعد الذي دعيت للجلوس عليه، وقبل أن تتحدث للمواطنين الهنود الذين بقوا هناك ألقت نظرة سريعة علي. وعادت لتعطي انتباهها للمواطنين.

دقائق وانتهى كل شيء. خرج الجميع وبقيت أنا.

اقتربت بمقعدها المتحرك قائلة بهدوء «سيد أبو شريف، ما هي أخبار الرئيس عرفات؟».

قالت ذلك بحزن شديد وضيق وعاطفة. وكأنها تسأل عن أخبار أحد أبنائها. كنت متأثراً بطريقة عملها وخشيت إن طال الشرح أن يضيق صدرها باللقاء. فاختصرت كثيراً ملخصاً الوضع. وقلت لها إن الرئيس يواجه خطراً شديداً وطلبت منها المساعدة في ذلك.

تنهدت بعمق قائلة: مشكلة الرئيس عرفات أنه يثق كثيراً بدول الجزيرة والخليج ويعتمد عليهم. وعليه أن يحذر من هذا وأن يكون فطناً. فهم لا يحبونه.

واستدعت مديرة مكتبها قائلة: اطلبي لي الرئيس حافظ الأسد.

ثم استدركت بسرعة ونظرت إلي وسألت. هل تعافى من مرضه؟

هل يستطيع التحدث عبر الهاتف؟

فأجبتها بالإيجاب.

استدارت مرة أخرى نحو مديرة مكتبها وقالت لها: صليني بالرئيس حافظ الأسد.

سألتُها إذا كانت تريد مني أن أغادر الغرفة لتتحدث بحرية، لم تجب. أشارت بيدها فقط أن أبقى جالساً.

تحدثت الرئيسة أنديرا مع الرئيس حافظ الأسد، مهنئة أولاً بسلامته، وبكل عذوبة طلبت منه وقف ما يدور في طرابلس، وأن يسمح للرئيس عرفات ورجاله بأن يغادروا عبر الأراضي السورية لخطورة البحر الذي تتحكم به إسرائيل. لم أسمع ما قاله الرئيس حافظ الأسد. لكنها قالت لي بعد انتهاء المكالمة: سلم كثيراً على الرئيس عرفات. وقل له أن الهند تحبه كثيراً وتحترمه كثيراً. وأنه يواجه وضعاً صعباً. لن يكون ممكناً خروجه عبر سورية. عليه أن يجري اتصالاته مع أوروبا وآمل أن يبقى على اتصال بنا.

ووقفت الرئيسة أنديرا وتوجهت نحو الباب وتوجهت أنا كذلك.

كانت الغرفة هادئة وخالية بعد أن كانت تعج بالناس.

وعندما فتحت الباب وأطلت بهيبتها التي تفرض الاحترام هبت مديرة مكتبها واقفة. فابتسمت لها قائلة: سأغادر الآن وسأعود مساء لمتابعة العمل. وسرنا جنباً إلى جنب حتى البوابة الخارجية الجانبية.

لا حراس ولا مرافقين. لا تدافع. رئيسة دولة الهند تسير بهدوء تحمل على كتفها أحمالاً تهد أشد الرجال. كانت مُطرقة وكأنها قلقة.

سيارتها المتواضعة (صناعة الهند) كانت تقف بانتظارها. فتح سائقها الباب ووقف ينتظر.

صافحتني قائلة: رافقتك السلامة. لا تنس أن تقول للرئيس عرفات أن يحتاط وأن يحذر وأن يحمي نفسه. كثيرون يريدون التخلص منه.

وهمّت بالصعود لسيارتها. لكنها استدارت وقالت: لا تنس أن تقول له إن الهند تحبه.

دلفت إلى السيارة وأغلق سائقها الباب وحيتني مودعة. وسارت سيارتها على مهل دون موكب، دون سيارات حراسة تتدافع، دون بروتوكول. امرأة عظيمة، قائدة عظيمة. فهي عريقة وقائدة شجاعة.

وفي اليوم التالي عدت إلى دمشق لأواجه عاصفتين هوجاءين.

عاصفة هوجاء خلف الستار وعاصفة هوجاء علنية.

العاصفة الهوجاء العلنية كانت تلك التي أطلقتها المجموعات والتنظيمات التي اصطفت لمقاتلة الرئيس ياسر عرفات، والسبب أن «الهدف» وصفت ما يجري بالجريمة الدموية.

أما تلك التي خلف الستار فكانت تلك التي أطلقها علي بعض

زملائي في المكتب السياسي في الكواليس دون أن تثار في وجهي أية ملاحظات.

فقد كانوا يخشون ذلك لأن الشعب والقواعد الحزبية كانت تقف بوضوح ضد الهجوم على الرئيس عرفات والقوات الفلسطينية في طرابلس الشمال.

ضمن هذه الحدود واجهت العاصفتين مقتنعاً بعمق وبصحة ما كتبت وما نشرت.

وفي تلك الليلة تحدثت مع الرئيس هاتفياً من منزلي وأبلغته عن لقائي بالمرأة العظيمة أنديرا غاندي ونقلت له ما أوصتني أن أنقله له.

وكعادته سألني.

«هل قالت لك كده؟».

فأجبت: نعم هذا بالحرف، وأكدت عليه أكثر من مرة محذرة.

اشتد القصف على موقع الرئيس والقوات الفلسطينية في مخيمات طرابلس وطرابلس المدينة والميناء.

واشتبك بعض حلفاء فتح في الشمال اللبناني، من الحركات الإسلامية مع أحزاب لبنانية حليفة للثورة الفلسطينية مثل الحزب الشيوعي اللبناني. واجتاحت هذه القوى الإسلامية المتطرفة مكاتب ومقرات الحزب الشيوعي اللبناني وقتلت عدداً من أفراده. مما زاد الأمور تعقيداً.

كانت تلك الفئات المتطرفة تعتبر تحالف الحزب الشيوعي مع الحكم في سورية انحرافاً عن خطه السابق... وأنه بذلك أصبح معادياً للثورة الفلسطينية. وكان هذا خطأ فادحاً.

وتتابعت الأيام وتتابع القصف وأضيف للقصف من البر قصف من البحر. (كان هذا مؤشراً على دخول البحرية الإسرائيلية على الخط). لم تكن هنالك معلومات مؤكدة عن مصدر القصف البحري، لكن اتهام البحرية الإسرائيلية كان يوفي بغرض سياسي. أي أن القوات التي تهاجم الرئيس ياسر عرفات وقواته تصب في نفس الخانة التي تريدها إسرائيل الآن وأرادها شارون في بيروت. أي القضاء عليه وعلى القيادة الفلسطينية وعلى الثورة الفلسطينية، والهيمنة على القرار الفلسطيني، من خلال الجهات والفئات الفلسطينية التي انحازت إلى سورية. بما فيها بعض قيادات فتح وجزء من قواتها.

ولا شك أن هذا كان أمراً مبالغاً فيه.

مرة أخرى كان علي الإعداد للعدد التالي من مجلة «الهدف» التي ذاع صيتها في كل أنحاء سورية من خلال العدد الذي طبع ووزع تحت عنوان «الجريمة». فكرت كثيراً قبل أن أتخذ قرار إرسال اثنين من أفضل محرري «الهدف» إلى طرابلس الشمال، لإجراء مقابلة مع الرئيس ياسر عرفات لنشرها في مجلة «الهدف».

بعضهم قال لي: أنت مجنون، هذا انتحار.

وكان جوابي: إنها حرية التعبير عن الرأي.

والبعض قال: لن يسمح بطباعة المجلة إطلاقاً.

فقلت: لنحاول وليمنعوا ذلك.

عندما عاد المحرران من طرابلس استمعت للأشرطة قبل تفريغها.

وقد بدأ الرئيس بالقول، بعد أن رحب بهما:

«هو بسام متأكد أن هذا الكلام سينشر؟».

فأجاباه: سيحاول المستطاع، ونعتقد أن هذا ممكن.

وأجاب الرئيس عن أسئلتهما التي وضعناها في هيئة التحرير بدمشق.

وكان صريحاً، ولاذعاً، وسمى الأشياء بمسمياتها.

وخلاصة القول.. تلك المقابلة كانت قنبلة موقوتة، تنفجر مع توزيع مجلة «الهدف»، إن نجحنا في طباعتها وتوزيعها.

قام الزملاء بتفريغ الشريط وإعداد المقابلة مع الرئيس للنشر.

وانهمكنا في إتمام باقي أقسام المجلة حتى أصبح «الماكيت» جاهزاً للطبع.

وتسرب خبر المقابلة للمكتب السياسي وللأمين العام للجبهة الشعبية الدكتور جورج حبش، الذي طلب تأجيل نشر المقابلة إلى أن يقرأها.

أجّل نشر تلك المقابلة، لكن كان علينا أن نصدر العدد. فهيأنا مادة على عجل تتصل باجتياح القوات المنحازة لسورية لمخيمات البداوي ونهر البارد.

وكالعادة استدعيت المخرج لنبحث سوياً في شكل ومضمون الغلاف.

كنت قد حصلت على صورة نادرة لجندي يلبس ملابس عسكرية سورية وخوذة حربية، يضع سلاحه جانباً ويريح رأسه على جذع شجرة في مخيم البداوي.

وقررت أن تكون هذه الصورة هي صورة الغلاف. وحددت لها عنوان «هزيمة المنتصر».

وبأعجوبة تمكنا من طباعة العدد وتوزيعه. واضطررنا لطباعة ثلاثة أضعاف ما نطبع أسبوعياً لنلبي الطلب الذي كان معظمه من مجموعات سورية مناضلة وثورية.

وثارت مرة أخرى ثائرة الثائرين.

بدأت الأحداث تتسارع وتكثفت الاتصالات الدولية. كنت على اتصال يومي بالرئيس عرفات لمعرفة التطورات ولإعطائه ملخصاً عما يدور خارج إطار الحصار.

وتم الاتفاق مبدئياً على خروج الرئيس ومن معه بحراً ــ مرة أخرى.

في تلك اللحظات لم يكن أحد يدري ما يدور في رأس الرئيس عرفات من أفكار أو خطط، ولم يكن أحد يتصور أن وجهة سفره سوف تكون مكاناً آخر غير تونس.

خروجه من طرابلس بعد بيروت يعني أن تلك الجبهة قد أقفلت تماماً في وجهه، ووجه القوات الفلسطينية. ليس هذا فحسب، بل إن سورية أصبحت بحكم المؤكد خارج إطار أي تحالف مع «م.ت.ف». كل هذا في ظل علاقات غير حميمة مع الأردن. لم يكن أمام الرئيس عرفات من هامش تحرك سوى الأردن. لكنه فكر ملياً فالتوجه للأردن بعد إقفال الجبهتين اللبنانية والسورية في وجهه سيضعه حتماً في موقع الضعف. وبما أن العلاقات مع الرافعة التقليدية لمنظمة التحرير الفلسطينية (القاهرة) كانت مقطوعة، لم يكن بإمكانه الاستعانة بها ليكون موقف «م.ت.ف» متوازناً مع الأردن.

أي أنه سيتوجه للمباحثات في الأردن ويقوم بها من موقع ضعيف.

كان الرئيس ياسر عرفات في قيادته للحركة السياسية، يحرص كل الحرص ألا تغلق الحلقة المحيطة بفلسطين في وجهه كلياً.

وكان يعلم أن تطورات العمل الفلسطيني قد تؤدي إلى توتر علاقات «م.ت.ف» مع هذه الدولة المحيطة بإسرائيل أو تلك، لكن حرصه كان دائماً ألا تكون «م.ت.ف» وحيدة، فتحالف مع سورية لفترة طويلة واختلف مع العراق، ثم تحالف مع العراق عندما اختلف مع سورية.

والآن كان عليه أن يتحالف مع الأردن في ظل إغلاق لبنان وسورية ومصر في وجهه.

كان عليه أن يستعين بمصر، أن يستند للرافعة التاريخية. ولكن كيف

العمل والعلاقات مقطوعة منذ اتفاق كمب ديفيد.

وقرر التوجه إلى مصر وهو في طريقه لليمن.

كان عليه أن يمر بقناة السويس. وأرسل يطلب من القيادة أن تتوجه للقائه في اليمن.

وعندما رست السفينة التي تقله في ميناء الإسماعيلية جرت الاتصالات.

التقى عرفات بالرئيس مبارك، وكسر الجليد، وخطا بذلك خطوة لم يكن يجرؤ أي قائد عربي في تلك الفترة على القيام بها.

واهتزت الأرض مرة أخرى.

ها هو الرئيس عرفات يتخذ قراراً شجاعاً، يعلم أنه سيُحدث ردود فعل مزلزلة على الصعيدين الفلسطيني والعربي. لكنه قرر القيام بذلك لمنع إحكام الحصار على «م.ت.ف» وهو ما كان يريده أعداء الشعب الفلسطيني.

وأصبح الجو مهيأً لمباحثات متوازنة مع الأردن.

في تلك الأثناء كان بعض الزملاء من أعضاء المكتب السياسي، الذين كانوا يلعبون ويثيرون العواصف ضدي خلف الستار، قد بدأوا يبلورون صيغة لتغيير المهام الموكلة لأعضاء المكتب السياسي. وذلك بهدف إبعادي عن الإعلام. بطبيعة الحال، الكل يعلم أن تلك المرحلة كانت قد حولت مهام المنظمات الفلسطينية إلى مهام سياسية إعلامية إلى حد كبير، وتقزمت المهام العسكرية والأمنية.

فقد كانت القوات الفلسطينية ممنوعة من العمل من لبنان، ومن كل الجبهات الأخرى. ووزعت قوات كبيرة على دول عربية كثيرة في عملية تشبه النفي والإبعاد. فتحولت المهام الأخرى إلى مهام ذات أهمية أكبر. وهذا ما تم.

فأقصيتُ عن مهمة الإعلام (أو كما قيل، جرى تغيير في المسؤوليات). وتسلمت مسؤولية لا تقل أهمية هي مسؤولية تنظيم الجبهة خارج الوطن العربي ــ أي أن ميدان عملي أصبح العالم كله باستثناء العالم العربي.

وانتقل مكتبي من الشاهبندر بدمشق إلى مخيم اليرموك.

(١٤)

إرهابي في قصر بكينغهام

اعتبر شارون خروج القيادة الفلسطينية وقوات منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت انتصاراً.

لكنه كان يعلم داخل نفسه أنه فشل في تحقيق كافة الأهداف التي أعلن عنها عندما احتل مخفر بعبدا وجلس مكان ضابط المخفر، رافعاً بسطاره العسكري على طاولة قائد المخفر.

فقد أعلن أنه جاء لتصفية القيادة الفلسطينية أو إلقاء القبض عليها لمحاكمتها كقيادة للإرهاب. وأنه سيقتحم بيروت.

لكنه لم يتمكن من تحقيق أي من الهدفين.

ولنفس السبب اعتبر الرئيس ياسر عرفات والقيادة الفلسطينية أن

حرمان شارون من تحقيق أهدافه هو بحد ذاته انتصار للقوات المشتركة.

فقد خسرت القوات الإسرائيلية كثيراً من الآليات والجنود عندما حاولت اقتحام بيروت الغربية انطلاقاً من المتحف عبر أسوار ميدان سباق الخيل. واضطرت للتراجع ململمة خسائرها، وطلبت من الأمم المتحدة الاتصال بالقيادة الفلسطينية لتسمح بسحب الدبابات المعطوبة أو المدمرة من ميدان سباق الخيل.

ورغم كل محاولات الطيران الإسرائيلي التي بلغت أكثر من ثلاث عشرة مرة، اغتيال الرئيس ياسر عرفات، والقيادة الفلسطينية، فشلت في ذلك فشلاً ذريعاً.

ولهذا السبب قال الرئيس ياسر عرفات وهو يغادر بيروت، في وداع رسمي وشعبي: إنني ذاهب للقدس.

وبما أن شارون كان يعلم بداخله أنه فشل، وأنه كبّد الجيش الإسرائيلي خسائر كبيرة (كان يخفيها عن رئيس وزرائه مناحيم بيغن)، خان كل العهود وخرق الاتفاق الذي وقعته الولايات المتحدة، والذي ينص على نشر قوات متعددة الجنسيات لحماية المخيمات التي أصبحت دون سلاح أو مقاتلين يحمونها من أي عدوان، وأشرف بنفسه على مجزرة فظيعة، هي مجزرة صبرا وشاتيلا والتي ذهب ضحيتها آلاف من المدنيين (أطفالاً ونساءً وكهولاً) اللبنانيين والفلسطينيين والأكراد. لكن أغلبية ضحايا المجزرة كانت عائلات المقاتلين الذين غادروا بيروت مع القوات للالتحاق بمواقعهم الجديدة التي حددت لهم.

لقد خدع شارون الجميع ونقض كل تعهداته والاتفاقات سواء مع رئيس وزرائه بيغن أو مع الإدارة الأميركية. ولذلك قرر بيغن اعتزال السياسة وعزل نفسه عن العالم تكفيراً للخطأ الذي وقع فيه، حينما صدق وزير دفاعه الذي يتعامل دائماً بلا أخلاقية مع كل التعهدات والاتفاقات والوعود. وهذا ما فعله مع بشير الجميّل أيضاً.

لقد صدم العالم من هول الجرائم التي ارتكبها شارون في لبنان، ومن حجم الدمار الذي ألحقه القصف الجوي والمدفعي بمدينة بيروت ومن المجازر التي ارتكبت.

وتركزت أنظار العالم مرة أخرى على الفلسطينيين الذين خرجوا من بيروت، وظن شارون أن هذه هي نهاية منظمة التحرير الفلسطينية، علق قائلاً «باي باي منظمة التحرير». لكن ما لم يستوعبه شارون، هو أن غزو لبنان واستخدام كافة الأسلحة بما فيها المحرمة دولياً، والتدمير، وارتكاب جرائم حرب يندى لها الجبين، خلقت في العالم، رأياً عاماً مخالفاً تماماً لما اعتقده هو.

وأصبح الرأي العام العالمي عاملاً ضاغطاً إلى الحد الذي أجبر الرئيس رونالد ريغان، الذي أعطى الضوء الأخضر لعملية الغزو الإسرائيلي، على طرح مبادرة لحل الصراع في الشرق الأوسط وأطلق عليها اسم «الأرض مقابل السلام».

كان ذلك مباشرة بعد خروج القيادة والقوات الفلسطينية من بيروت.

لقد نال حصار بيروت أعلى نسبة من التغطية الإعلامية في جميع

أنحاء العالم. ومع خروج الفلسطينيين خفت هذه النسبة. لكن إعلان الرئيس ريغان عن مبادرة «الأرض مقابل السلام»، أعاد للموضوع الفلسطيني نصيباً هاماً من التغطية الإعلامية.

كنت أسكن في غرفة صغيرة بفندق صغير في منطقة الميدان بدمشق. فقد وصلنا إلى ميناء طرطوس، دون أن يكون قد رتب لأحد منا، مكان للمبيت، أو سكن، وتحركنا إلى دمشق التي وصلناها الساعة الثالثة صباحاً. ورحت أبحث عن غرفة في فندق متواضع.

كانت الساعة تشير للخامسة صباحاً عندما «حن» عليّ عامل فندق في الميدان، وفتح لي إحدى الغرف لأرتاح.

كان يوماً شاقاً أشدّ بكثير من أحلك أيام القتال والقصف. ونمت كما يقولون «كالقتيل».

وفي اليوم التالي قررت أن أبقى في هذه الغرفة إلى أن أجد بيتاً.

وصول الآلاف من الفلسطينيين رفع مستوى الإيجارات إلى حد لم تشهد له دمشق مثيلاً. وأصبح من الصعب أن تجد بيتاً بإيجار متواضع، وهذه هي حالنا.

كنت أقضي معظم وقتي في اجتماعات تليها اجتماعات، تليها اجتماعات. جلسات تقييم سياسي للمرحلة، جلسات تقييم لأداء القيادة في المعركة، جلسات للترتيبات الإدارية العسكرية والسياسية بعد أن انتقلت قيادة الجبهة الشعبية بغالبية أفرادها إلى دمشق.

ولم يبق في لبنان سوى عدد قليل من القيادات كان مسموحاً لهم بالبقاء كونهم من لاجئي ١٩٤٨ إلى لبنان.

وبدأنا نتلمس طريقنا في دمشق وبدأ الصحافيون والسياسيون المحليون يتلمسون طريقهم إلينا. ودارت العجلة. فالحياة لا تتوقف، ولا يمكن أن تستمر فيها وأنت تنظر للخلف.

وصباح يوم من أيام دمشق، كنت في مقر المكتب السياسي بالشاهبندر عندما وصل بعض المراسلين الأجانب وسأل أحدهم مسؤول الاستقبال عني. فسمحت لهم بالدخول. حديث عادي عما يُعد له في بيروت. وفي نهاية الحديث قال أحدهم إنه تسلم «برقية» من «دافيد برنكلي» وهو مقدم برنامج تلفزيوني مشهور جداً في الولايات المتحدة، واسمه «عرض دافيد برنكلي» ويطلب موافقتك على المشاركة ببرنامجه الذي سيخصص للموضوع الفلسطيني. وأنه سيكون تحت عنوان «ماذا بعد بيروت». وسيكون البث حياً وسيشارك آخرون في البرنامج.

لم أتردد إطلاقاً. فأعطيته موافقتي وطلبت منه الاتصال بي لتحديد الزمان والمكان.

توجهت لفندق شيراتون ــ دمشق في اليوم التالي، في الساعة المحددة لأجد أن فريق برنامج دافيد برنكلي قد حول جناحاً في الفندق إلى استوديو تلفزيوني للبث الحي.

ابتدأ دافيد برنكلي البرنامج بتوجيه سؤال استراتيجي لي أنا من دون المشاركين الآخرين (الذين لم أكن أعرف من هم في تلك اللحظة).

«خرجت «م.ت.ف» وقواتها من بيروت وشردت في دول عديدة وأصبح طريقها صعباً للغاية فلماذا لا توافق «م.ت.ف» أن يصبح الفلسطينيون مواطنين في الأردن أو مواطنين في إسرائيل؟

سؤال هام وفي تلك الظروف كان يشكل محاولة الخروج بحل عملي طالما (بالنسبة لهم) أن «م.ت.ف» تلقت ضربة قاسية في بيروت.

أجبته باختصار، أن الفلسطينيين طرحوا منذ زمن طويل فكرة الدولة الديموقراطية، التي يعيش فيها العرب واليهود بحقوق متساوية وواجبات متساوية، في ظل نظام ديموقراطي علماني. لكن إسرائيل رفضت ذلك، لأنهم يريدون أن تكون دولة إسرائيل دولة يهودية وليست دولة علمانية، وأنهم يخشون أن يتحولوا إلى أقلية في دولة علمانية ديموقراطية تضم الفلسطينيين. ولذلك قررنا أن نناضل لإقامة دولتنا الفلسطينية. ورغم ذلك يقوم الجيش الإسرائيلي بملاحقة الفلسطينيين طمعاً بضم ما تبقى من أرضهم. وها هو ما فعله شارون أكبر دليل على ما أقول. أراد تصفية القيادة والقوات الفلسطينية ليتمكن من ضم الضفة الغربية وقطاع غزة. لم أكن أدري حينها أن شارون مشارك رئيسي في البرنامج نفسه. كذلك لم أكن أدري أن الملك حسين كان مشاركاً رئيسياً في البرنامج.

وجاء جوابي على الشق الأردني قاسياً جداً وبعيداً كل البعد عن أي تكتيك سياسي منطقي. فشرحت له ما جرى في أيلول/سبتمبر ١٩٧٠. وأننا واجهنا معركة تصفيه أيضاً. لذلك نريد استقلالنا.

استمع شارون والملك حسين لإجابتي وجاء دورهم في الرد.

فقال الملك حسين إن السيد أبو شريف مخطىء، فما حصل في أيلول/سبتمبر كان خلافاً عائلياً. ونحن نعتبر الفلسطينيين أخوة لنا.

فيما أصر شارون على أن «م.ت.ف» منظمة إرهابية لا بد من ملاحقتها وتصفيتها.

وأصبح اسمي في الملفات الأردنية اسماً ممنوعاً وأغلق باب أي علاقة عادية أو إيجابية مع الملك حسين.

وأبلغني أحد الذين كانوا يجلسون في استوديو التلفزيون الأردني، الذي استخدم لإجراء المقابلة مع الملك حسين، أنه كان منزعجاً جداً وغاضباً من الطريقة التي أجبت فيها عن السؤال.

بعد خمس سنوات من تلك المقابلة، وأثناء وجودي في لندن أبلغني ضابط البروتوكول الذي يرافقني «سايمون من» أن جلالة الملك حسين سيصل إلى لندن، وأنه يكلف عادة بمرافقته، ولذلك فإنه يعتذر. وعرفني إلى شخص آخر سيتولى هو المرافقة (حماية).

وخطرت لي فكرة.. شكرت سايمون على جهوده ورحبت بالضابط الجديد وقلت لسايمون: أود أن ألتقي بالملك حسين، فهل لك أن تبلغني لاحقاً عن طريق للاتصال به؟ وعد بذلك وغادر.

بعد يومين، اتصل بي سايمون وقال لي إن مديرة العلاقات العامة لصاحب الجلالة هي السيدة إليزابيث كورك، وأعطاني رقم تلفونها الخاص وقال إنها هي المسؤولة عن ترتيب مواعيد صاحب الجلالة.

اتصلت بها وشرحت لها من أنا وأنني سأكون سعيداً إذا رتبت لي موعداً مع صاحب الجلالة. دونت المعلومات ورقم الهاتف وقالت: سنتصل بك.

في صبيحة اليوم التالي استيقظت على رنين جرس الهاتف فالتقطت السماعة وأنا في الفراش وسمعت صوتاً على الطرف الآخر يقول:

صباح الخير، أنا حسين، هل الأخ بسام موجود؟

فسألت: من يتكلم؟

قال مرة أخرى: أنا حسين.

وصحوت كلياً فجأة.. إنه صوت الملك حسين.

وقلت: صاحب الجلالة، صباح الخير، أنا بسام.

وسألني بكل تهذيب وتواضع «هل أنت مرتبط في الحادية عشرة؟».

فأجبته فوراً كلا أنا تحت تصرفك.

وقال: أهلاً وسهلاً بك، البروتوكول المرافق يعرف أين سيكون اللقاء. وأنا متشوق لرؤيتك.

شكرته وقد هزني تواضعه وقلت: سأكون هناك.

جلست في فراشي أفكر. كم كان متواضعاً وكم كان ودوداً، وكم كنت سعيداً لاتصاله السريع.

وتفاءلت خيراً في إصلاح ما انعطب في العلاقة، وفي فتح صفحة جديدة من العلاقة الإيجابية.

اتصلت بالرئيس لأبلغه باللقاء المرتقب، فأجابني «على بركة الله».

في العاشرة من صباح اليوم التالي حضر ضباط البروتوكول وأبلغوني بأنهم سيعلموني في اللحظة المناسبة، لننطلق نحو مقر الملك حسين لنكون هناك في الموعد المحدد.

وهكذا حصل.

وصلنا إلى منزل الملك حسين، وعبرت السيارات البوابة الخارجية وأنزلوني أمام المنزل. ثم استداروا وعادوا أدراجهم.

استقبلني ضابط من التشريفات قائلاً: أهلاً وسهلاً بك. صاحب الجلالة يتوقعك. وأشار لي لأدخل المنزل. ثم أشار لي لأتوجه نحو قاعة الاستقبال.

كان كل شيء متواضعاً وعلى درجة عالية من الذوق. الأثاث بسيط اللوحات بسيطة. كلها كانت تنم عن تواضع وذوق.

قال لي الضابط: تفضل. إنها ثوان صاحب الجلالة قادم.

وخرج من القاعة وأغلق الباب وراءه.

وفجأة فتح الباب ودخل الملك حسين مرحباً.

وطلبنا القهوة. كان الملك من المدخنين. وكذلك أنا. كان يدخن «روثمانز» بينما كنت أدخن «مارلبورو».

بادرت أنا بالاعتذار عن برنامج دافيد برنكلي. واعترفت له بأنني كنت غير موضوعي وربما جارحاً ايضاً.

فابتسم وقال: لقد فوجئت أنا بالجواب. فأنا أعرف أنك من القادرين على استغلال تلك الفرصة لحشر شارون في الزاوية أكثر مما حشرته.

«على كل حال، قال الملك، اعتبر الموضوع منتهياً». وعدنا نتحدث عن الحاضر والمستقبل امتد حديثنا ساعة كاملة ووجدنا نقاط اتفاق وتوافق في التحليل والتوقعات السياسية. وكان ذلك مصدر اغتباط لدي، لأن اللغة السياسية المشتركة هي أحدى أقصر الطرق لإقامة علاقة صداقة متينة.

عند منتصف النهار، نظر الملك إلى ساعته فأسرعت بالقول:

«أنا أعلم كم من المشاغل لديك، سوف أغادر وأملي أن نلتقي باستمرار».

فأجابني وهو يقف:

«بكل سرور. وأنا ارغب في تبادل الرأي. فما نواجهه معقد والعقل الجماعي أنجع في معالجة الوضع».

صافحته وهممت بالخروج من قاعة الاستقبال لكنه أصر بتواضع كبير أن يرافقني للباب.

وبطبيعة الحال كان ضباط البروتوكول يقفون بالانتظار. فحياهم الملك ثم ودعني مرة أخرى. فأسرعت الخطى تخو السيارة.

وأثناء عودتي، انغمست في التفكير بكل ما قيل، وبعد مراجعة بيني وبين ذهني تأكدت من أنه يرغب فعلاً بفتح صفحة جديدة. وهذا ما حصل.

كانت تلك الفترة هي فترة المراحل الأولى من معالجته مما ألم به من مرض. فقد ذكر لي أنه سيغادر لندن إلى مصح خارج العاصمة البريطانية لإجراء فحوصات طبية وأنه سيعود إلى لندن بعد خمسة أيام.

فتحدثت للرئيس هاتفياً وأبلغته باختصار أنه تم اللقاء وأن اللقاء كان إيجابياً جداً.

بعد ستة أيام من ذلك اللقاء اتصلت بالسيدة إليزابيت كورك وسألتها عن إمكانيه ترتيب لقاء مع صاحب الجلالة للاطمئنان عليه.

وجاءني الجواب سريعاً. وأبلغتني السيدة كورك أن صاحب الجلالة يدعوني لتناول الغداء معه.

وكما حصل في المرة السابقة قام ضباط البروتوكول بتوصيلي إلى بيت الملك في لندن لتناول طعام الغداء معه.

وفوجئت بأن الغداء أعد لنا نحن الاثنين فقط، وفي غرفة طعام صغيرة مجاورة لغرفة نوم الملك في الطابق الثاني من المنزل.

كان غداء بسيطاً ومتواضعاً، وتخلل الغداء حديث حول نتائج الفحوصات، والتطورات السياسية والتوقعات.

وفي نهايته أبلغني أنه سيعود للأردن وأمل برؤيتي هناك أو في أي مكان آخر.

ودعني فتوجهت عائداً للمنزل وغادرت إلى تونس في اليوم التالي.

بعد شهرين من تلك الزيارة للندن، أبلغني سفير إنجلترا في تونس (السيد داي آنذاك) أن وزير الدولة للشؤون الخارجية يرحب بي في لندن للتباحث حول آفاق عملية السلام في الشرق الأوسط.

وأبرزت أجهزة الإعلام البريطانية هذا اللقاء وبطبيعة الحال هاجمته بعض الأقلام الصهيونية المتطرفة.

اتصلت بالرئيس، إثر اللقاء، ولخصت له ما دار في الاجتماع، فكان مرتاحاً للنتائج وهنأني على هذا الإنجاز. وسر أيضاً عندما أبلغته أنني وجهت دعوة للوزير والدغريف لزيارة تونس للقائه والأخوة المسؤولين. وكنا قد اتفقنا على تحديد موعد وبرنامج الزيارة في وقت لاحق بعد أن قبلها الوزير (بعد استشارة رئيسة الوزراء مارغريت ثاتشر).

في تلك الفترة بالذات كان الشيخ زايد بن سلطان يلبي دعوة الملكة

لزيارة بريطانيا زيارة رسمية. وكما هي التقاليد، حل الشيخ زايد ضيفاً على الملكة في قصرها: قصر بكينغهام الشهير.

وبعد استشارة الرئيس، اتصلت بالوفد المرافق للشيخ زايد وطلبت منه موعداً بهدف إطلاعه على آخر المستجدات السياسية والميدانية.

تابعت برنامجي المكثف. وفي مساء ذلك اليوم كانت الليدي بولومبو (السيدة حياة مروة) قد رتبت لي رؤية عدد من اللوردات ذوي النفوذ في حزب المحافظين.

وكان اللقاء الأول في منزلها بلندن. بعد نصف ساعة تقريباً استأذن ضابط البروتوكول سايمون ليبلغ أن طاقم البروتوكول المرافق للشيخ زايد اتصل وأبلغ أن موعدي مع الشيخ زايد في مقره بقصر بكينغهام، في التاسعة مساء. (أي بعد نصف ساعة) واعتذر بكل تهذيب أمام اللورد وقال: إن بوابة القصر ستفتح الساعة التاسعة بالضبط ثم تغلق فإذا تأخرنا لن نتمكن من الدخول.

نظرت إلى اللورد الذي قال: اذهب فوراً فهذا موعد هام ويمكن لنا أن نتابع فيما بعد.

استأذنت، وخرجت مع ضابط البروتوكول الذي أسرع الخطى ليكسب الوقت. أسرعنا نحو قصر بكينغهام. وصلنا في التاسعة تماماً. وعبرت السيارة بوابة القصر الخارجية وتقدمت ببطء نحو مدخل المبنى الذي يشغله ضيف الملكة الشيخ زايد بن سلطان.

كانت الإضاءة أمام ذلك المبنى (القصر) قوية. ومدت سجادة

حمراء من مدخل القصر إلى حيث تتوقف سيارات الزوار.

هبطت من السيارة واستقبلني مسؤول التشريفات وآخرون كانوا يلبسون الدشاديش البيضاء ويضعون الكوفيات على رؤوسهم. الصحافة كانت هناك أيضاً.

دخلنا إلى بهو القصر حيث طلب مني الجلوس. وخرج الجميع ليعودوا في الوقت المحدد للقاء.

أثناء الانتظار، انتهزت الفرصة لأجول بنظري في اللوحات والزخارف والتحف التي امتلأ بها ذلك البهو الواسع.

كان بهواً مبهراً. ويكاد يكون متحفاً.

بعد دقائق دخل رئيس التشريفات، ودعاني لمرافقته للقاء الشيخ زايد بن سلطان. وقبل أن يفتح باب الغرفة التي يجلس فيها الشيخ زايد قال لي: أخ بسام، حدّد لك عشرين دقيقة، لأن برنامج سمو الشيخ مكتظ هذه الليلة.

عانقت الشيخ زايد الذي دعاني للجلوس إلى جانبه، ورحت ألخص له قدر الإمكان المستجدات، وشرحت الظروف الصعبة التي يعيشها شعبنا تحت الاحتلال. وكان يقاطعني بين الفينة والأخرى ليستفسر حول تفاصيل معينة تتصل بأوضاع شعبنا فيما بدا الألم على وجهه.

فالشيخ زايد رجل عربي صادق في مواقفه القومية ولفلسطين في قلبه مكانة كبيرة وخاصة.

نظرت إلى ساعتي لأتأكد من عدم خرقي لبرنامجه. كانت الدقائق العشرون قد انتهت. وفي تلك اللحظة بالذات دخل رئيس التشريفات، وانحنى ونظر إلى ساعته. فأشار الشيخ زايد بيده يأمر رئيس التشريفات بالخروج. فخرج وأغلق الباب.

اعتذرت قائلاً: لا أريد أن أشوش برنامجك سمو الشيخ. فأجابني بحزم: فلسطين أهم.

استمر الحديث الذي تخللته أسئلة الشيخ زايد ساعة كاملة. مما أذهل مسؤولي التشريفات وأربكهم.

وفي النهاية ودعني الشيخ زايد واعداً بمساعدة شعبنا، حاثاً على الصمود والاستمرار في النضال لتحرير القدس الشريف.

خرجت من بوابة القصر الداخلية ووُدعت كما استُقبلت، وخرجت السيارة من بوابة خارجية مختلفة (غير التي دخلنا منها).

صباح اليوم التالي فوجئت أن دخولي قصر بكينغهام أحدث دوياً كالقنبلة في لندن.

ونشرت صحيفة يمينية عناوين بارزة أقلها:

«إرهابي في بكينغهام»

وتيقنت لحظتها كم أغاظت تلك الزيارة الدوائر اليمينية والصهيونية المتطرفة. وكم كانت تلك الزيارة هامة. ولماذا مدد الشيخ زايد مدة اللقاء.

كانت هدية سياسية للشعب الفلسطيني. فلأول مرة يدخل فلسطيني قصر بكينغهام.

وعلق القصر على الحملة بالقول:

إن الشيخ زايد بن سلطان هو ضيف الملكة ويحق له استقبال من يشاء في قصرها مقر ضيافته.

وصلت الأخبار إلى الرئيس قبل اتصالي به في اليوم التالي لأستعرض له ما دار في اللقاء.

وعندما كلمته: بادرني مازحاً، قصر بكينغهام يا بسام.

استعرضت نتائج اللقاء بسرعة، فسّر الرئيس قائلاً «شعبنا بحاجة ماسة للدعم». وعدت لمقري في تونس.

(١٥)

صافحت الرئيس مبارك...
فغضبت الجبهة الشعبية

في العاشر من نيسان/أبريل من العام ١٩٨٧ عقد في الجزائر مجلس وطني استثنائي أطلق عليه اسم «دورة الوحدة الوطنية».

إذ لم يكن على جدول أعمال المجلس سوى بند واحد: هو إعادة توحيد صفوف منظمة التحرير الفلسطينية، بعد أن قاطعت المنظمة عدةً تنظيمات منها الجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية وغيرها بسبب توقيع قيادة «م.ت.ف» اتفاق عمان الشهير.

وعقد المجلس الوطني هذا في الجزائر بعد حوار مطول أجرته كافة الفصائل الفلسطينية في طرابلس الغرب، بدعوة من العقيد معمر القذافي، حول أسس وسبل توحيد الصف الفلسطيني.

كنت أرافق الدكتور جورج حبش في ذلك الحوار، ولقد أثار ذلك حفيظة بعض أعضاء المكتب السياسي للجبهة الذين كانوا يتهمونني بأن خطي السياسي هو خط عرفاتي.

وبذلت كل جهد مستطاع، منطقياً، وتحليلياً لإقناع «الحكيم» بضرورة إعادة توحيد الصف الفلسطيني قبل أن يعلن ريغان وغورباتشيف انتهاء الحرب الباردة، في اجتماعهما المقرر في ٢٩ أيار/مايو ١٩٨٧ في موسكو. وكنت قد هيأت لذلك من قبل. فقد خرجت الجبهة الديموقراطية والحزب الشيوعي الفلسطيني من الائتلاف الذي كان يضمهما سوياً مع الجبهة الشعبية، لينفردا بتوقيع اتفاق مع حركة فتح، أطلق عليه اسم «اتفاق آذار براغ» واتفقوا فيه على عقد مجلس وطني لإعادة الوحدة لصفوف «م.ت.ف».

فرتبت لقاء بين أبو جهاد (فتح) والحكيم في براغ، قبل توجههما إلى طرابلس. وكنت أنسق الخطوات مع سفير فلسطين في تشيكوسلوفاكيا أبو هشام. وتم اللقاء الأول في منزل أبو هشام، وتابعنا الحوار، واستخرجت نقاط الاتفاق، وحددت نقاط الخلاف لمتابعة الحوار حولها لاحقاً. وتم توزيع الخبر ولم يكن متفقاً على توزيع أي خبر.

وغادرنا إلى موسكو لاستكمال الجولة المقررة. وكان أبو هشام قد سألني إلى أين تتوجهون؟ فأجبته بأننا متوجهون إلى موسكو لإجراء مباحثات مع اللجنة المركزية للحزب.

وفوجئنا في موسكو بوصول أبو جهاد وأبو هشام ووفد من فتح. واتصل أبو جهاد يطلب لقاء «الحكيم» وتم ذلك، وكان عنوان اللقاء

متابعة البحث في نقاط الخلاف للتوصل لاتفاق. كان ذلك سريعاً.

وفيما نحن نتابع البحث بجدية، أُبلغنا أن بياناً قد صدر في دمشق عن المكتب السياسي للجبهة، يعتبر أن ما اتفق عليه الحكيم مع أبو جهاد لا يمثل موقف المكتب السياسي.

وعندما قلت إنني أشك في ذلك فهذا غير معقول، أخرج أبو هشام من جيبه نسخة من البيان الذي حمل ختم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

لم يكمل البحث مع أبو جهاد، فقد أنهينا مباحثاتنا مع اللجنة المركزية للحزب في موسكو وطرنا للجزائر.

وفوجئنا مرة أخرى باتصال أبو جهاد الذي وصل الجزائر يطلب متابعة الحوار. وتابع الحكيم الحوار بتحفظ شديد بعد صدور ذلك البيان في دمشق. ولم يكتمل الحوار فقد غادر الجميع تلبية لدعوة العقيد معمر القذافي إلى طرابلس الغرب، حيث تجمعت قيادات كافة التنظيمات الفلسطينية لبحث إعادة وحدة الصف الوطني الفلسطيني.

وفهمت من بعض أصدقائي الليبيين أن أبو جهاد كان قد طرح مسبقاً على القيادة الليبية مشروعاً لإعادة وحدة الصف الوطني، واتفق معهم على الأسس السياسية لعملية إعادة التوحيد تلك.

وطالت الحوارات والنقاشات وحاول الليبيون التأثير بكل الجهد من خلال تحالفاتهم الفلسطينية: أحمد جبريل وجورج حبش وغيرهم.

وشعرت أن موضوع إعادة توحيد الصف الوطني قد فتح على مصراعيه، وهذا ما كنت أبذل جهداً كبيراً من أجله لما له من تأثير على الوزن السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية، وحقوق الشعب الفلسطيني قبل أن يعقد ريغان وغورباتشيف صفقة إنهاء الحرب الباردة، وإيجاد حلول للمشاكل الساخنة في العالم.

وكان المعارضون يعتقدون أن الجزائريين لن يسمحوا بعقد المجلس الوطني، قبل التوصل إلى اتفاق لإعادة توحيد «م.ت.ف». فالجزائريون حسّاسون تجاه هذا الأمر، وكانوا دائماً مناصرين لنضال الشعب الفلسطيني، ويسعون لتوحيد صفوفهم وحل خلافاتهم بالتي هي أحسن.

لكن الجزائريين هذه المرة، أعلنوا قبل التوصل لاتفاق في طرابلس الغرب، أن الجزائر ستستضيف المجلس الوطني الفلسطيني في العاشر من نيسان/أبريل ١٩٨٧.

وعندما أبلغت الحكيم بالخبر قال: هذا مستحيل! فقمت بالاتصال بالجزائر مع عدد من كبار المسؤولين الجزائريين الذين أكدوا لي قرارهم قائلين: إن استمرار النقاش هو بذخ لا يمكن لقضيتكم أن تتحمله. فشعبكم يعاني ونحن دعَونا الجميع.

وطلبت منهم، للقفز حول الحوارات والتناقضات، أن يوجهوا دعوة خاصة للدكتور جورج حبش وأن يُتبعوا ذلك بإرسال طائرة خاصة لتقله إلى الجزائر تلبية لتلك الدعوة.

وأن بإمكانهم البحث مع الدكتور جورج حبش بموضوع الوحدة

الوطنية وضرورتها في ظل الظروف الدولية التي كانت تسود آنذاك.

وقاموا بتوجيه الدعوة وأبلغوه أنهم سيرسلون طائرة خاصة وتم الاتفاق.

قبل أن يغادر الحكيم للجزائر، اتصل من دمشق بعض أعضاء المكتب السياسي (الذين كانوا يعارضون التفاهم مع حركة فتح) ليقولوا للحكيم أنهم اتخذوا قراراً بعودتي فوراً لدمشق.

إذ لم يكونوا سعيدين إطلاقاً بوجودي في ذلك الحوار إلى جانب الحكيم. فأنا بالنسبة لهم «عرفاتي الأفكار». وكم كانوا جهلة ــ وبعيدين كل البعد عن قوانين الديالكتيك التي كانوا يتشدقون بها دون أن يستوعبوا ترجماتها السياسية.

أبلغني الحكيم القرار وطلب مني أن أعود إلى دمشق فوراً.

وعلمت لاحقاً أن الدكتور جورج حبش طلب من نائبه الحضور، فكان شرطه أن أعود أنا ليحضر هو.

وتم ذلك. غادرت فوراً إلى دمشق، وتوجه نائب الأمين العام للجزائر ليلتحق بالأمين العام.

ومن الطريف أن الجزائريين قرروا استضافة كل القيادات وأعضاء المجلس الوطني في فندق سياحي كبير في وسط حديقة الحيوانات «كي لا يخرجوا منه قبل أن يتفقوا».

وبدأت الحوارات في الجزائر، ومورست الضغوط السياسية وبدأت الأمور تتجه نحو الحلول. بقيت في دمشق يومين فقط.

ولم أستطع تحمل أن أكون بعيداً عن هذا الاجتماع التاريخي. وبما أنني عضو في المجلس الوطني منتخب ديموقراطياً وليس معيناً كأحد ممثلي الجبهة الشعبية، قررت أن أتوجه للجزائر مهما كان الثمن. وحزمت أمري وتوجهت للجزائر والتحقت بالمجتمعين في ذلك الفندق الظريف.

وفي آخر ليلة استكملت فيها الاجتماعات والحوارات حول إعادة توحيد صفوف «م.ت.ف» فوجئت أن نائب الأمين العام، الذي كان يعتبر قبل شهر مصافحة فتح «خيانة»، يدلي بمرافعة هي أشبه بما قاتلت من أجله، ودافعت عنه. بغض النظر عن الأسباب أثلج صدري، فهذا يعني أن الطريق لإعادة توحيد «م.ت.ف» قد فتح على مصراعيه.

وانتقل الجميع إلى منطقة أخرى، وعقدت جلسات المجلس الوطني وأعيد توحيد صفوفها وبدأ الجميع بمغادرة الجزائر تباعاً.

وبقيت أنا في الجزائر. ورحت أتذكر التناقض الذي كنت أعيش فيه، بين عقلي والتزامي التنظيمي. تذكرت اجتماعات مكتبنا السياسي ولجنتنا المركزية في دمشق. تذكرت مرافعاتي في اللجنة المركزية حول الهجمات التي ستشن على مخيماتنا في لبنان (وحصل هذا ١٩٨٥ ــ ١٩٨٦).

وتذكرت كيف كان يرهن معظم أعضاء اللجنة المركزية موقفهم

لموقف سورية تحت شعارات مختلفة واستناداً لتحليلات مختلفة.

تذكرت كم مرة فشل اقتراحي لفتح حوار مع فتح من أجل الوحدة الوطنية.

وفي آخر جلسة للجنة المركزية فاز اقتراحي بأغلبية صوت واحد وهو صوت الحكيم. بينما في الجلسات الأولى كنت الصوت الوحيد المساند لاقتراحي. وشعرت بالرضى ـ موضوعيا أم ذاتياً، شعرت أن جهودي نجحت وأن «م.ت.ف» هي الآن على البر ـ بر السلامة ـ وعليها أن تنطلق لتحقيق الأهداف الوطنية الفلسطينية.

وبدأت عملية مراجعة في ذهني لتاريخ المواقف السياسية. وشعرت أنني أنهكت عقلي بإسكاته، دائما تحيزاً لالتزامي التنظيمي. وأن عليّ الآن أن أطلق سراحه، وأن أكون حراً في تفكيري، وحراً في اتخاذ مواقفي خدمة لقضيتي التي كرست لها نفسي، منذ أن تخرجت من الجامعة الأميركية ببيروت عام ١٩٦٧.

وكلما تعمقت في التفكير ومراجعة الأمور كلما شعرت بأن عودتي لدمشق ستكون قرار إعدام لعقلي.

كان أصدقائي الجزائريون قد رتبوا لي إقامتي، وتركت حراً لأفكر وأتخذ القرار. بعد شهر من ذلك المجلس الوطني، اتصل بي الرئيس ياسر عرفات، ويبدو أن بعضهم قد أبلغه بأنني معتكف بالجزائر، وطلب مني زيارته في تونس.

فغادرت الجزائر إلى تونس بعد بضعة أيام والتقيت بالرئيس الذي

رحب بي وقال: لا يجوز أن تعتكف فهنالك عمل وطني. حضر نفسك. سنذهب لحضور القمة الإفريقية في أديس أبابا (إثيوبيا) ويسعدني أن تكون ضمن وفدي للقمة.

لم يكن تفكيري قد استقر على شيء، أو طريق أسلكه، بل كان يبحث حتى تلك اللحظة.

فقلت له: يسعدني ذلك.

وأذكر أني لم أكن مهيأً لذلك فقد وصلت تونس لا أحمل إلا ثياباً غير رسمية. لكن الأمر تم وغادرت تونس مع الرئيس إلى أديس أبابا وأنا أحمل تلك الثياب الصيفية.

كانت تلك رحلتي الأولى مع الرئيس ياسر عرفات على متن طائرته الخاصة. وكان قد سبق الوفد الذي يرافق الرئيس جمال الصوراني، أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية آنذاك. على متن الطائرة رحب بي الرئيس ترحيباً جميلاً وتحدثنا بأمور سياسية كثيرة ولاحظ هو، أن ذهني مشغول وأنني أغوص مع نفسي طويلاً. فقال لي بحنان أبوي وأخوي:

أمامك عمل وطني في سبيل القضية، فنحن جميعاً كرسنا أنفسنا لها فلا تدع أي شيء يبعدك عن ذلك أو أن يثبط من عزمك أو يضعف إرادتك. ابتسمت وقلت: لا يمكن لأي شيء أن يثبط من عزائمي، أو أن يبعدني عن التفكير في كيف يمكن أن أضاعف الجهد في الطريق الصحيح لأخدم قضيتي وقضية شعبي.

حان موعد النوم.

ارتخى الرئيس على مقعده الكبير وقام المرافقون بتغطيته ببطانيات صوفية، وجلبوا لي واحدة. فاسترحت في مقعدي وأخلدت للنوم.

عندما اقتربنا من أديس أبابا، قام قبطان الطائرة بإعلامنا بذلك وطلب منا شد الأحزمة وأن نكون مهيئين للهبوط.

كان الجميع جاهزين عندما وقفت الطائرة أمام البساط الأحمر، وصعد للطائرة سفير فلسطين في أديس أبابا، ومسؤول التشريفات، الذي رحب بالرئيس وشرح سريعاً الإجراءات البروتوكولية.

وهبط الرئيس نتبعه نحن وتمت كل المراسم، وتوجهنا للمقر المخصص للرئيس في قرية المؤتمرات التابعة لمنظمة الوحدة الأفريقية.

كان لكل رئيس فيلا خاصة والوفود تشغل الفنادق المحيطة بتلك الفيلات.

وتم الاتفاق أن نلتقي جميعاً في الفيلا المخصصة للرئيس ياسر عرفات بعد نصف ساعة من وصولنا.

أسرعنا. وبعد أن قمنا بما يلزم للانتعاش توجهنا إلى الفيلا المخصصة للرئيس.

كان الرئيس مبتهجاً ونشيطاً. وقال: علينا أن نقوم بالجولة المعتادة قبل أن تبدأ جلسات القمة. الجولة المعتادة هي أن يزور الرئيس

عرفات كافة الرؤساء في أماكن إقامتهم القريبة من بعضها البعض، ليحييهم ويثير معهم أهم ما يريد أن يطرحه على القمة، والمتصل بالقضية الفلسطينية.

وهكذا كان. وتحرك الوفد برئاسة الرئيس نحو مواقع الرؤساء الآخرين.

كانت الزيارة الأولى للرئيس كنيت كاوندا. ولم يدم اللقاء طويلاً فقد كانت تلك الجولة عبارة عن زيارات لياقة للتحية.

أما الزيارة الثانية فقد كانت للرئيس حسني مبارك. لم أكن أعلم أن الزيارة الثانية ستكون لمقر الرئيس حسني مبارك، إلا عندما وصلنا هناك. وأمام الفيلا المخصصة للرئيس مبارك احتشد عشرات الصحافيين المصريين والأجانب وفرق التلفزيون.

بطبيعة الحال سلطت الأضواء على الرئيس عرفات وسرنا نحن خلفه باتجاه مدخل الفيلا. وانهالت أسئلة كثيرة على الرئيس عرفات الذي اكتفى بكلمات مقتضبة شاقاً طريقه نحو المدخل.

كان الباب مشرعاً والرئيس مبارك يقف على رأس المستقبلين. وكما هي العادة تدافعت الكاميرات لتلتقط الصور.

واكتشف بعضهم أنني ضمن الوفد. وعندما صافحت الرئيس مبارك تعالت الأصوات وانهالت الكاميرات. كانت تلك هي المرة الأولى التي يصافح فيها قيادي من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين رئيساً مصرياً منذ توقيع اتفاق كمب ديفيد.

كان ذلك بالنسبة للصحافة خبراً مثيراً وانتشر كالنار.

وفي دمشق تدافع الصحافيون إلى مكاتب الجبهة الشعبية للاستفسار عن ذلك، وعما إذا كانت مصافحتي للرئيس مبارك تشكل تغييراً جوهرياً في سياسة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

فوجىء مسؤولو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ورفضوا التعليق لحين التأكد من الخبر.

وجاءت الصور لتؤكد الخبر دون أي لبس.

وفي اليوم التالي صدر بيان عن المكتب السياسي، متوتر اللهجة والمضمون يعلن فصلي وطردي من الجبهة الشعبية.

أقول متوتر اللهجة والمضمون لأن الفصل والطرد ليسا من صلاحية المكتب السياسي، ولا يمكن أن يتم ذلك إلّا بقرار من المؤتمر العام للجبهة الشعبية الذي انتخبني عضواً في اللجنة المركزية، واللجنة المركزية انتخبتني عضواً في المكتب السياسي.

ووصل نص البيان إلى أديس أبابا، وأصدرت بياناً مقتضباً مهذباً أعلنت فيه عن اعتزازي بتاريخي النضالي وبرفاقي الذين ناضلوا واستشهدوا على الدرب أو ما زالوا يناضلون.

وانتهت القمة الأفريقية، وحزمنا حقائبنا لتحط بنا الرحال في أبو ظبي ــ الإمارات العربية المتحدة. كانت اللقاءات في أبو ظبي هامة. فقد جاءت بعد توحيد صفوف «م.ت.ف» في المجلس

الوطني الفلسطيني الذي عقد في الجزائر في نيسان/أبريل ١٩٨٧، وبعد القمة الأفريقية التي اتخذت موقفاً داعماً للشعب الفلسطيني وحقه في تقرير المصير.

وشرح الرئيس مجمل هذه التطورات للشيخ زايد بن سلطان كما شرح له الظروف الساخنة والمتفجرة في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

ووعد الشيخ زايد بدعم الشعب الفلسطيني وأكد وقوف الإمارات دون تردد إلى جانب النضال الفلسطيني لتحرير القدس.

غادرنا بعدها متوجهين لليمن ثم عدنا إلى تونس.

وبعد أسبوعين توجهنا إلى القاهرة للقاء مع القيادة المصرية لبحث خطة التحرك السياسي بعد إلغاء اتفاق عمان، الذي كان يشكل لفترة من الفترات آلية للتحرك السياسي الدولي والإقليمي. (ألغي الاتفاق لتمهيد الطريق لتوحيد الصف الفلسطيني في المجلس الوطني بالجزائر).

وعند مدخل القصر الجمهوري كان الرئيس حسني مبارك في استقبال الرئيس عرفات والوفد المرافق له.

تصافح الرئيسان ثم وقف الرئيس عرفات إلى جانب الرئيس حسني مبارك واصطف الوفد بنظام ليتقدم نحوه للتحية. وفجأة قال الرئيس مبارك «بسام فين؟».

فقال الرئيس عرفات: موجود، تعال يا بسام. فاقتربت وصافحت

الرئيس مبارك والكل ينظر بدهشة لهذه اللفته.

وقال الرئيس مبارك: هم فصلوك علشان سلمت عليّ في أديس أبابا؟

تعال أبوسك.. يمكن يرجعوك المرة دي.

وضحكنا.

اجتمع الرئيس عرفات بالرئيس مبارك بعد التحية على حدة، وانتظرنا نحن في قاعة الاستقبال.

وبعد نصف ساعة تقريباً دعينا للدخول لغرفة الاجتماعات. وانضم الوفدان للرئيسين.

وجرى حديث عام حول ضرورة وضع خطة سياسية للتحرك الدولي والإقليمي لتفعيل الضغط لتطبيق قرارات الشرعية الدولية، خاصة قراري ٢٤٢ و ٣٣٨ والقرارات المتصلة بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني.

وغادرنا عائدين إلى تونس.

كانت مصر دائماً تشكل الرافعة الكبيرة لحركة الشعب الفلسطيني لنيل الحرية والاستقلال. وكانت تشكل دائماً حماية وملجأً للحركة الفلسطينية عندما تشتد الظروف، أو تتصاعد التناقضات في المشرق العربي. وكانت «م.ت.ف» في تلك الفترة بأمسّ الحاجة لمصر بعد أن وتر إلغاء اتفاق عمان العلاقات مع الأردن، وفي ظل انقطاع العلاقات مع سورية وإغلاق لبنان في وجه «م.ت.ف».

فأصبحت الرافعة المصرية ذات وزن أكبر بكثير من وزنها العادي والكبير. وكان الرئيس عرفات يضع في حسبانه أن لديه مثلثاً عربياً يستطيع الاعتماد على دعمه السياسي لفترة من الوقت (الى أن تتغير الظروف) وهو مصر ــ العراق ــ اليمن.

وأن عليه أن يضع الخطط السياسية استناداً لهذا الواقع.

(١٦)

قمة شطب منظمة التحرير الفلسطينية

مع احتدام المعارك بين العراق وإيران في العام ١٩٨٧ دعت جامعة الدول العربية لعقد قمة استثنائية، وتقرر أن تعقد القمة في العاصمة الأردنية عمان.

كان ذلك في الثامن من تشرين الثاني/نوفمبر في وقت شهدت العلاقة الأردنية ــ الفلسطينية توتراً ملحوظاً. والحقيقة أن التوتر في العلاقات بدأ قبل ذلك ولكنه استمر في التصاعد. ففي آذار/مارس من العام نفسه عقد في الجزائر اجتماع طارئ للمجلس الوطني الفلسطيني تحت عنوان عريض ــ هو إعادة الوحدة لصفوف منظمة التحرير الفلسطينية. وكانت وحدة الصف هذه قد مزقها «اتفاق عمان» الذي أبرم بين قيادة م.ت.ف. والأردن في العام ١٩٨٤.

توجه أبو عمار إلى عمان لحضور القمة العربية الطارئة تلك على متن طائرة عسكرية عربية. ورافقته في تلك الرحلة بناء على طلبه.

كنت القيادي الفلسطيني الوحيد الذي رافقه في تلك الرحلة. إذ إن بقية أعضاء الوفد الفلسطيني كانوا قد وصلوا عمان قبل ذلك.

استغرقت تلك الرحلة قرابة الساعتين جلست خلالها في مقعد محاذ لمقعد الرئيس بينما كان المرافقون ورجال الأمن يجلسون في المقاعد الخلفية.

خلال الرحلة إلى عمان تحدث الرئيس أبو عمار باقتضاب يدل على شعور بالقلق. لكنه كان يستمع لكل ما أقوله باهتمام رداً على بعض الأسئلة التي كان يطرحها عليّ بين الفينة والأخرى.

كان محور الحديث حول الهدف من هذه القمة. فالعراق لا يتوقع من القمة أية مساعدة أو معونة في حربه الدائرة مع إيران.. سوى بيان سياسي. ولكن مقابل ذلك ماذا يريد الآخرون.

كان هذا ما يقلقه.

عندما أبلغ قبطان الطائرة الرئيس ياسر عرفات بأننا سنهبط في مطار عمان بعد عشرين دقيقة ــ نظر إلي وقال:

«لا بد من إعطائك صفة رسمية لحضور القمة».

وأشار لأحد المرافقين، الذي هرع نحوه مؤدياً التحية فطلب منه أن يأتيه بأوراق الرئاسة الرسمية. أحضرت الأوراق، وكتب الرئيس

مرسوماً بتعييني مستشاراً له. وطلب من المرافقين توثيق ذلك فوراً.

بدأت الطائرة بالهبوط وما هي إلا دقائق حتى حطت على مدرج المطار. وراحت الطائرة تتهادى على مهل بناء على تعليمات برج المراقبة في مطار «ماركا» الذي كان مطار عمان قبل ذلك، ثم تحول إلى مطار خاص بعد أن افتتح مطار عمان الدولي. (مطار الملكة علياء في منطقة زيزياء جنوب عمان).

اقتربنا من قاعة الشرف التي مد أمامها السجاد الأحمر لاستقبال الرؤساء. واستمر برج المراقبة في إعطاء التعليمات للقبطان حتى توقفت الطائرة أمام سجاد الاستقبال الأحمر.

وشاهدنا من نافذة الطائرة المستقبلين يقتربون ـــ عبر السجاد الأحمر ـــ نحو باب الطائرة الذي كان يقترب منه سلم متحرك.

ولاحظ الرئيس ياسر عرفات أن جلالة الملك حسين لم يكن على رأس المستقبلين كما هي العادة وكما فعل مع الرؤساء والملوك الذين وصلوا قبله. وتبين أن رئيس الوزراء السيد زيد الرفاعي كان على رأس المستقبلين وليس الملك حسين.

وطلب الرئيس فوراً من طاقم الطائرة عدم فتح أبوابها.

نظر إليّ وسألني؟

«ما رأيك هل أصدر أمراً للطاقم بالإقلاع احتجاجاً؟».

تمهلت في الإجابة.

كان الأمر خطيراً، وستتفاقم المشاكل وتتوتر أكثر العلاقات الأردنية ــ الفلسطينية.

نظرت عبر النافذة ورأيت زيد الرفاعي ووزراء وضباطاً ينتظرون عند درجات السلم الأولى بانتظار أن تفتح أبواب الطائرة:

قلت للرئيس:

«هذه ليست صدفة طبعاً. بل إنه تصرف مقصود. والسؤال: ما هو غرض هذه الخطوة. هل هو استفزازك لتقلع دون حضور القمة؟

لا بد أن في الأمر شيئاً سنكتشفه قريباً. لكن الشيء الوحيد الذي أراه هو أن عليك أن تتجاهل ذلك وأن تحضر القمة.

ساد صمت لثوان معدودات، بدت أطول من ذلك بكثير.

وفجأة شرع الرئيس بفك حزام الأمان وقال: رأيك صائب. لنر ماذا يخبئون لنا.

وأمر بفتح الأبواب.

صعد رئيس البروتوكول وسفير فلسطين للطائرة ورحبوا بالرئيس الذي رسم على وجه ابتسامة، رغم القلق الذي يساوره.

وبدأ يهبط أدراج السلم.

صافح رئيس الوزراء زيد الرفاعي والآخرين بحرارة.

وصافحت بدوري من بعده رئيس الوزراء زيد الرفاعي الذي

كنت أعرفه منذ الصغر. فقد كان بيت والدي في جبل «اللويبدة» مقابل بيت سمير الرفاعي (والد زيد) وكانا (رحمهما الله) صديقين.

عندما صافحته قال لي «لا تشد كثيراً على يدي يا بسام فهي مجروحة.. أنتم جرحتموها عندما حاولتم اغتيالي في لندن».

فأجبته: «لم نحاول اغتيالك، هي جهة أخرى. لكن المهم ألا تغتالوا القضية».

وأقبل أبو عمار نحونا ــ عندما رأى أننا نتبادل الحديث. فقلت له: «نحن أولاد حارة واحدة يا أبو عمار» فضحك أبو عمار. وتوجهنا نحو السيارات التي كانت تنتظر لتقلنا لمقر إقامتنا في فندق بلازا.

رحت أجول بنظري في محيط الشوارع التي كان الموكب يقطعها.

كم تغيرت عمان.

سبعة عشر عاماً مضت منذ أن غادرتها. وبقيت ممنوعاً من دخولها منذ أحداث أيلول/سبتمبر عام ١٩٧٠.

وصلنا الفندق حيث ينزل الملوك والرؤساء والوفود وصعد الرئيس فوراً يرافقه المستقبلون لجناحه. فيما توجهت أنا للغرفة المخصصة لإصدار بطاقات أعضاء الوفود.

كانت الغرفة مكتظة بوزراء وأعضاء الوفود. حييت العديد منهم وجلست انتظاراً لدوري في الحصول على البطاقة.

ورحنا نتبادل الحديث حول الأوضاع السياسية لأجواء القمة.

رويداً رويداً بدأت غرفة إصدار البطاقات تخلو من زبائنها.

وانتهى الأمر بأن بقيت وحدي في الغرفة أنتظر بطاقتي. عندها أحسست أن وراء الأكمة ما وراءها. توجهت للموظفين المسؤولين عن إصدار البطاقات متسائلاً عن سبب التأخير. فأجاب أحدهم بتهذيب شديد ـ «انتظر التعليمات سيدي».

فهمت عندئذ أن دخولي عمان بعد ١٧ عاماً من المنع يسبب إشكالا. وفهمت أيضاً لماذا أصر الرئيس على إصدار مرسوم تعييني مستشاراً له قبل هبوطنا من الطائرة.

عدت إلى مقعدي وحاولت الاسترخاء بإغماض عيني.

لا أدري كم من الوقت مضى ـ قد تكون دقائق أو أكثر ـ لكنني تحولت من الاسترخاء للانتباه عندما سمعت أحدهم يسأل:

أين بسام أبو شريف؟

نظرت إليه فيما أنا جالس ولم أفه بكلمة.

لم يكن في الغرفة سواي.

فلماذا السؤال.

اقترب مني الضابط وسألني قائلاً «هل أنت بسام أبو شريف؟».

فأجبته «لماذا تسأل وأنت تعرف ذلك حق المعرفة».

كان ذلك الضابط مصطفى القيسي مدير المخابرات العامة الأردنية.

قال لي بهدوء: متأسفون على هذا ولكن يجب أن تغادر البلد. أنت ممنوع من دخول الأردن وسنرافقك للمطار لتأمين مغادرتك عمان فوراً.

فأجبته بهدوء:

«أنا لم آت للأردن. أنا آت للقمة العربية. فهذه البقعة الآن تابعة لجامعة الدول العربية وأنا عضو في وفد بلادي. ولا يحق لأحد منعي من حضور القمة».

أجابني بلهجة جافة: هذه هي الأوامر وسننفذها.

فأجبته بهدوء «لا أستلم أوامر من أحد سوى الرئيس ياسر عرفات. إذا أمرني الرئيس بالمغادرة سأغادر فوراً. أما دون ذلك فلن أغادر».

غادر القيسي الغرفة وبقيت انتظر. وما هي إلّا دقائق حتى وصل للمكان اللواء عبد الرزاق اليحيى ـ القائد السابق لجيش التحرير الفلسطيني. وقال ضاحكاً «لقد حلت المشكلة. أنت صاحب مشاكل دائماً».

فأجبته: أنا صاحب حق وليس مشاكل.

تأبط ذراعي وخرجنا لبهو الفندق الذي اكتظ بالوزراء العرب وأعضاء الوفود. وتوجه متأبطاً ذراعي نحو مجموعة من الضباط

الأردنيين بينهم مصطفى القيسي مدير المخابرات العامة الأردنية.

وقال اللواء اليحيى محاولاً تلطيف الأجواء: الحمد لله أن سوء التفاهم قد حل وانتهى الأمر على خير.

صافحت الضباط الذين كانوا ينظرون إلي وقال أحدهم:

«لقد تعديت على صاحب الجلالة في مقابلاتك التلفزيونية خاصة التلفزيون السوري».

فقلت له: هذا ليس صحيحاً فأنا لم أجر أية مقابلات مع التلفزيون السوري. أما إذا قصدت تلفزيونات أخرى خاصة العالمية فقد كنت أدافع عن وجهة نظر منظمة التحرير الفلسطينية وعن موقفنا».

تدخل اللواء اليحيى وقال: اصعد إلى جناحك لترتاح قليلاً.

عندها أخرج أحد الضباط بطاقتي قائلاً: تفضل هذه هي بطاقتك. لقد أصدرت بناء على أوامر صاحب الجلالة.

فقلت له: شكراً. وتوجهت للمصعد.

كنت متعباً جداً. دخلت غرفة المصعد وضغطت بإصبعي على الرقم (٧) لأصل إلى الطابق حيث الجناح المخصص لي.

وأرحت أعصابي وكأنني أتهالك وألقيت برأسي للخلف ليلامس مرآة المصعد.

وفجأة توقف المصعد عند الطابق الثالث. فاستنفرت أعصابي ووقفت مشدوداً. فتح باب المصعد أوتوماتيكياً. وكم كانت دهشتي:

وجهاً لوجه مع صاحب الجلالة الملك حسين. الذي بادرني مبتسماً: أهلاً بسام.... أهلاً بك في بلدك.

قلت له: شكراً يا صاحب الجلالة. هذا هو شعوري بالفعل.

دلف إلى المصعد برفقته اثنين من مرافقيه وأكمل الحديث.

«سمعت أن سوء تفاهم قد حصل. بسيطة. هذه بلدك. مرة أخرى أقولها وأهلاً وسهلاً بك».

شكرته مرة أخرى.

توقف المصعد عند الطابق الخامس فودعني جلالة الملك وغادر المصعد.

تابعت طريقي نحو الطابق السابع وغرفتي وألقيت بنفسي على السرير الواسع وأغمضت عيني.

دقائق معدودة من الاسترخاء أمدتني بطاقة جديدة... فاستحممت وغيرت ملابسي وخرجت قاصداً جناح الرئيس ياسر عرفات.

كان ديوانه مكتظاً بأعضاء الوفد وأركان السفارة. رحب بي الجميع وابتسم قائلاً: أخيراً حضرت.

وعندما حاولت أن أشرح ماذا جرى ابتسم مرة أخرى وقال: أعرف كل التفاصيل فقد كنت أتابع الأمر لحظة بلحظة وهددت بأنني سأغادر القمة في حال ترحيلك.

قال لي أحدهم: «لقد قال لهم الرئيس جئنا سوياً على طائرة واحدة وسنغادر سوياً على الطائرة نفسها».

وعاد الحديث إلى مجراه وراح الأخ فاروق القدومي (وزير الخارجية) يشرح تفاصيل النقاش حول البيان السياسي المقترح صدوره عن القمة.

طبعاً كانت المسألة الجوهرية آنذاك هي دعم العراق في المعركة مع إيران والعمل على خلق جو دولي ضاغط لتحرير الأراضي العراقية التي كانت إيران قد احتلتها في تلك الفترة.

لكن ما لفت الانتباه هو أن البيان المقترح لم يشر كما هي العادة إلى أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني. وبدا وكأن هذا لم يكن هفوة بل كان مقصوداً، وأن هناك جهات تريد أن تغتنم فرصة عقد القمة الطارئة لتكون ممراً نحو تهميش دور منظمة التحرير الفلسطينية فيما يتصل بتمثيل الشعب الفلسطيني، وبالتالي الوصول إلى نقطة يتمكن فيها آخرون من تمثيل هذا الشعب أو التفاوض باسمه.

عندما خلت الغرفة من أعضاء الوفد والزائرين بقيت إلى جانبه.

استدعى الرئيس ياسر عرفات مسؤول المجموعة الأمنية التي رافقته.

وسأله عما جرى بشأن تفتيش الحقائب. فأجابه بأن الأمر على حاله.

أصرت الأجهزة الأمنية الأردنية على تفتيش حقائب الرئيس ياسر عرفات الذي قام بدوره بإعطاء التعليمات للضباط المرافقين له برفض ذلك رفضاً مطلقاً. ليس لأن الحقائب تحتوي على ما هو ممنوع. بل لأن تفتيش حقائبه كان خرقاً لكل الأعراف البروتوكولية وإهانة تلحق بالرئيس شخصياً.

فقلت له إن هذا الأمر غريب.

بدأ في المطار عند الاستقبال بعدم وجود الملك على رأس المستقبلين ثم تفتيش الحقائب، ورفض منحي البطاقة. تبدو الأمور وكأنهم يريدون استفزازك حتى تغادر ولا تحضر القمة.

لم يجب الرئيس بل أطرق مفكراً.

استأذنته في الذهاب حيث تحتجز الحقائب لأرى ما يدور. توجهت فوراً إلى جناح من أجنحة الفندق القريبة حيث نصبت قوات الأمن الأردنية أجهزة إلكترونية تمر من خلالها الحقائب للتأكد من خلوها من أي ممنوعات.

وهناك التقيت بالعقيد مصباح الذي كان يقف حائلاً دون المساس بحقائب الرئيس التي كانت على متن شاحنة عسكرية.

وسمعته يقول للعقيد الأردني المسؤول عن ذلك القسم «لا يمكن

لأحد أن يمس حقائب الرئيس أو أن يفتشها».

وعدت لجناح الرئيس وأبلغته أن الأمر معقد. فابتسم وقال «الأخوان يتابعون هذا الأمر».

وفي نهاية الأمر وقبل جلسة القمة الافتتاحية حل الإشكال وسمح بنقل حقائب الرئيس لجناحه دون تفتيش.

كانت تلك وقفة عز وكرامة من الرئيس وهذه إحدى صفاته المميزة.

تماماً كما أصر على مغادرة عمان إن أصرت المخابرات الأردنية على ترحيلي. وكاد أن يصدر أمراً لطاقم الطائرة بالإقلاع رداً على عدم الالتزام بقواعد البروتوكول والاحترام عند استقباله.

خلال ذلك اندلعت المظاهرات الشعبية في الضفة الغربية وقطاع غزة، مئات الآلاف تظاهروا في شوارع مدن وقرى الضفة الغربية وقطاع غزة احتجاجاً على عدم استقبال جلالة الملك حسين لرئيسهم ياسر عرفات. وكان الاستقبال للرؤساء والملوك يُبث حياً على شاشات التلفزيون وشاهد الفلسطينيون أن رئيسهم لم يلق الاستقبال الذي يفترض حسب الأعراف والتقاليد أن يلقاه.

جلسة الافتتاح كانت كغيرها من جلسات الافتتاح في القمم العربية. كلام منمق يلقى في خطابات منمقة دون أن تعني شيئاً أو أن تقترح شيئاً عملياً. دعم للعراق لفظي دون تناول المسائل بشكل معمق وعملي.

على كل حال تتابعت الجلسات إلى أن وصل الأمر نحو الاختلاف الحساس حول وحدانية تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية للشعب الفلسطيني. وتطور الخلاف من نقاش داخل الغرف المغلقة إلى احتكاك سياسي علني أمام الصحافة.

وكانت الصحافة المحلية والعربية والعالمية قد حشدت مراسليها وفرقها لتغطية أحداث ونتائج تلك القمة الاستثنائية.

وتحول الحديث في الصحافة من موضوع العراق ودعمه في الحرب الدائرة مع إيران إلى الموضوع السياسي الشائك وهو تغيير الموقف العربي الرسمي الذي تقرر في قمة الرباط والمؤكد على أن م.ت.ف. هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني إلى موقف جديد لا يربط التمثيل بالمنظمة، أو على الأقل وحدانية التمثيل.

كان هذا يعني أن تتيح القمة المجال لدول أو دولة غير م.ت.ف. لتمثيل الفلسطينيين أو تمثلهم إضافة لمنظمة التحرير الفلسطينية.

واحتدم النقاش بين وزراء الخارجية وبين أعضاء الوفود. لكن الموقف الأردني كان مصراً على عدم إضافة «التمثيل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني بعد اسم منظمة التحرير الفلسطينية».

وبما أن الأردن كان الدولة الوحيدة التي وافقت على احتضان قمة استثنائية تستهدف دعم العراق في حربه مع إيران فقد كان للموقف الأردني وزن كبير خاصة لدى العراق (الدولة المعنية بالدعم العربي). وهي حليف قوى لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وطال الليل الذي سبق جلسة الختام الصباحية. وتمت طباعة البيان دون أن يشار فيه إلى أن م.ت.ف. هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني.

وساد التوتر في أنحاء فندق بلازا في عمان، خاصة في جناح الرئيس ياسر عرفات.

استدعى الرئيس الوفد الفلسطيني الذي أبلغه أنه حاول المستحيل لكن هنالك أغلبية أغمضت العيون وصمت الآذان لأن موضوع «العراق هو الأهم». وبعد انسحاب الوفد من جناح الرئيس وكانت الساعة قد قاربت منتصف الليل، راح الرئيس يقطع الجناح ذهاباً وإياباً، مطرقاً ومفكراً ويحسب كل الاحتمالات.

وعندما جلس إلى حافة السرير جلست إلى جانبه وسألته عما يفكر به.

فقال لي أنهم يحاولون استغلال حرب العراق لسحب القرار الفلسطيني من يد الفلسطينيين وإعادته للجامعة العربية كما كان قبل العام ١٩٦٧. وهذه كارثة على الفلسطينيين.

وسألته: إذاً ماذا تنوي أن تفعل؟

فأجاب باقتضاب: أفكر بالأمر.

ساد صمت. لم أرد أن أزعجه أو أن اقطع حبل أفكاره. وفجأة خطرت لي فكرة «طاهر المصري». كان طاهر المصري آنذاك وزيراً للخارجية في الأردن ومثّل الأردن في اجتماعات وزراء الخارجية

واللجنة الوزارية لصياغة البيان النهائي للقمة الاستثنائية.

لماذا لا يناقش الرئيس في اللحظة الأخيرة مع طاهر المصري، وزير الخارجية الأردني، مشروع البيان وأهمية أن يتضمن، خاصة في هذه الظروف العصيبة نصاً صريحاً حول وحدانية تمثيل م.ت.ف. للشعب الفلسطيني. وقد ينجح النقاش في حل الإشكال الذي يعصف بالقمة.

طرحت الفكرة على الرئيس الذي وافق عليها، رغم قناعته بأن هذا النقاش لن يغير الموقف.

وبالفعل قام طاهر المصري بزيارة لجناح الرئيس، وناقش معه الأمر وحاول أن يخفف من أهمية النص على وحدانية تمثيل م.ت.ف. للشعب الفلسطيني. وحصل ما توقع الرئيس إذ لم يؤد النقاش إلى تغيير الموقف.

ومرة أخرى راح الرئيس يقطع جناحه ذهاباً وإياباً وهو يفكر بعمق. لقد كان الموقف حرجاً جداً ولم تبق سوى ساعات قليلة على موعد الجلسة الختامية للقمة العربية.

وفجأة توقف الرئيس عن الحركة وقال «سأرتاح قليلاً وسنلتقي صباحاً قبل موعد الجلسة».

وفي الصباح تجمع في جناح الرئيس أعضاء الوفد الفلسطيني للقمة العربية. كان التعب يبدو على وجه الرئيس. فهو حتماً لم يذق طعماً للنوم وبقي يفكر في الأمر حتى الصباح.

لقد كانت مسألة هامة، فالمسؤولية تقع على عاتقه للحفاظ على استقلالية القرار الفلسطيني والدفاع عن حق م.ت.ف. في تمثيل الشعب الفلسطيني. وكان ينظر إليها من هذا المنظار الاستراتيجي.

جلس إلى طاولة الاجتماعات حاملاً ملفاً بيده، وجلس الجميع حوله.

قال بهدوء:

لقد فشلت كل المحاولات لتثبيت وحدانية تمثيل م.ت.ف. للشعب الفلسطيني في البيان الختامي. لذلك لم يبق أمامنا سوى إعلان موقف واضح وصريح ومقاطعة الجلسة الختامية احتجاجاً على عدم نص ذلك في البيان.

دار نقاش سريع بين أعضاء الوفد فيما بقي الرئيس صامتاً يفكر ويده تمسك بالملف.

ما هي إلّا دقائق حتى طلب الرئيس من أعضاء الوفد أن يتوجهوا لقاعة الاجتماع وأن يتخذوا مواقعهم انتظاراً لأية تعليمات. ولم يفصح عما ينوي القيام به.

بقيت في الجناح إلى جانبه. وسألته عما ينوي القيام به فقال:

حضّر نفسك. في حال فشلت محاولتي الأخيرة سنضطر إلى إعلان موقف حازم من هذه المسألة.

واندفع خارج الجناح نحو المصعد الذي أقله للطابق الأرضي حيث قاعة الاجتماع.

وفي الردهة أمام القاعة تحلق رؤساء وملوك وأعضاء وفود حلقات حلقات يتحدثون بانتظار افتتاح الجلسة.

وانضم الرئيس فوراً إلى حلقة كانت تضم الرئيس صدام حسين والرئيس علي عبد الله صالح ورئيس وزراء المغرب الذي كان يرأس وفد بلاده وجلالة الملك حسين والى جانبه السيد عدنان أبو عودة.

بعد تحية الصباح تناول الرئيس من الملف مشروع البيان وخاطب الرئيس صدام حسين حول إغفال النص الرسمي الذي يحدد أن م.ت.ف. هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني.

وأصغى الجميع بانتباه.

رئيس وزراء المغرب قال:

لا بد أن هذا خطأ أو سهو.

حاول الرئيس صدام حسين تخفيف حدة الموضوع.

وتدخل عدنان أبو عودة فأجابه الرئيس بحزم «طالما صاحب الجلالة موجود لا يحق لأحد من طرفه أن يحدد موقفاً».

وألقى الرئيس بقنبلته السياسية قائلاً:

إذا لم ينص البيان الختامي على ذلك فسوف أقاطع جلسة الختام

وأعقد مؤتمراً صحافياً لأشرح الأبعاد الخطيرة لعدم النص على وحدانية تمثيل م.ت.ف. للشعب الفلسطيني.

وأسقط في يد جميع الحاضرين.

حاولوا تلطيف الأجواء. لكن في نهاية الأمر ومع تشبث الرئيس بهذا النص، قال الرئيس صدام حسين وثنّى على كلامه الرئيس اليمني علي عبد الله صالح: دعونا نضيف ذلك للبيان.

ونظر الرئيس صدام حسين نحو جلالة الملك حسين الذي قال على مضض: لا بأس سنضيفها.

لم تدم جلسة الختام طويلاً. فقد قرئ البيان الختامي متضمناً النص الذي أصر عليه الرئيس ياسر عرفات.

ورفعت الجلسة.

ودعي رجال الصحافة لحضور مؤتمر صحافي يعقده العاهل الأردني لتفسير البيان والإجابة عن أسئلة المراسلين.

وصلتني نسخة من البيان الختامي باللغتين العربية والإنجليزية في الوقت الذي وزع على المراسلين والصحافيين الذين حضروا المؤتمر الصحافي الذي عقده العاهل الأردني. وتبين لي أن النص باللغة الإنجليزية لا يتضمن ما تم الاتفاق عليه فيما يتعلق بوحدانية تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية للشعب الفلسطيني.

أسرعت نحو جناح الرئيس أبو عمار حاملاً معي النص العربي

والإنجليزي للبيان الختامي الموزع على الصحافة. ونبهته إلى أن النص الإنجليزي لا يتضمن جملة «الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني بوصفه لمنظمة التحرير الفلسطينية».

نظر إليّ متسائلاً: كيف يمكن أن نصحح ذلك لدى المراسلين الأجانب.

فأجبته: هذا ممكن. فرد: لكن كافة المراسلين يحضرون الآن المؤتمر الصحافي الذي يعقده العاهل الأردني.

فأجبته: دعني أحاول وسأعود خلال دقائق.

قمت بالاتصال هاتفياً بالمركز الإعلامي التابع للقمة العربية وطلبت منهم لأمر ضروري أن يبلغوا مراسل صحيفة «نيويورك تايمز» (وكان آنذاك الصحافي والكاتب توماس فريدمان) أن عليه الاتصال بي في غرفتي بفندق بلازا. وبالفعل حصل. ما هي إلا دقائق حتى كلمني توماس فريدمان هاتفياً. فقلت له إن هنالك أمراً هاماً وأنني أدعوه للحضور إلى جناح الرئيس ياسر عرفات في فندق البلازا.

فقال: سأحضر فوراً. وطلبت منه أن يحضر معه مراسلي «رويترز» و«أسوشيتدبرس» والوكالة الفرنسية.

كان الجميع في جناح الرئيس أبو عمار بعد ربع ساعة.

رحب بهم أبو عامر وأمسك بالبيان بنصيه العربي والإنجليزي وقال لهم: هل قرأتم النص؟ النص الإنجليزي ناقص فهو يتجاهل صفة

م.ت.ف. كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني.

اطّلع الفريق الصحافي على النصين الذين وضعهما الرئيس على طاولة الاجتماع وتمت المقارنة.وتحولت تقارير المراسلين للتركيز على هذه النقطة بالذات. وجاء عنوان «النيويورك تايمز» في اليوم التالي منصباً حول هذه النقطة فقط.

وقرر الرئيس أن يعقد مؤتمر صحافياً بعد منتصف الليل. وكان هذا التوقيت غير مألوف وظن الجميع أن المراسلين لن يتمكنوا من الحضور.

لكن المفاجأة كانت أن قاعة المؤتمر امتلأت بالصحافيين والمراسلين وشرح لهم الرئيس ياسر عرفات الالتباس بين النصين.

وغادرنا إلى صنعاء صبيحة اليوم التالي.

(١٧)

سر الوثيقة التي غيرت برنامج منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٨٨

(١)

في التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٨٧ عقدت الحكومة الإسرائيلية الائتلافية اجتماعاً برئاسة رئيس الوزراء آنذاك شامير.

وكان حزب العمل مؤتلفاً معه وشغل حينها إسحق رابين منصب وزير الدفاع.

جدول أعمال الاجتماع الوزاري كان بنداً واحداً: ما هو النهج الذي يجب على إسرائيل إتباعه إزاء تفاقم خطورة الأوضاع في الأراضي الفلسطينية المحتلة (قطاع غزة والضفة الغربية).

فقد وُلد قمع قوات الاحتلال للفلسطينيين وسوء الأحوال الاقتصادية حالة من الغليان عبرت عن نفسها بمظاهرات وإضرابات وصدامات مع جنود الاحتلال. وكانت تلك الهبّات التي تكاثرت يوماً بعد يوم هبات في مناطق متفرقة. فيومَ يخرج أهالي نابلس مثلاً بمظاهرات حاشدة، تليها مظاهرات حاشدة بعد يومين في مدينة غزة، لتليها بعد أسبوع مظاهرة في مدينة رام الله. لكن السمة العامة للوضع أوحت للحكومة الإسرائيلية بأن خطراً داهماً يتبلور. وعليه كان على الحكومة أن تناقش كيفية مواجهة هذه الهبّات الجماهيرية المتفرقة، التي قد تتحول إلى هبة واحدة في كل مكان من الضفة وغزة، مما يضع إسرائيل وقوات الاحتلال في مأزق.

في ذلك الاجتماع الوزاري طرح نهجان للمواجهة. نهج القبضة الحديدية. ونهج الانسحاب من المناطق الفلسطينية المكتظة بالسكان تفادياً للخسائر، وإحكاماً لقبضة إسرائيل على هذه المناطق من حدودها الخارجية، دون أن يكلف ذلك إسرائيل خسائر بشرية.

تلك الليلة كنت أرافق الرئيس في زيارة له لليمن، وفيما انكبّ هو يطالع بريده الضخم، انهمكت بمتابعة ذلك الاجتماع، سواء من حيث وجهات النظر التي طرحت أو من حيث القرار الذي ستتخذه الحكومة الإسرائيلية بشأن كيفية مواجهة الهبّات الجماهيرية الفلسطينية في الضفة وقطاع غزة.

كان شمعون بيريز (الوزير بوزارة شامير) يقترح إخراج القوات الإسرائيلية من المناطق ذات الكثافة السكانية الفلسطينية، فيما اقترح

شامير ووزراء الليكود إتباع سياسة القبضة الحديدية لقمع المظاهرات وإخماد الهبات الجماهيرية.

عند منتصف الليل بثت إذاعة إسرائيل خبراً مفاده أن الحكومة الإسرائيلية قررت استخدام القبضة الحديدية لمواجهة الهبات الجماهيرية في قطاع غزة والضفة الغربية، وأن المجلس كلف وزير الدفاع باتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لتطبيق القرار.

أسرعت نحو مكتب الرئيس وأبلغته بقرار الحكومة الإسرائيلية. نظر إليّ مفكراً. فسارعت للقول بأن هذا يعني المواجهة الشاملة.

هز رأسه موافقاً. فسألته: ألا تعتقد أن تنسيق العمل الجماهيري في كل مكان في آن واحد سيصعّب الأمر على حكومة شامير؟

أجاب: هذا صحيح ولكن هل يتحمل شعبنا ذلك. فمثل هذه المواجهة الشاملة تتطلب إعداداً وتحضيراً. إذ قد تعني المواجهات عدم ذهاب المواطنين إلى أعمالهم أي أن يجوعوا. الموضوع كبير وحسّاس وعلينا أن نزن الأمور بدقة وعلينا استشارة الأخوة في الداخل.

أجرى الرئيس عدة اتصالات بإخوة لنا في قطاع غزة والضفة الغربية مستفسراً منهم عن الوضع وإمكانيات الدفاع عن النفس بعد قرار الحكومة الإسرائيلية.

استنفر الرئيس قواه كعادته عندما يواجه أمراً هاماً أو خطيراً،

واستدعى قبطان الطائرة وأصدر له تعليمات بأن يكون جاهزاً هو والطائرة في صباح اليوم التالي.

فقد قرر الرئيس مغادرة صنعاء والتوجه إلى مكان آخر ليتابع هذا التطور الخطير. واستدعى أبا فراس أحد مساعديه المقربين جداً وطلب منه إبلاغ أعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية بأن يستعدّوا للسفر في اليوم التالي لحضور اجتماع مهم وطارئ للقيادة الفلسطينية وأنهم سيبلغون بوجهة السفر غداً صباحاً.

وانكبّ على تل من الأوراق يتابع قراءتها، ويدوّن ملاحظاته أو تعليماته أو أوامره على كل واحدة منها.

جلست أراقبه. كنت شبه متأكد من أن عقله كان يحسب ويخطط في نفس الوقت الذي كان يقرأ فيه البريد، إنها تطورات خطيرة وقد تكون حاسمة. وقد تشكل فرصة لنهوض وطني جديد بعد كل المعارك التي خاضها منذ غزو الجيش الإسرائيلي للبنان في حزيران/يونيو من العام ١٩٨٢، مروراً بمعارك طرابلس لبنان، وخروجه منها ومعارك مخيمات بيروت في العامين ١٩٨٤ و١٩٨٥.

وفي صبيحة اليوم التالي توجهنا لمطار صنعاء وكان كل شيء جاهزاً. في المطار أبلغ الرئيس قبطان الطائرة بأننا سنتوجه إلى بغداد. وبدون أية رسميات سرنا نحو الطائرة التي سرعان ما أقلعت باتجاه بغداد.

راح ينظر من النافذة نحو السماء مفكراً، ثم راح يهز ساقه اليمين،

وكان تعبيراً عن قلق يشعر به. فقد كانت هذه عادته عندما يشعر بالقلق ويستغرق في التفكير. وفجأة ارتدّت عيناه عن النافذة وأوقف هز ساقه وطلب من الأخوة المرافقين إحضار ملفاته.

وضعت الملفات أمامه على الطاولة الصغيرة وانكب مرة أخرى على الأوراق قراءة وتعليقاً وتعليمات. واستمر على هذا النحو حتى أعلن القبطان أننا سنهبط في مطار بغداد.

كنت متأكداً مرة أخرى أن عقله كان منصباً على التفكير بأبعاد القرار الإسرائيلي، طوى الملفات وسلمها للأخوة المرافقين وشد حزام الأمان وأغمض عينيه باسترخاء عميق.

وتوجهنا فوراً نحو الفيللا التي كانت مخصصة للرئيس لتكون مكتباً ومنامة في منطقة الجادرية ببغداد.

صافح الرئيس الموجودين وتوجه فوراً لمكتبه وكأنه لا توجد لديه لحظة للإضاعة، وأصدر تعليماته لإبلاغ أعضاء القيادة للتوجه فوراً إلى بغداد. وتم تنفيذ الأمر.

توجهت إلى غرفة المكتب الصغيرة المجاورة لمكتب الرئيس. ولحق بي على الفور بعض الإخوة، ضباطاً ومدنيين يسألون: ماذا حصل؟

ما الذي يقلق الرئيس. لقد لمس كل واحد منهم أن الرئيس كان في حالة استنفار ذهني ويتصرف كأن الحرب على الأبواب.

فقلت لهم: إنه قرار الحكومة الإسرائيلية بشن الحرب على الشعب الفلسطيني، وهو تطور خطير. والرئيس يفكر بالسبل الأنجع لمواجهة هذه التطورات الخطيرة، لذلك دعا لاجتماع عاجل للقيادة.

نظر بعضهم إلى بعض راغباً بمزيد من الشرح. فشرحت لهم ــ باقتضاب ــ الأبعاد المحتملة لقرار الحكومة الإسرائيلية اتّباع سياسة «القبضة الحديدية» في مواجهة غليان الشارع الفلسطيني.

بعد أن تأكد الرئيس من كافة الترتيبات لاجتماع القيادة الطارئ طلب الملفات وانكب مرة أخرى على الأوراق.

مركزية القرار كانت الصفة الغالبة على عمل منظمة التحرير الفلسطينية، ولذلك تمتلىء ملفات الرئيس بالرسائل والمذكرات والتقارير الواردة من كافة دوائر منظمة التحرير الفلسطينية ومن سفاراتها في العالم ومن الدوائر المحيطة بمكتب الرئيس. كما تمتلئ بالطلبات والشكاوى ورسائل من كل الأنحاء تطلب من الرئيس الموافقة على صرف مساعدات استثنائية لقرى أو مدن أو لعائلات متضررة.

أسلوب العمل هذا كان يستهلك جزءاً كبيراً من وقت الرئيس. لكنه كان يحرص على إعطاء المزيد من الجهد (وفي كثير من الأحيان حتى ساعات الفجر الأولى) حتى لا تتأخر الردود على كل ما ورد له من شتى أنحاء العالم ولا سيما من الأرض المحتلة.

لكن هذه المركزية الشديدة كان لها سلبياتها الكثيرة أيضاً، ما عرقل في بعض الأحيان عمل بعض الدوائر.

كانت زيارات الرئيس للعديد من الدول فرصة للجالية الفلسطينية، أو للسفارات أو المؤسسات الفلسطينية، إذ يتوافد جميع من لديهم طلبات على مقر الرئيس للحصول على توقيعه الفوري بدلاً من توجيه تلك الطلبات عبر القنوات العادية التي كانت تستهلك وقتاً طويلاً وثميناً.

ورغم العقبات والتأخير الذي سببه الأسلوب المركزي، استمر أسلوب العمل على ما هو عليه.

في تلك الأثناء كنت قد شرعت في قراءة تقرير خاص كتبه اللورد ونتشلسي ووجّهه لرئيسة وزراء بريطانيا مارغريت ثاتشر، حذر فيه من خطط الحكومة الإسرائيلية لارتكاب مجازر ضد الفلسطينيين وخصوصاً في قطاع غزة. وطالبها بالعمل على منع هذه المجازر بكل السبل الممكنة.

كان التقرير دقيقاً وخطيراً. لذلك قمت باستعراضه بشكل سريع أمام الرئيس واقترحت الاتصال باللورد البريطاني لشكره أولاً على تنبيهه من مجازر تخطط لها الحكومة الإسرائيلية، وللحصول على أية معلومات لم ترد في تقريره.

وتم ذلك. وشعر الرئيس مجدداً بحساسية الأمر وخطورته وراح يفكر.

استند إلى كرسيه ينظر للحديقة عبر نافذة مكتبه. وبعد لحظات استدار مرة أخرى وانكب على الأوراق وكأنه يريد أن ينهي هذه الملفات قبل أن يبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة الدفاع عن النفس

في وجه الهجمات الإسرائيلية المنتظرة. فقد كانت مهمة من نوع آخر.

في ساعات الظهيرة تناول الغداء. كان يأكل دون شهيه تذكر. وأنهى الوجبة بسرعة وانسحب نحو غرفة نومه.

هذه عادة الرئيس التي لا تتغير، إذ لا بد له من أخذ قسط من الراحة بعد تناول الغداء (قيلولة) ليستمد منها نشاطاً متجدداً لمتابعة العمل حتى ساعات الفجر.

وانصرف الجميع وساد الهدوء.

الرئيس ياسر عرفات يكره البرد ويستلذ بالدفء. وعندما ينام يحرص على أن يتغطى بعدة بطانيات حتى في أيام الصيف. وكان يقول دائماً أن هذا هو النوم الصحي.

وكنا نعاني في كثير من الحالات عندما يأمر بوقف عمل المبردات، في الأيام ذات الحرارة العالية التي لا تطاق ـ خاصة في مدينة بغداد خلال أشهر الصيف. كان ذلك يتم فقط عندما يخلد للنوم أو للراحة في غرفة نومه. أما أثناء ساعات العمل فقد كانت أجهزة التكييف تعمل. المهم لديه الدفء أثناء نومه.

مع ساعات المساء الأولى بدأ أعضاء اللجنة التنفيذية بالوصول إلى مقر الرئيس كل من البلد التي يقيم فيها، أو كان يتابع مهمة فيها.

والتأم شمل اللجنة التنفيذية ليلاً (حوالي التاسعة) وافتتح الرئيس الاجتماع بتلخيص آخر التطورات السياسية، مركزاً على قرار الحكومة الإسرائيلية، طالباً من اللجنة التنفيذية أن تبحث في ما يمكن فعله لمواجهة المخاطر.

ودار نقاش طويل كالعادة. وأدلى أعضاء القيادة كل بتحليله وأفكاره. بعد منتصف الليل بقليل اقترح الرئيس تشكيل لجنة لوضع برنامج عمل سياسي وإعلامي وميداني لمواجهة الموقف، وشكلت اللجنة بعد موافقة اللجنة التنفيذية. واتفق على عقد اجتماع صباحي لبحث الأفكار والاقتراحات التي ستضعها اللجنة. وغادر الجميع كل إلى الفندق الذي ينزل فيه. وتابع الرئيس عمله حتى الفجر.

لم يطل انتظار الحكومة الإسرائيلية لتنفيذ قرارها، فقد بدأت عدوانها على الشعب الفلسطيني في اليوم التالي أي بداية شهر كانون الأول/ ديسمبر من العام ١٩٨٧.

وصعّدت من بطشها بشكل متدرج بعد أن دفعت نحو الضفة الغربية وقطاع غزة تعزيزات عسكرية ضخمة شملت الدبابات والآليات والجنود. خلال ذلك كان الرئيس منهمكاً في ترتيب اللجان التي ستتابع المواجهة وغرف العمليات المختلفة سواء في بعض البلدان العربية أو الأوروبية. وأقام شبكة اتصالات واسعة لربط كافة مناطق الضفة والقطاع بالقيادة خارج فلسطين.

وبدأت التقارير تصله سراعاً. ولم يفصل بعضها عن بعض، أحياناً، سوى دقائق. كان يلم بكافة تفاصيل ما يدور في كل

منطقة من المناطق ويصدر التعليمات اللازمة بشأن كل صغيرة وكبيرة.

حتى تلك اللحظة كان الرئيس قلقاً من قدرة الشعب على تحمل معركة من هذا النحو لمدة طويلة وقد تصبح مفتوحة.

وفي الثامن من كانون الأول/ديسمبر بعد أن استكملت الآلة العسكرية عدتها، قامت بارتكاب مجزرة بدم بارد قتلت خلالها ثمانية عمال فلسطينيين من قطاع غزة وجرحت العشرات. وهذا ما كان يتوقعه اللورد ونتشلسي في تقريره الذي قدمه لرئيسة وزراء بريطانيا قبل أكثر من شهر من ذلك التاريخ.

واعتبر الرئيس هذه المجزرة ناقوس خطر حقيقي. فقد ارتكبت ضد عمال عُزّل، يذهبون للعمل في إسرائيل بتصاريح إسرائيلية، أي تحت الحماية الإسرائيلية، رغم ذلك ارتكبت القوات الإسرائيلية المجزرة.

والخلاصة كانت أنه لا يوجد خيار سوى المواجهة والدفاع عن النفس في كل مكان، طالما أن الاعتداءات الإسرائيلية ستستمر، حسب قرار الحكومة.

كانت هذه نقطة انطلاق الانتفاضة الوطنية الشاملة. وعمم الرئيس تعليماته على جميع اللجان المسؤولة في القطاع والضفة، بالتنسيق كي تكون الهبّات الجماهيرية متواصلة ومترابطة في كل أنحاء الوطن المحتل وألا تكون متقطعة.

وفي الوقت ذاته أصدر رسالة يومية لتعميمها على كافة مواقع منظمة التحرير في العالم تتضمن خلاصة المعلومات عما يجري في الأرض المحتلة وتعليمات مفصلة حول التحرك السياسي والدبلوماسي والإعلامي اللازم لمواكبة ما يدور. ولحشد التأييد العالمي للشعب الفلسطيني في مواجهة القبضة الحديدية الإسرائيلية.

كما سبق أن أشرت، كانت هذه التطورات فرصة جديدة لإعادة الوزن لمنظمة التحرير الفلسطينية بعد أن فقدت الكثير منه منذ غزو لبنان عام ١٩٨٢.

هكذا فكر الرئيس. ولذلك أراد أن يعطي هذه المواجهة كامل الزخم الإعلامي والسياسي لتعود م.ت.ف. إلى تثبيت نفسها على الخريطة السياسية للشرق الأوسط.

ودب النشاط في كل أنحاء العالم ابتداء من الأمم المتحدة، مروراً بكل العواصم العربية والجمعيات غير الحكومية، وجمعيات حقوق الإنسان، إلى العواصم العربية بطبيعة الحال، حيث هبت الجماهير العربية لتأييد الشعب الفلسطيني.

وتصاعد الموقف بشكل سريع. وغطت أجهزة الإعلام وشاشات التلفزيون البطش الإسرائيلي بصوره المختلفة. وازداد التأييد العالمي للفلسطينيين.

وبعد شهر، أي في بداية كانون الثاني/يناير بدأ الرئيس بطرح مواقف سياسية، خلال مقابلاته الصحافية والتلفزيونية، من شأنها إظهار عقلانية منظمة التحرير الفلسطينية وبراغماتيتها، فصرح أكثر من مرة

أن «م.ت.ف» تقبل قرار مجلس الأمن ٢٤٢ وأن م.ت.ف. ترى أن الحل يجب أن يكون سياسياً.

وأن م.ت.ف. تسعى لإيجاد حل للصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي. واستحوذت هذه التصريحات على اهتمام العواصم الأوروبية والدوائر الغربية إجمالاً. لقد أصبح واضحاً أن صمود الفلسطينيين في غزة والضفة ودفاعهم الباسل عن أنفسهم أعطى م.ت.ف وقيادتها في الخارج دعماً لا حدود له.

وحاولت بعض الجهات في تلك الفترة ترويج أخبار وتحليلات هدفها الفصل بين «م.ت.ف» والانتفاضة في فلسطين المحتلة، فمنهم من روج فكرة: «الانتفاضة العفوية» ومنهم من روج فكرة تحرك الجماهير تحت قيادة جديدة في فلسطين. لكن المحاولات هذه باءت بالفشل وأصبح واضحاً أن «م.ت.ف» تقود الانتفاضة داخل الأرض المحتلة. ولا شك أن الدعم المادي والسياسي والمعنوي الكبير الذي انهال على فلسطين المحتلة من «م.ت.ف» لعب دوراً أساسياً في تثبيت ذلك. وشمل هذا الدعم كافة المستشفيات والجامعات والمدارس والبلديات.

التقط ياسر عرفات الفرصة وراح يعمل جاهداً كي لا تفلت من يده مهما كانت الصعوبات. وبدأ بتحريك منظمات دولية كمنظمة الوحدة الإفريقية، والدول الإسلامية، وجامعة الدول العربية والأمم المتحدة. وقام هو بزيارات خاطفة لبعض العواصم العربية لحشد الدعم والتأييد.

انقضى شهران على المواجهات الدامية داخل الأرض المحتلة. وكلما

مضى الوقت ازداد الفلسطينيون شجاعة في مواجهة العدوان، وراحوا يبتكرون وسائل بدائية في الدفاع عن أنفسهم.

وأطلق العالم على الانتفاضة أسماء عديدة منها «ثورة أطفال الحجارة». لوصف شجاعة الأطفال الفلسطينيين الذين كانوا يواجهون الدبابات الإسرائيلية بالحجارة، أبسط أسلحة الدفاع عن النفس وأكثرها بدائية.

وتمكنت «م.ت.ف» بقيادة ياسر عرفات من مراكمة إنجازات سياسة هامة تحولت إلى زخم دولي ضاغط. وأعطى صمود الشعب داخل الأرض المحتلة، الرئيس ياسر عرفات، هامشاً واسعاً للمناورة السياسية. ومكّنه من الحديث علناً عن حل سياسي لم يكن وارداً آنذاك في برنامج منظمة التحرير. لكنه كان يعبر عن هذه المواقف على شكل متفرقات وليس من خلال طرح تصور شامل.

لكن الأساس الذي تمكنت الانتفاضة الرئيس من تثبيته هو أن تقبل «م. ت. ف» بقراري ٢٤٢و٣٣٨ وبحل سياسي عادل للقضية الفلسطينية.

استرعى ذلك انتباه العديد من الدوائر السياسية الدولية التي راحت تتصل لتستفسر حول الترجمات العملية لهذه المواقف. وبطبيعة الحال لم تثر تصريحات الرئيس جدلاً في الساحة الفلسطينية الداخلية أو العامة، لأن الانتفاضة أعطته سنداً وغطاء لا يثمّنان في تلك الأيام.

كان مهندساً بارعاً، يعيش الأمور ويزنها بدقة ويبدي مرونة سياسية

بقدر ما يمده صمود الشعب الفلسطيني من قوة ودعم.

وبدأت في شهر آذار/مارس، الرسائل السياسية المباشرة وغير المباشرة تتوارد طالبة بلورة برنامج سياسي وموقف سياسي عملي يترجم إعلان الرئيس الموافقة على قرار ٢٤٢ وإيجاد حل سياسي.

عندها بدأت تتبلور في ذهني ضرورة طرح تصور لحل سياسي بشكل شمولي والعمل مع كافة الجهات الدولية لإكساب هذا التصور دعماً شاملاً.

وبذلك يتحول هذا التصور إلى سلاح فعّال في وجه سياسة العدوان والتوسع والاحتلال الإسرائيلي.

سر الوثيقة (٢)

كان واضحاً لي أن الرئيس الذي كان قلقاً في بداية الأمر حول إمكانية تحمل الشعب ويلات المواجهة لفترة طويلة، أصبح أكثر ثقة بقدرة الشعب على التحمل والمتابعة من أجل حريته.

وهذا ما شجعه أكثر لمرافقة هذه القدرة بتحرك سياسي يعطي الانتفاضة هدفاً ملموساً قابلاً للتحقيق.

ما كان يريد أن تذهب تضحيات شعب بأكمله دون إنجاز سياسي. وإلّا تحولت كل هذه المواجهة إلى مواجهة عدمية.

وحتى يصل الشعب إلى هذا الهدف نتيجة تضحياته، لا بد من

أن يكون الهدف قابلاً للتحقيق ضمن موازين القوى الإقليمية والدولية.

كان ماهراً في طرح المواقف السياسية المرنة، لكنه كان يطرحها قسطاساً لقسطاس. بحيث يثير الاهتمام لدى الدوائر المتنفذة في الغرب دون أن يشفي غليلها بطرح تصور سياسي كامل.

كان يريد أن يتأكد من الثمن الذي سيحصل عليه الفلسطينيون مقابل مرونة كاملة وسياسة واقعية تأخذ بعين الاعتبار الواقع القائم والحد الأدنى المتفق عليه دولياً.

الهامش الذي استخدمه الرئيس ياسر عرفات لطرح أفكار سياسية جديدة، كان يتوسع يومياً بدعم من صمود الشعب في وجه العدوان. لكنها لا تطبق دائماً لأن برنامج منظمة التحرير الذي كان ساري المفعول حتى تلك اللحظة، كان باستمرار عامل تضييق لذلك الهامش. ولم يكن يحصل ذلك من خلال احتجاج أو رفض أعضاء اللجنة التنفيذية للمواقف التي كان عرفات يعلنها يومياً، بل من خلال شعوره بأنه مسؤول عن التزام م.ت.ف. بذلك البرنامج.

عرفات من الشخصيات الفريدة والمميزة من كل النواحي. شخصية مميزة في إيجابياتها وشخصية مميزة في سلبياتها إن جاز التعبير.

عرفات لو لم يكن فلسطينياً وصاحب قضية لبحث عن قضية يكد ويجتهد لينتصر فيها.

وحتى عندما كان رجل أعمال كمهندس يتعهد شق الطرق والتعمير في الكويت، كان الانتصار في عمله هدفاً.

لشخصية كعرفات المهم أن ينتصر، ويكون دائماً على استعداد للعمل ليل نهار، مهما كانت الظروف. ويكون دائماً على استعداد لتحمل أصعب الظروف لإنجاز المهمة وتحقيق النجاح والانتصار.

لكن الأقدار شاءت أن يكون ياسر عرفات فلسطينياً، فتركزت كل مواهبه، كل طاقته، وكل قدراته على التحمل حول قضية واحدة هي قضية فلسطين، ومع الزمن تحولت قضية فلسطين إلى قضية شخصية لدى عرفات وليست فقط قضية شعب يناضل من أجل الحرية. لقد تقمص ياسر عرفات القضية وتقمصته القضية. لا يأبه لمال أو جاه أو سلطان بل ليسجل التاريخ أن ياسر عرفات انتصر ونصر شعبه، وقاده نحو الحرية والاستقلال. وأن العرب والمسلمين يستطيعون الصلاة بحرية في المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

من هذا المنطلق كان ياسر عرفات يعمل طوال الوقت ويفكر، ويهتدي بما كان يفكر ويعمل به النبي محمد (صلعم) «الحرب كرّ وفرّ».

المواجهة المواجهه عندما تكون الظروف مواتية. وعندما لا تكون: «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها».

وياسر عرفات لا يخاف الموت. فهو مؤمن، وعندما يتخذ قراراً بالمواجهة يعلم تمام العلم أن هذا سيضع حياته وحياة عشرات

الآلاف في خطر. لكنه لا يأبه لذلك لأنه يعلم أن ثمن الانتصار... ثمن الحرية فادح.

وإذا سقط شهيد يرى في ذلك لبنة تضاف لصرح الحرية. وإن سقط أكثر يرى مدماكاً يقام في ذلك الصرح.

ويطبق عرفات هذه الخصال على السياسة والحرب والسلم.

ولا يرفّ له جفن لقصف أو إطلاق نار. فقلبه وعقله مرتبطان بعمق بالانتصار... مهما كان الثمن.

وهو ثعلب في حقل السياسة. يستمع ويصغي ولا يعلق. ويترك عقله يحلل. ويلعب الشطرنج في دماغه أمام عدة منافسين. ويحرك الجنود والفرسان والقلاع ثم يخطط كيف سينتصر. وعندما يرى أن العدو يكاد يأكل قلاعه وجنوده وفرسانه يلجأ لمناورة الهدوء والسكون.

فيرتبك العدو. وتبقى عينه ساهرة تبحث عن فجوة سببها ذلك الارتباك، وعندما يراها ينقضّ كصقر ليخلق من الفجوة حفرة.

لكن ياسر عرفات في الوقت ذاته إنسان ككل البشر. يحس بالبرد. يخاف. يتردد. يقلق. يغضب. يحب.

غير أنه سرعان ما يعود إلى ما يشبه الصلب البارد، وهذا ما يميزه.

إن أحبّ فحبُّه مؤقت... وإن كره فكرهه مؤقت. فكل العواطف السلبية أو الإيجابية عواطف مؤقتة لديه.

إن تف بالغرض كان به وإن لم تف غادرها هو.

نادراً ما ينفعل. فهو يسيطر بطريقة عجيبة على أعصابه. لكنه عندما ينفعل يتحول إلى بركان يمكن أن يطلق حمماً.

علمته الحياة كيف يكبت عواطفه. وكيف يبتسم في وجه أحلك المواقف والظروف. لكن تراكم القهر يؤدي أحياناً إلى الانفجار.

هذا هو عرفات، الذي كان جالساً في مكتبه ببغداد في نهاية شهر آذار/مارس من العام ١٩٨٨ يتابع آخر تطورات الوضع في فلسطين المحتلة محاولاً رسم طريق المستقبل.

كان يرى بوضوح حجم الفرصة السياسية المتاحة له والمسنودة بصمود شعب بأكمله. لكنه كان يتردد خشية من حسابات خاطئة.

كان يدرك أنه لا بد من إعلان مبادرة سياسية شاملة، لكنه تردد خشية تخطي برامج وقرارات المؤسسات الديموقراطية.

كنت أراقبه، أراقب انفعالات وجهه وكأنني أقرأ ما يجول بذهنه.

قررت أن أخرج عن صمتي فقلت:

«أعتقد يا أخي أبو عمار أنه آن الأوان لنطلق مبادرة سياسية متكاملة تضع إسرائيل والغرب في موقع الدفاع».

وكلمح البصر قال: «أية مبادرة؟».

فقلت: «مبادرة سلام، فنحن الآن في موقع قوي، فالعالم كله يؤيد شعبنا وحتى الموالين لإسرائيل يرون في ما تفعله إسرائيل جريمة. والكل يتجه لضرورة إيجاد حل سياسي للصراع».

لقد قالوا لنا عند خروجنا من بيروت «باي باي «م.ت.ف». إلى الوداع يا منظمة التحرير. وأنت أجبتهم: أنا متوجه للقدس. إذاً لنتوجه للقدس».

وأجابني بصوت عميق: ماذا تقترح؟

قلت له: أن أضع كل ما عبرت عنه من أفكار سياسية خلال أحاديثك في الشهرين الماضيين ويمكن أن يصاغ في إعلان سياسي في جوهره يطرح خطاً جديداً. أي مبادرة لصنع السلام على أساس حل سياسي.

فأجاب: ماذا تقترح؟

قلت: نستطيع أن نجمع هذه الأفكار، والمواقف ونحولها إلى مبادرة متكاملة ثم نعمل على نشرها في الصحف الأميركية والأوروبية باسم ياسر عرفات.

وهكذا نستطيع أن نعيد الكرة لملعبهم وتعود «م.ت.ف» لاعباً أساسياً في الخريطة السياسية للشرق الأوسط.

كانت الساعة قد شارفت على الرابعة صباحاً.

قال بهدوء: «اكتب وسأرى ذلك وسأقرر بعدها».

وهبّ واقفاً وتوجه لغرفة نومه.

رافقته حتى باب غرفته وألقيت عليه التحية وتوجهت إلى مكتبي الصغير. ورحت أفكر.

إنه يعلم أنها فرصة. لكنه يتردد فلديه حسابات كثيرة.

حسناً، سأصوغ تلك الآراء والأفكار في إعلان سياسي متكامل. وستشكل تلك الأفكار والآراء المترابطة مبادرة جديدة لا شك ستستحوذ على اهتمام العالم.

وذهبت للفراش لأنال قسطاً من الراحة.

صياغة وثيقة سياسية كهذه لم تكن سهلة. فالمطلوب إظهار أكبر قدر من المرونة والتعبير عن موقف جديد يسعى للسلام وفي الوقت ذاته يتطلب الحفاظ على الثوابت الوطنية.

وكون الاقتراح أن تصدر هذه الوثيقة باسم الرئيس ياسر عرفات أضاف صعوبة على صياغتها. وحتّم انتقاء الكلمات بدقة لتحقيق الهدفين المذكورين معاً.

الرغبة والاستعداد للعمل من أجل إقامة سلام دائم والحفاظ على الثوابت الوطنية. استغرقت صياغة الوثيقة السياسية أكثر من أسبوع. وكنت خلالها على اتصال دائم بعدد من الإخوة الذين يشاطروني الرأي، وقمت بإرسال النص الأولي لهم طالباً ملاحظاتهم واقتراحاتهم بشأن أي تعديلات يرونها ضرورية، لتحقيق الهدف من

هذا الإعلان السياسي. واستهلكت هذه الاستشارات وقتاً طويلاً تخللته مكالمات تلفونية وتبادل الرسائل بالفاكس.

ومع بداية شهر نيسان/أبريل تبلور الإعلان. فأرسلته للأخ فواز ناجية «مدير ميد إيست ميرور» في لندن ليجري المراجعة النهائية. فقام بعمل رائع جعل الإعلان جاهزاً للنشر والتأثير في الدوائر السياسية المهتمة بالشرق الأوسط واستقراره وإقامة السلام الدائم.

وكان عليّ أن أعرض ما تم إعداده على الرئيس كخطوة نهائية قبل إرساله للنشر. أبلغت الرئيس بأننا أنجزنا المهمة، ولم يتبق سوى إطلاعه عليه حتى يبث على العالم. فأجابني بسرعة: لا يوجد وقت الآن. جهز نفسك للسفر فنحن متوجهون إلى إثيوبيا لحضور القمة الأفريقية.

توجهنا إلى أديس أبابا وانغمسنا في أعمال القمة بحيث لم يكن هناك أي مجال ليطلع الرئيس ويقرأ ما يحمله ذلك الإعلان أو تلك الوثيقة.

ومع انتهاء القمة قرر الرئيس أن نتوجه إلى تونس قبل عودتنا إلى بغداد لمتابعة العمل هناك. وفيما نحن نتهيأ للتوجه إلى تونس قال لي الرئيس ــ مشيراً إلى الصوراتي (عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية): دع أبو عمر يقرأ ما أعددت. وطلب من جمال الصوراني أن يقرأ بإمعان وأن يبلغه رأيه لاحقاً.

وبالفعل أمعن جمال الصوراتي في التدقيق بكل كلمة وجملة. وعندما انتهى نظر إليّ قائلاً: هذه قنبلة ستحدث زلزالاً.

أجبته بسرعة: وهذا هو المطلوب.

نظر إليّ مرة أخرى قائلاً: إذا قررت نشر هذا يجب أن تأخذ حذرك جيداً. فكثيرون سيعتبرون هذه الأفكار خطيرة وربما.... وتردد قبل أن يقول: خيانة.

فأجبته بسرعة: ما هو رأيك أنت؟

قال: «خطوة هجومية هامة».

أطلع جمال الصوراتي الرئيس على مضمون الإعلان (الذي كان يعرفه سلفاً) ونصح بألا ينشر باسمه إن أجاز نشره.

وفي تونس قال لي الرئيس: انشره باسمك فأنت الذي صغته. فسألته: ألا تريد قراءة ما صغت؟ فأجاب بسرعة «لا داعي، انشره باسمك» وانتهى عند هذا الكلام كل ما كان بالذهن. فاسم ياسر عرفات هو المهم وهو الذي يولد ردود الفعل الدولية التي استهدفناها. وهو الذي يثير الاهتمام لدى القوى الدولية المؤثرة في صناعة القرار في الشرق الأوسط.

لكن قراره هو الحاسم في نهاية الأمر.

كنا قد دخلنا شهر أيار/مايو، وكان معلوماً أن قمة ختامية حاسمة ستعقد في موسكو بين الرئيس ريغان والرئيس غورباتشوف لتوقيع اتفاق نهائي للحد من انتشار الأسلحة النووية، وجدولة تدمير مخزون هذه الأسلحة لدى البلدين وإعلان انتهاء الحرب الباردة.

فقد واجه الزعيمان في قمة ريكيافيك المشاكل التي تعترض الاتفاق. وتمت إعادة بحث الأمر في مالطا وحصل تقدم بسيط بالرغم من تصريحات غورباتشوف آنذاك.

وكان من المنطقي والطبيعي أن يفكر أي محلل أو متتبع لهذه القمم، بأن الزعيمين الأميركي والسوفياتي سيناقشان تحت بند إنهاء الحرب الباردة كافة النقاط الساخنة وكيفية إيجاد حلول لها، وكان آنذاك على رأس تلك البؤر الساخنة أفغانستان والوجود العسكري السوفياتي فيها والشرق الأوسط.

والخطة كانت تقضي أن تنشر «م.ت.ف». إعلاناً سياسياً قبل هذه القمة حتى يصبح تصورها مطروحاً على جدول أعمال الزعيمين كحل سياسي للصراع في الشرق الأوسط.

لكن رفض الرئيس ياسر عرفات نشر تلك الوثيقة السياسية باسمه قلل كثيراً من فرصة إدراج «الوثيقة ـ المبادرة» على جدول أعمال الزعيمين.

رغم ذلك، ولقناعتي بأهمية هذا الإعلان الذي يعطي هدفاً ملموساً قابلاً للتحقيق استناداً للقرارات الدولية، رحت أعمل لنشر هذا الموقف السياسي في صحف ذات تأثير على الرأي العام وعلى البيت الأبيض.

جرأة ياسر عرفات في اتخاذ مواقف سياسية شجاعة لا تعني إطلاقاً أنه لا يدقق ولا يتفحص بإمعان المواقف أو ردود الفعل المتوقعة.

وهذه إحدى ميزات تلك الشخصية العملاقة. فهو حريص كل الحرص دائماً على الاستماع للآراء، على اختلافها، ليتمكن في النهاية من وزن المواقف بدقة. وفي كثير من الأحيان، عندما يصل إلى نتائج تدل على أن بعض المواقف قد تثير جدلاً واسعاً وضجة كبيرة يبتعد هو ويطلق ما هو مقتنع به عبر شخص آخر. فإن نالت الأفكار نجاحاً فالنجاح له وإن لم تنل فالخسارة للشخص. البعض يسمي هذا الجانب من شخصية الرئيس ياسر عرفات «إطلاق بلالين اختبار» والبعض يسمي ذلك «إطلاق السمكة الكشافة» أي تلك التي تكشف الطريق لرف السمك.

وأعتقد أن قراره بنشر تلك الوثيقة باسمي كان من باب إرسال مستكشف للطريق. أي في حقيقة الأمر «كبش الفداء» ولذلك رفض الاطلاع على الوثيقة أو قراءتها. ذلك أنه في حال حدوث ردود فعل سلبية على أفكارها ومضامينها سيكون صادقاً إذا قال: أنا لم أطلع عليها ولم اقرأها. وهي وجهة نظر لصاحبها. وإن هذا هو جزء من ديموقراطيتنا.

«الواشنطن بوست» صحيفة اميركية ذات انتشار واسع وتأثير في الدوائر السياسية في واشنطن. ولذلك ركزتُ على هذه الصحيفة لنشر مقال الإعلان ــ كي يصل بأسرع وقت لمكاتب المسؤولين الأميركيين.

إضافة لذلك، كانت تربطني صداقة قديمة برئيس تحريرها بن برادلي وبمراسلها في الشرق الأوسط جون راندال. الاتصال مع بن برادلي كان صعباً (وهو عادة أصعب من الاتصال برئيس الولايات المتحدة) ولذلك اتصلت بجون راندال الذي كان يقيم في باريس آنذاك،

وطلبت منه المساعدة في نشر المقال على صفحات «الواشنطن بوست». وأعلمني راندال أنه سيغادر باريس إلى تونس في اليوم التالي وسيأتي لزيارتي لبحث الموضوع.

وبالفعل زارني في مكتبي في اليوم التالي، وبعد أن شرحت له أهمية نشر المقال قبل ٢٩ أيار/مايو، قال لي إنه غير مخول بالتدخل في صفحات الرأي فهذه الصفحات لها محررها المستقل. إضافة إلى أن محررها في تلك الفترة كان من كبار مؤيدي إسرائيل.

وخلص للقول بأن أضمن طريقة هي أن نرسل لرئيس التحرير بن برادلي رسالة إلكترونية لنطلب منه التدخل لأنه الوحيد الذي يستطيع أن يطلب من محرر صفحات الرأي نشر مقال معين في وقت معين.

ورغم رد بن برادلي الإيجابي على الرسالة، قرر محرر صفحات الرأي عدم نشر الموضوع لأنه لا يخدم مصلحة إسرائيل.

لقد فوّت علينا الفرصة. وأصابني ذلك بإحباط شديد. لكنني لم أستسلم. كان لا بد من نشر هذا المقال في الصحف الأميركية الكبيرة. وفكرت ملياً في الأمر ووصلت إلى حل أنهى حالة الإحباط ليحل محلها استنفار لمتابعة العمل.

فقد كان مقرراً أن يلتقي الملوك والرؤساء العرب في قمة هامة في الجزائر في الخامس من حزيران/يونيو من عام ١٩٨٨.

ومن الطبيعي أن يتوجه للقمة وفد فلسطيني كبير. فبالإضافة إلى

حجم الوجود السياسي الفلسطيني الكبير في الجزائر، كانت تونس المقر المؤقت للقيادة الفلسطينية «على مرمى حجر» من العاصمة الجزائرية مما يسهل ذهاب عدد كبير من المساعدين لينشطوا خارج قاعات القمة العربية.

اتصلت بأحد المسؤولين الجزائريين لأسأله عن حجم الجسم الصحافي الذي سمحت له الجزائر بالدخول لتغطية أعمال ونتائج القمة العربية، فقال لي إنه كبير، وطلبت منه أن يعطيني العدد التقريبي فأجاب «أكثر من خمسمائة».

هذه هي الفرصة.

حشد كبير للصحافة العربية والدولية ومحطات التلفزة. وتوزيع الإعلان السياسي على هذا الجسم الصحافي سوف يبرزه في أكثر من مكان دون شك.

أعلمت صديقي فواز ناجية ــ رئيس تحرير «ميد إيست ميرور» في لندن بالفكرة. فقام بتحضير «ميد إيست ميرور» لنشره في الخامس من حزيران/يونيو في طبعة خاصة، وأرسل لي بعد أيام مئات من النسخ من كتيب صغير يحمل شعار منظمة التحرير الفلسطينية يتضمن قرارات الأمم المتحدة الأساسية المتصلة بالقضية الفلسطينية وعدة مقالات بينها ذلك المقال/الإعلان تحت عنوان «احتمالات السلام في الشرق الأوسط». توجهنا إلى الجزائر لحضور القمة العربية، وكان قد سبقني إليها مجموعة من المساعدين للعمل في أوساط المراسلين ولتوزيع الكتيب الذي يتضمن الوثيقة.

بعد جلسة الافتتاح بدأ المساعدون بتوزيع الكتيب. أول رد فعل على تلك الوثيقة جاء من يوسف مراسل «نيويورك تايمز» في الشرق الأوسط آنذاك.

قال لي: هذه جمرة حامية لا يمكنني التعاطي معها. إنها متفجرة.

وأصبحت الوثيقة مدار حديث الصحافيين والمراسلين كونها تطرح لأول مرة أفكاراً ومواقف فلسطينية تدعو إلى حل سياسي وإقامة السلام على أساس «دولتين على أرض فلسطين التاريخية».

جيرالدين بروك مراسلة «وال ستريت جورنال» التقطت الموضوع وركزت رسالتها الأولى لصحيفتها على مشروع سلام فلسطيني ولينشر على الصفحة الأولى. وهذا يعد مهنياً نجاحاً باهراً للمقال.

وشكل مقال جيرالدين بروك أزمة للمراسلين الآخرين، إذ راحت صحفهم تطالبهم بإرسال تقاريرهم حوله وتنتقدهم لعدم التقاط ذلك السبق الصحافي بدلاً من جيرالدين بروك.

والتقطت الصحافة السنارة. وراح جميع أولئك المراسلين الذين لم يتمكنوا من الحصول على الكتيب أو لم ينتبهوا إليه يبحثون عن نسخ ذلك الكتيب.

اتصل بي توني لويس «من نيويورك تايمز» وطلب مني إرسال النص فوراً لأنه يريد نشره كاملاً في صفحة الرأي. واتصل كذلك رئيس تحرير «واشنطن تايمز» وطلب الشيء ذاته. وكذلك الصحف البريطانية.

وفي اليوم التالي جاءني أول تعليق من زعيم عربي. فقد التقيت بإبراهيم عز الدين (وزير الإعلام الأردني آنذاك) الذي أخرج من جيبه نسخة من الكتيب وراح يستفسر مني حول بعض الجمل الواردة في المقال، وكان مشاراً لها بلون أخضر عريض. وأبلغني إبراهيم عز الدين أن صاحب الجلالة الملك حسين طلب منه الاستفسار عن هذه الجمل التي علّمها جلالته بالأخضر.

بعد شرحي قال لي: هذا انقلاب سياسي. فأجبته: إنه اختبار. اختبار نوايا الولايات المتحدة والغرب.

وامتد الحديث، والكتابة عن الوثيقة، طوال أيام المؤتمر. وكتبت صحف إسرائيلية العديد من المقالات التحليلية حوله. ومن الذين امتدحوا الوثيقة الصحافي الإسرائيلي أمنون كابليوك.

انتهت القمة التي أطلق عليها اسم قمة الانتفاضة وعدنا إلى تونس.

سر الوثيقة ـ ردود الفعل (٣)

لم يطل الوقت بالمعلقين للإدلاء بردود فعلهم على الوثيقة، فقد سارع إسحق شامير رئيس وزراء إسرائيل إلى الإدلاء بتعليق حول الوثيقة التي صاغت ولأول مرة في تاريخ الصراع، مبادرة لإيجاد حل سياسي يؤدي إلى السلام في الشرق الأوسط. يتهم كاتب المقال ــ الوثيقة بأنه يحاول تضليل الرأي العام العالمي. وأنه يذرّ الرماد في العيون وأنه أداة فلسطينية لخداع الرأي العام الدولي والمحلي.

ورفض شامير جملة وتفصيلاً ما جاء في الوثيقة وبشكل خاص حل «الدولتين على أرض فلسطين التاريخية» وعلّل ذلك بأن «م.ت.ف» إرهابية ولا يمكن التفاهم أو التفاوض مع الإرهابيين.

وعزفت أوركسترا الليكود لحن الرفض بقيادة شامير. لكن حزب العمل وقيادته التي كانت ضمن الائتلاف الحكومي الذي يرأسه شامير لاذت بالصمت لفترة من الوقت. فيما أبدى يوسي ساريد رأياً مرحباً ومطالباً بإعطاء السلام فرصة والتعامل بايجابية مع ما طرحته الوثيقة (نص الوثيقة في الملاحق).

ورحبت مجموعات للسلام الإسرائيلية المختلفة بالحل الذي طرحته الوثيقة، والذي ينسجم بواقعية مع قرارات الشرعية الدولية التي شكلت سقفاً لأي حل سياسي ممكن. وشكلت هذه المواقف المتضاربة داخل إسرائيل حافزاً لسيل من المقالات والتعليقات في الصحف الإسرائيلية وبرامج التلفزة ــ وتراوحت الآراء بين الرفض المطلق والقبول المتحفظ.

لقد فرضت الوثيقة نفسها على مجمل الجدل السياسي في إسرائيل، في ظل تنفيذ حكومة شامير لسياسة القبضة الحديدية التي بطشت بالجميع أطفالاً ونساءً ورجالاً.

وعلى الصعيد الفلسطيني تبودلت الآراء كذلك. فمن رافض مشكك بأهداف المقال الذي نشر إلى قابل متحمس له.

وكان أول المعلقين أبو إياد الذي أدلى للصحافة بتعليق هاجم فيه ما نشر ووصفه بأنه عبث سياسي. أما بقية أعضاء القيادة فقد

لزموا الصمت، ربما لشعورهم بأن ما نشرته يعبر عن رأي الرئيس عرفات ولم يرغبوا في المعارضة قبل أن يجتمعوا إليه لبحث الأمر.

لكن المفاجأة الكبيرة لقيادة «م.ت.ف» كانت ترحيب قيادات الداخل المتحمس لما نشر. وهذا الموقف كان حجر الرص.

ليس هذا فحسب بل استندت قيادات الداخل إلى الوثيقة لشن هجوم سياسي كبير طال القيادات الإسرائيلية والرأي العام الإسرائيلي، لإظهار النوايا السلمية لمنظمة التحرير ولنفي التضليل الرسمي الإسرائيلي حول الطابع الإرهابي لمنظمة التحرير الفلسطينية، والإصرار على أن الانتفاضة حركة إرهابية، وليست مقاومة شعبية وشرعية للاحتلال.

كانت تربطني بأبي إياد صداقة حميمة منذ فترة طويلة. عدا عن كوننا زملاء. فاتصلت به معاتباً على ما صرح به حول الوثيقة والتي وصفها بأنها «عبث سياسي». فأجابني بسرعة:

«عم بسام، أنا لست رجل كرسي في هذه الثورة. تطبخون السياسة من خلف ظهري. أنا لا أقبل بهذا».

فقلت له إنه لا يوجد أي طبخ سياسي، وأن الأمر كله وجهة نظر نشرتها لأرى ردود الفعل ونضع الأميركان والأوروبيين على المحك الحقيقي، حتى لا يبقى إصرارهم على أن الحل لا يمكن أن يأتي إلا من خلال قرارات الشرعية الدولية. والفكرة هي: إذا قبلت «م.ت.ف» بقرارات الشرعية الدولية وبحل الدولتين على أرض

فلسطين، سيتحرك الغرب لفرض هذا الحل. هذا كل ما في الأمر.

أجابني ضاحكاً:

«تعال لنتحدث بالموضوع. هل تظن أنني لا أعرف أبو عمار. وهل تظن أنني لا أعرفك. تعال لنتحدث».

توجهت فوراً لمكتب أبو إياد الذي رحب بي كعادته قائلاً: كيف يتم هذا دون علمي يا بسام؟

فأجبته: ماذا تم؟ لم يتم شيء سوى نشر وجهة نظر.

نظر إلي بخبث وقال: أريد أن أعرف كل شيء. هل هنالك وعود أميركية ما مقابل هذه المواقف؟

فأجبته: لم يجر الاتصال مع أي جهة حتى الآن.

وعاد ليقول مشككاً: هذا الموضوع أصبح الشغل الشاغل للجميع من تل أبيب إلى واشنطن. وأنا أعرف أجهزة الإعلام: إن لم يكن لديها ضوء أخضر لإبراز الموضوع فبإمكانهم إطفاؤه بسرعة.

أجبت سريعاً: هذا صحيح لكن الموضوع فاجأهم مما جعلهم غير قادرين على التعتيم عليه.

وسألني: قل لي بصراحة ماذا يريد أبو عمار. فابتسمت قائلاً: تسألني أنا يا أبا إياد؟ أنت تعلم أنه يريد دولة مستقلة ذات سيادة على الضفة وغزة، وكذلك أنت.

ابتسم وقال: هذا صحيح. ولكن يجب أن نبقى على اتصال.

وفيما أهم بالمغادرة قلت له: أنصح بأن تعدل الموقف، لا تقل إنه عبث سياسي. إنه موقف سياسي جاد وعملي ومقبول دولياً.

ودعني وعدت إلى مكتبي.

وفي اليوم التالي أدلى أبو إياد بتصريحات مضمونها نفس مضمون الوثيقة وزاد عليها بأن «م.ت.ف» على استعداد لإعلان اعتراف متبادل بين دولتي إسرائيل وفلسطين.

بعدها انطلق الجدل الفلسطيني في الخارج على أوسع نطاق.

وفي داخل الأرض المحتلة استند فيصل الحسيني وسري نسيبة، وغيرهم من قادة الداخل لهذه الوثيقة، وتحركوا على نطاق واسع في الإطارين الفلسطيني والإسرائيلي لتحقيق الاختراق السياسي المطلوب.

وامتدت المناظرات والنقاش والصراع حول برنامج السلام.

كان قادة الداخل يحاولون باستمرار خلق أجواء تتيح المجال لمناقشة التوصل لحل سياسي يؤدي للسلام. لكن هذه الوثيقة أعطتهم ـ دون جدال ـ ورقة قوية جداً في نقاشهم وحوارهم مع القوى الإسرائيلية التي تريد السلام لكنها تتردد بأن تتقدم نحوه لأن ميثاق «م.ت.ف» وبرنامجها يسعيان لتدمير إسرائيل وليس إقامة السلام معها.

وفي المرحلة الثانية من حواراتهم، استند بعض الإسرائيليين في تكتيكهم إلى القول بأن هذه الوثيقة لا تمثل رأي «م.ت.ف» بل تمثل رأي كاتبها.

كنت على اتصال دائم مع الإخوة في الداخل، عبر محطتنا للاتصالات، وأثارت الوثيقة اهتماماً كبيراً على الصعيد العربي، فجرت اتصالات عديدة لتتحرى أمراً واحداً: هل يعبر المقال عن وجهة نظر «م.ت.ف» الرسمية أم لا.

وطلبت الإدارة الأميركية من السعودية التحقق من هذا الأمر. وتلقيت اتصالاً من خالد الحسن، وكان آنذاك في زيارة للسعودية، وأبلغني أن مسؤول الشرق الأوسط في الخارجية الأميركية موجود في الرياض، وأنه طلب من الخارجية السعودية التحقق مما إذا كان المقال يعبر رسمياً عن وجهة نظر جديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية أم لا.

لم أتمكن من الإجابة فقال لي:

«بسام، أستطيع أن أعطي موقفاً رسمياً إذا أكدت لي أن أبو عمار موافق على ما نشرت».

فقلت له: «الحقيقة أبو عمار لم يقرأ المقال لكنني أعرف أنه يعبر عن وجهة نظره» وأقترح أن تتصل به.

وأبدى الاتحاد السوفياتي اهتماماً كبيراً بالموضوع وحرك قنواته الدبلوماسية وغير الدبلوماسية لمعرفة حقيقة تلك الوثيقة: هل هي رسمية أم غير رسمية.

ألمانيا وبريطانيا وفرنسا اهتمت بالأمر كذلك، وأجرت اتصالات على مستويات دبلوماسية عادية لتتحقق بلباقة من نفس الموضوع: هل تعبر أم لا تعبر عن موقف «م.ت.ف»؟ وحذت حذوهم لاحقاً بقية الدول الأوروبية.

كل هذا كان يدور، وتقوم الدنيا ولا تقعد والرئيس ياسر عرفات يراقب ويتابع صامتاً. هذه ميزه من ميزات الرئيس.

وربما خطط لذلك.

لقد وافق على إلقاء الطعم وراح ينتظر ليرى من سيبلعه؟

لاذ بالصمت انتظاراً: يريد الثمن. والثمن هو الدولة الفلسطينية المستقلة كاملة السيادة وعاصمتها القدس الشريف.

فلماذا يعطي قبل أن يأخذ؟

في حياته السياسية الطويلة، كان عرفات وما زال لاعباً سياسياً ماهراً.

والسياسة تبادل مصالح ومقايضة.

وفي ظل إشراك المصالح والمقايضة كان عرفات دائماً، وما زال حريصاً على نيل ما تستوجبه مصالح الشعب الفلسطيني مقابل أية مرونة أو أية مساومة. كان يعلم أن الواقع الدولي والإقليمي والعربي والمحلي لا يمكن (ولن يمكّن في المستقبل المنظور) الشعب الفلسطيني من استرجاع كامل أرضه. ولذلك راح يفكر بالممكن الذي يحافظ

على حد أدنى من مصالح الشعب الفلسطيني، ويؤمّن له ملاذاً يعيد له كرامته وإنسانيته ويتيح له المجال للنمو والتطور. ولذلك كان مستعداً للمساومة التاريخية، شريطة أن يضمن مصلحة الشعب الفلسطيني.

كان مسروراً لما ولّدته الوثيقة ولما قامت به قوة الاستطلاع السياسية.

وتعززت مكانة «م.ت.ف» دولياً. فمن ناحية كانت الانتفاضة البطلة قد أمدت «م.ت.ف» بالدعم وركزت أنظار العالم على فلسطين. وها هي «م.ت.ف» تعطي الانتفاضة موقفاً سياسياً يعزز من وضعها وثقلها وقدرتها على حشر حكومة شامير في زاوية صعبة. واكتملت تقريباً من «التمام» العلاقة الجدلية بين النضال الميداني والمواقف السياسية العملية والمنسجمة مع القبول من قبل المجتمع الدولي. وإكمال هذه العلاقة الجدلية سيضع إسرائيل حتماً في زاوية صعبة ومحرجة، ستضطر معه للتجاوب مع الجهود الدولية وإن كان ذلك تكتيكاً.

شعر عرفات بالغبطة دون أن يعبر عن ذلك. فقد انتظر النتيجة الهامة، وهي قبول الإدارة الأميركية بهذا الموقف أساساً للشروع في حل الصراع، وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة على أساس قرارات الشرعية الدولية.

في ظل صمت الرئيس ياسر عرفات ازداد النقاش حدة داخل الساحة الفلسطينية ومؤسساتها، وراحت الجهات الأوروبية الرسمية المهتمة بما طرح تتصل مباشرة أو من خلال سفارات ومكاتب

«م.ت.ف» تدعوني فيها لزيارتها لمناقشة ما نشرت. ومنها ألمانيا وبريطانيا وفرنسا والنرويج والسويد وفنلندا.

وقرر الرئيس ياسر عرفات أن يقوم بجولة سريعة يزور خلالها بعض دول أوروبا الشرقية قبل التوجه إلى مقره في بغداد. أراد عرفات أن يجس النبض ويستطلع الآفاق قبل أن يقدم على خطوة علنية. وكان يعلم أن بعض دول شرق أوروبا مثل رومانيا ويوغوسلافيا كانت على صلة بالغرب وبإسرائيل. ولذلك فإن جس نبض قادتها حول ما نشر قد يساعده على تحديد بوصلة التحرك السياسي.

وشعر الرئيس بأهمية ما نشر وتأثيره منذ اللحظة الأولى لهذه الزيارة.

ففي مطار بلغراد حيث كانت الترويكا الحاكمة في استقباله سأل الرئيس اليوغوسلافي عما نشر وهل يعبر عن موقف «م.ت.ف» أم أنه رأي شخصي؟

فدعاني الرئيس للاقتراب قائلاً: إنهم يسألون عن مقالك وهم معجبون جداً بما كتبت. صافحتهم وبادرني الرئيس اليوغوسلافي بالقول: ما نشرته جيد جداً ويفتح الطرق نحو السلام. أكمل وتابع مثل هذه الكتابات.

فانتهزت الفرصة لأقول (ولأول مرة): شكراً، سأتابع لكن يجب أن أقول انها أفكار الرئيس عرفات.

وابتسم عرفات ابتسامة عريضة وتوجهنا نحو قصر الضيافة.

بعد دقائق معدودة، أُبلغ الرئيس أن وزير خارجية الاتحاد السوفياتي يريد أن يكلمه هاتفياً. وأنه ينتظر على الخط.

التقط الرئيس الهاتف وراح يشرح له تطورات الأوضاع داخل الأراضي المحتلة وفظاعة الممارسات الإسرائيلية ضد شعبنا. وطلب منه المساعدة بالتحرك دولياً لوقف العدوان على شعبنا الأعزل.

وفجأة نظر الرئيس لقاعة الجلوس وطلب مني الاقتراب. اقتربت فقال لي بحيث يسمع شيفرنادزة كل كلمة: «بسام، أنت كتبت إيه في المقالة؟ معالي الوزير يسأل عن المقالة». نظرت إليه بدهشة سرعان ما تلاشت لأنني فهمت قصده. فهو يريد أن يقول لشيفرنادزة إنه لا يعلم ماذا كتبت. وأنهم إذا كانوا مهتمين بما نشر فليتحركوا لضمان الثمن: الدولة الفلسطينية المستقلة.

وقال الرئيس لشيفرنادزة إنه سيناقش الأمر لاحقاً وسيرى ما هو موقف القيادة.

وكذلك في رومانيا، كان هنالك اهتمام كبير.

وتوجهنا إلى مقر الرئيس في بغداد. لمس الرئيس أن هنالك تقبلاً وارتياحاً للخط السياسي المطروح وأنه قد يفتح الطريق أمام مفاوضات سياسية لتطبيق حل الدولتين.

وخلال رحلة العودة، كما هي عادته، انكب على ملفاته محاولاً إنجاز عمله الشاق قبل الوصول إلى بغداد ليتفرغ لإدارة شؤون الانتفاضة.

ما إن وصلنا مقره حتى أصدر تعليماته بدعوة أعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية والمجلس المركزي لـ «م.ت.ف» للاجتماع في بغداد خلال ذلك الأسبوع.

فكرت بالأمر. لقد أصبح الموضوع جدياً، فهذه الخطة الأولى التي يتخذها الرئيس ليحضر النقاش داخل المؤسسات الفلسطينية كي تتحول الأفكار التي طرحت في الوثيقة إلى موقف رسمي.

لقد اقتنع الرئيس بأن هذا البرنامج سيفتح الطريق أمام اعتراف دولي وربما مفاوضات سياسية.

كانت حسابات الرئيس دقيقة، فبعد ترك المجال لنقاش علني بين مؤيد ومعارض، وبعد أن أعطى فرصة لردود الفعل الدولية والإقليمية والعربية، وبعد أن أيقن أن القيادات الفلسطينية داخل الأرض المحتلة تؤيد ذلك بكل قوة، وتعتبر الموقف دعماً سياسياً هائلاً في المواجهة مع العدوان الإسرائيلي.

بعد كل هذا قرر أن ينقل النقاش لمؤسسات «م.ت.ف» وكان واضحاً أن هدفه هو التوجه للمجلس الوطني الفلسطيني في نهاية جولات النقاش في المؤسسات الرسمية، للتصويت على برنامج سياسي جديد يتضمن المضامين التي نشرت في الوثيقة. أي التفاوض على حل سياسي يؤدي لإنهاء الاحتلال وإقامة دولة فلسطينية مستقلة على الأراضي التي احتلت عام ١٩٦٧ مقابل الاعتراف بإسرائيل وحقها بالوجود خلف حدود آمنة ومعترف بها.

بالتوجه للإمارات لأجري اتصالات مع المسؤولين حول دعم الانتفاضة مادياً.

وتوجهت للإمارات حسب تعليماته.

وكان واضحاً أن الرئيس لا يريد أن أحضر تلك الاجتماعات لأنه يعلم أنها ستكون صاخبة وأن النقاش قد يتحول إلى نقاش مؤذ.

حينما عدت من الإمارات أحمل التبرعات للانتفاضة، كانت الاجتماعات قد انتهت. وانتخى بعض الأصدقاء ليحذروني من الأجواء السائدة، ليقدموا لي النصيحة بعدم الوقوع في هذه الفخاخ «حرصاً على تاريخي النضالي».

خلاصة الموضوع أن الرئيس أنهى النقاش باقتراح تشكيل لجنة تحقيق من أعضاء المجلس المركزي للتحقيق معي في ملابسات هذا المقال وتبعاته.

كانت تلك إحدى طرقه في تجاوز الأزمات ودثر الخلافات.

طبعاً لم يتصل بي أحد ولم يحقق معي أحد.

وانهمكنا في العمل إلى أن قرر الرئيس العودة إلى تونس لعقد اجتماعات تمهيدية لعقد المجلس الوطني الفلسطيني.

بدا واضحاً أنه مصمم على عدم التردد كي لا تفلت الفرصة من يده. ورغم معرفته بأن لا شيء ملموس مادياً حول ما سيجنيه

الشعب الفلسطيني، إلّا أن حاسته أشارت إلى أهمية إقرار هذا التوجه السياسي الجديد ليشكل منصة انطلاق جديدة، لفرصة جديدة تفتح أمام الفلسطينيين أبواب الأمل وقد تتوج انتفاضتهم بالاستقلال والحرية.

خلال تلك الفترة قمت بتلبية دعوات أوروبية عديدة كانت معظمها دعوات من مراكز أبحاث معروفة بصلتها الوثيقة بوزارات الخارجية، وانصبّ النقاش في كل الحالات حول الوثيقة. لمست مدى التأييد والشعور بالارتياح لأن الأساس الذي استندت إليه كافة الأفكار كان الشرعية الدولية، وقرارات الأمم المتحدة التي اتخذت بالإجماع، خصوصاً قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨.

ودعتني جامعة أوكسفورد لإلقاء محاضرة والإجابة عن الأسئلة المطروحة. قاعة المحاضرات في أوكسفورد كانت ممتلئة جلوساً ووقوفاً. فقد حشد الطرفان الفلسطيني والإسرائيلي اليميني وكأن المحاضرة ستكون موضوع منازلة. وحضرها مدير عام الخارجية البريطانية والسفراء العرب.

ركز اليهود المتطرفون على الإرهاب وطبيعة «م.ت.ف» الإرهابية فيما ركز أنصار السلام على الحل والسلام.

وفي نهاية المحاضرة اقترب مني مدير عام الخارجية البريطانية ليبلغني أنه يرحب بي في وزارة الخارجية. وكانت هذه أول بادرة رسمية، ولمح إلى أن لقاء قد يرتب لي مع وزير الخارجية لشؤون الخارجية.

في لندن كانت الدعوة موجهة من تشاتم هاوس وهو مركز أبحاث

استراتيجي وثيق العلاقة بالخارجية البريطانية.

وفي باريس كانت مؤسسة الأبحاث «افري» الداعية، وتبعتها محاضرة في جامعة العلوم السياسية (سيانس بوليتيكس) وكلتاهما معروفتان بقربهما من الخارجية الفرنسية.

أما في ألمانيا فكان اللقاء أولاً مع مركز أبحاث مقرب من الخارجية الألمانية ثم لقاء في الخارجية الألمانية (نائب الوزير) حدد الألمان خلاله دعمهم وتأييدهم الواضح لإقامة دولة فلسطينية مستقلة.

اتصلت بالرئيس متحدثاً عن الاجتماعات والمحاضرات وعن الجو العام لمواقف هذه الدول الأوروبية. فسرّ لذلك وقال لي: «إكبس».

وتابعت بالفعل. لقد فتحت هذه الأفكار السياسية أبواباً كانت مغلقة إلّا من الشكليات.

(١٨)

كيف اعترفت الولايات المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية

في الأسبوع الأول من كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٨٨ اتصل بي الرئيس ياسر عرفات وقال:

توجه للمطار فوراً.

لم يفاجئني الرئيس بهذا الطلب. فقد تعودت على أسلوبه في العمل ولذلك كنت أضع جانباً حقيبة صغيرة الحجم تحتوي ما أحتاج له لسفرات قصيرة.

· في أغلب تلك الزيارات الخاطفة التي كان يقوم بها الرئيس ياسر عرفات، ويطلب منا التوجه للمطار لمرافقته، لم نكن ندري ما هي الوجهة وما هو الغرض.

وتلك الأمور كان يستعرضها الرئيس معنا بعد إقلاع الطائرة ويعود ذلك لأسباب عديدة، منها الظرف السياسي وتطوراته السريعة ومنها أسلوبه في العمل الأمني والمحافظة على سرية تحركه ووجهة ذلك التحرك. وغالباً ما كان يعطي قائد الطائرة تعليمات في اللحظة الأخيرة.

وصلت مطار تونس على عجل لأجد أن الرئيس ياسر عرفات كان قد وصل ووصل آخرون ممن سيرافقونه، وكان المرافقون منهمكين بنقل حقائبه، وحقائب أعضاء الوفد للطائرة الصغيرة التي كانت تقف على بعد عشرات الأمتار من قاعة الشرف التي كان يغادر منها ويستقبل فيها أثناء إقامته بتونس.

صافحته وسألته مبتسماً: خيراً إن شاء الله.. إلى أين نتوجه؟

فأجابني: سنتحدث عندما نقلع. نظر إلى ساعته وسأل الكابتن «عدنان»: هل كل شيء جاهز؟ أدى الكابتن عدنان التحية قائلاً: نعم سيدي.

أشار الرئيس بيده لأعضاء الوفد قائلاً «تفضلوا لنذهب».

سرنا مشياً على الأقدام نحو الطائرة وصعدنا جميعاً قبله وبقي هو ليلقي تحية الوداع على مجموعة من القيادات التي جاءت للمطار لتوديعه.

وحال صعوده للطائرة جلس إلى مقعده المعهود قائلاً لقبطان الطائرة: على بركة الله. أغلق الباب بإحكام ودارت المحركات وما هي إلا

لحظات حتى كنا في أعالي الأجواء. لحظات مضت قبل أن يسمح قبطان الطائرة بفك أحزمة الأمان. عندها سارع الرئيس طالباً من أحد مرافقيه إحضار ملفاته.

تناول ملفاً منها وشرح للوفد طبيعة المهمة التي نتوجه لها: رئيس وزراء السويد وجه دعوة للرئيس ووفده لزيارة ستوكهولم لإجراء حوار حول السلام مع وفد من قادة الجالية اليهودية الأميركية.

وإن الوفد الأميركي ـ اليهودي والذي ترأسه السيدة ريتا هاوزر ـ على اتصال وتفاهم مع وزير الخارجية الأميركية «شولتز».

وإن رئيس الوزراء السويدي ووزير خارجيته سوف يرعيان هذه اللقاءات وسيكونان على اتصال مع الإدارة الأميركية حول الحوار.

كانت العلاقة بين م.ت.ف. والولايات المتحدة متوترة جداً على ضوء رفض الإدارة الأميركية منح الرئيس ياسر عرفات تأشيرة لإلقاء خطاب في الأمم المتحدة لطرح مبادرة سلام.

وتأزمت المشكلة بإصرار الولايات المتحدة على رفض منح التأشيرة. وكنت قد كتبت مقالاً في «نيويورك تايمز» تعليقاً على ذلك تحت عنوان «امنحوا السلام تأشيرة».

وقررت الأمم المتحدة على ضوء ذلك رفض عقد جلسة للجمعية العامة للأمم المتحدة بمقرها في جنيف، في الثالث عشر من كانون

الأول/ديسمبر لإتاحة الفرصة للرئيس ياسر عرفات لإلقاء خطابه حول الشرق الأوسط أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة.

نظر الرئيس للوفد المرافق له بعد هذه المقدمة وكأنه يسأل: ما هو رأيكم؟

وبدأ الحديث حول الاحتمالات، ليخلص الجميع إلى أن رئيس وزراء السويد ما كان ليقدم على هذه المبادرة إلا في ضوء موافقة (ولو ضمنية) من الإدارة الأميركية. وأن هذه الزيارة تحمل في طياتها إمكانيات سياسية قد تتحول إلى إمكانيات كبيرة إذا نجحت.

عندها تناول الرئيس من ملفه مشروع اتفاق كان قد أعده عضو اللجنة المركزية لحركة فتح خالد الحسن أثناء لقائه بالوفد اليهودي الأميركي قبل شهرين من ذلك التاريخ. وطلب من أعضاء الوفد أن يقرأوا ورقة العمل ليبلوروا رأياً ويقترحوا أية تعديلات يرونها ضرورية.

إنكب أعضاء الوفد على قراءة الأوراق فيما راح الرئيس يتابع ملفاته ويضع ملاحظاته على كل ورقه، ويوقع على الأوراق ذات الضرورة الملحة.

وبعد انغماسه بقراءة ما احتواه الملف من أوراق والتي كان يضع بعضها جانباً (ربما لأنه غير متأكد من دقتها)، كان يجيل النظر في الجو خارج نافذة الطائرة، وكان يأخذها فرصة للتفكير بما لا يمت بصلة للأوراق التي اختزنها ملفه.

ثم يعود للطائرة، يهز قلمه بين أصابعه الدقيقة، كأصابع لاعب بيانو، ويحرك ساقيه بطريقة توحي بأنه متوتر، لكنها كانت عادته.

كنا نطير للسويد، بناء على دعوة من رئيس وزرائها، في بداية أيلول/ديسمبر من العام ١٩٨٨، أي بعد أسبوعين تقريباً من اجتماع كامل هيئة المجلس الوطني الفلسطيني (أعلى سلطة تشريعيه للشعب الفلسطيني) في الجزائر بين ١٣ و١٥ تشرين الثاني/نوفمبر من العام نفسه.

كان ذلك الاجتماع تاريخياً. فقد احتدم النقاش على مدى يومين حول اقتراح يتبنى برنامجاً سياسياً جديداً لمنظمة التحرير الفلسطينية، هدفه الاستراتيجي إقامة سلام مع دولة إسرائيل، على أن تقام دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة على الأرض التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧.

كان ذلك مشروع تحول تاريخي، ويشكل مشروع قرار بمساومة تاريخية لم يسبق لأحد أن تجرأ على طرحها. وكان المشروع ينص على أن التفاوض على هذا الحل السياسي هو الأسلوب لتحقيقه. وصوت أعضاء المجلس الوطني بأغلبية ٨٧٪ لصالح المشروع. وبذلك أصبح لمنظمة التحرير الفلسطينية برنامج سياسي جديد، خياره الاستراتيجي السلام والتسوية السياسية على أساس قرارات الشرعية الدولية ـ وفي مقدمتها قرار ٢٤٢ و ٣٣٨ ـ وينص على حل الدولتين على أرض فلسطين التاريخية واعتراف إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية ببعضهما البعض والعيش بسلام وتعاون واستقرار وأمن.

لقد سلح هذا الخيار الاستراتيجي الجديد، الذي تبناه المجلس الوطني الفلسطيني (البرلمان) ياسر عرفات بقوة هجومية سياسية لا تقدر بثمن.

وربما كان هذا سبباً رئيساً في تحمسه للسفر فوراً إلى السويد ليرى مدى تأثير هذه الاستراتيجية الجديدة، على الموقف الأميركي والأوروبي والعالمي بشكل عام. كنت أرى استنفاراً كاملاً بين ثنايا وجهه ونظراته، واهتزاز القلم بين أصابعه. كان متحفزاً كمن ينتظر جوائز الأوسكار أو نوبل، قلقاً ومتفائلاً دون أن يعبر عن ذلك.

وفجأة أعلن قائد الطائرة أن علينا أن نربط أحزمة الأمان لأننا سنبدأ بالهبوط بعد عشرين دقيقة. وعاد الرئيس ياسر عرفات للطائرة، بعد أن شرد بعيداً في تفكيره، قائلاً لأعضاء الوفد:

ماذا ترون؟ سأل وهو يبتسم.

هل هذا المشروع معقول أم تقترحون تعديلات؟

كانت هذه طريقته دائماً في حسم الأمور. يصغي للجميع بكل انتباه. يصغي لكل ملاحظة أو اقتراح ويوحي لأصحابها بأنها هامة جداً وأنه مهتم بها جداً. وينتقل ليسمع الآخرين.

وفي نهاية الأمر، وبعد الاستماع المتنبه لكل حرف، يعود قلمه ليهتز بين أصابعه. ويغوص في عقله ويفكر. إنه دائم التفكير ويغوص في الحسابات: حسابات الربح والخسارة فيما يتصل بقضية الشعب الفلسطيني أي قضيته الشخصية.

كان جريئاً إلى حد تقبل كل الملاحظات والانتقادات ويناقش دون ملل، ويستمع لوجهات النظر دون كلل. لكنه في نهاية الأمر يزن الأمور ليعرف أين هي مصلحة الشعب الفلسطيني استراتيجياً.

وهو طالما ابتعد عن الخطاب الحماسي في الاجتماعات الداخلية رغم انطلاقه بخطاب حماسي أمام الجماهير، فقد كان يفرق بين هذا وذاك بنهج عملي تفوق به على كل البراغماتيين.

لم يفه بكلمة. لقد استمع. وهو يزن الأمور الآن.

بدأت الطائرة بالهبوط نحو مطار ستوكهولم. تخطينا الغيوم هبوطاً لتبدأ معالم الأرض تتضح. كان الجميع ينظر من خلال النوافذ لأرض السويد. بيضاء بيضاء في كل مكان تكسوها الثلوج. ومع مزيد من الاقتراب نحو الأرض بدت لنا المدارج التي عريت من ثلوجها لتتمكن الطائرات من الهبوط.

بضع دقائق مرت قبل ارتطام دواليب الطائرة بمدرج المطار، ثم هرولت بسهولة نحو موقع تقودها إليه ـ عربة تكسوها كشافات حمراء وصفراء.

قادتنا العربة نحو ركن بعيد تقف عند حافته مروحيتان... لا بل ثلاث. وهرول المستقبلون نحو سلم الطائرة يرتعشون من البرد.

تحية سريعة. سلام سريع. وكلام سريع فيما يهرول الجميع نحو المروحيات.

كان البرد شديداً، ولم نكن قد احتطنا لذلك. فلم نكن نعرف إلى أين نتوجه عندما دعينا لمرافقة الرئيس في تلك الزيارة.

دخلنا إلى داخل المروحيات بأسرع ما يمكننا لتجنب البرد القارس. وبدأت محركات المروحية الأولى بالدوران مستبقة المروحيتين الأخريين. وانطلقت.

كانت المناظر خلابة. وتحاشت المروحية الطيران فوق وسط مدينة ستوكهولم لكننا كنا نراها، يا لها من مدينة ضخمة وجميلة.

كان من الواضح أننا نتجه إلى مكان في ضواحي ستوكهولم خارج عن نطاق المدينة المزدحم. وهكذا كان. فقد هبطت المروحية بعد نصف ساعة في باحة قصر قديم، قلعة قديمة.

كانت إحدى قلاع ملوك السويد القديمة. حجارتها قاتمة، يضيئها الثلج الذي يكسوها هنا وهناك.

حدائقها يغطيها الثلج إلا بعض ورودها التي كانت أعناقها فوق الثلوج أو رؤوس أشجار عالية كانت ربما، ترحب بنا.

وبسرعة مماثلة لسرعة صعودنا للمروحية، أسرعنا نحو بوابة القصر.

استقبال لطيف وأنيق يحف به دفئان: دفء المستقبلين ودفء القصر ـ القلعة. وتوجه كل منا إلى الغرفة المخصصة له على أن نلتقي في جناح الرئيس ياسر عرفات بعد عشر دقائق.

التأم شمل الوفد في جناح الرئيس ودار حديث حول ما يمكن أن يبحث والفوائد السياسية من مثل هذا اللقاء.

وعلق الرئيس بالقول: «لن يكون هذا اللقاء لقاءً عادياً. فالسويد ترمي بثقلها لإنجاح هذا اللقاء ولا يمكن لوفد من اليهود الأميركيين أن يلتقي بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية دون إبلاغ وزارة الخارجية الأميركية. لذلك علينا إعطاء الاهتمام الشديد لما سيدور البحث حوله. ودعونا لا نستبق الأمور. لننظر ماذا يحملون معهم».

ما كاد الرئيس ينهي كلامه حتى جاء من يعلمه بأن وزير خارجية السويد قد وصل للجناح وأنه ينتظر في غرفة الجلوس.

نهض الجميع متوجهين نحو غرفة الجلوس. وأسرع الرئيس بمصافحة وزير الخارجية وعرّف بأعضاء الوفد الذين صافحوه بدورهم.

ارتسمت على وجه الرئيس ابتسامة عريضة وهو ينظر إلى وزير الخارجية وكأنه يقول له «هات ما عندك».

تحدث الوزير عن اهتمام السويد بإنجاح هذا اللقاء، وأن الهدف هو الخروج ببيان مشترك يدعو إلى حل سياسي للصراع الفلسطيني ــ الإسرائيلي، وأن الفكرة مستمدة من البرنامج الجديد الذي أقره المجلس الوطني الفلسطيني في تشرين الثاني/نوفمبر.

علق الرئيس قائلاً: بيان مشترك بين منظمة التحرير الفلسطينية والسويد؟

فأجاب الوزير: السويد ترعى هذا اللقاء. فعلق الرئيس مرة أخرى: لكن هذه المجموعة من قادة يهود أميركا لا تمثل جهة رسمية. فلا هي تمثل الإدارة الأميركية ولا هي تمثل الحكومة الإسرائيلية.

كانت الملاحظة تحمل معاني أبعد من الكلمات. وفهم وزير الخارجية السويدي القصد فأجاب باقتضاب: سيحضر رئيس الوزراء بعد قليل وطلب مني أن أبلغك أنه يريد أن يلتقي بك منفردين.

وكأن الوزير أراد بذلك أن يقول للرئيس ياسر عرفات أن الأمر أهم من مجرد بيان مشترك.

وبالفعل اختلى رئيس وزراء السويد بالرئيس ياسر عرفات دقائق ثم خرجا سوياً. ثم دعا رئيس الوزراء الجميع إلى غرفة الطعام. لقد رتب السويديون أن يكون اللقاء الأول على مائدة الغداء. وقد رتبت أماكن الجلوس بطريقة ذكية بحيث يختلط الجميع لتبادل الحديث والتعرف إلى بعضهم البعض. كان وصولنا لقاعة الطعام قبل وصول وفد اليهود الأميركيين.

فتحت الأبواب بعد ثوان معدودات ودخل الوفد الأميركي برفقة وزير الخارجية السويدي تصافح الجميع ثم جلسوا إلى مائدة الطعام.

دار كلام عام حول الوضع السياسي وضرورة إيجاد حل للصراع.

وقبل الانتهاء من وجبة الغداء، اقترح رئيس وزراء السويد أن تلتقي مجموعة قليلة من الطرفين في غرفة الاجتماعات، للبدء بمناقشة الأمور بطريقة أكثر خصوصية وعملية.

وتم ذلك. انسحب الباقون نحو غرفة الجلوس يتحدثون في أمور مختلفة. أربعة من وفد اليهود الأميركيين برئاسة السيدة ريتا هاوزر جلسوا قبالة الرئيس ياسر عرفات يحيط به ثلاثة من أعضاء الوفد. ياسر عبد ربه ومحمود درويش وأنا. راحت ريتا هاوزر تمتدح ورقة العمل السابقة وتقول إنها صالحة للإعلان.

أجاب الرئيس مرحباً بالنقاش، وقال: هنالك بعض النقاط بحاجة إلى تعديلات، لذلك اقترح أن تصاغ هذه الملاحظات وتدرس.

وانسحب الرئيس من الجلسة نحو جناحه فيما بقي البعض لدراسة الملاحظات. ولقد كلف اليهود الأميركيون السيدة دورا كاس من «اتحاد النساء اليهوديات الأميركيات» بصياغة تلك الملاحظات بعد مناقشتها مع الفلسطينيين.

كان التعديل أساساً لينصبّ النص على إقامة دولة فلسطينية مستقلة على الأرض التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧. حملت الصياغة للرئيس الذي أبدى مزيداً من الملاحظات باتجاه إزالة أي لبس حول هدف إقامة الدولة الفلسطينية وسيادتها.

وعدنا مرة أخرى لجلسة الصياغة.

في تلك اللحظة دبت حركة غير عادية أمام جناح الرئيس ياسر

عرفات. كانت زيارة مفاجئة من رئيس وزراء السويد ووزير خارجيته للرئيس في جناحه.

أبلغنا الرئيس لاحقاً أن وزير خارجية الولايات المتحدة شولتز أبلغ السويديين بأن هنالك اهتماماً كبيراً بهذا اللقاء. وأنه إذا تم الاتفاق ستدرسه الولايات المتحدة لتقرر فيما إذا كان الإعلان يمهد الطريق أمام اعتراف الولايات المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية وبدء حوار جدي معها.

اختلف الأمر الآن. واستنفر الرئيس قواه السياسية. فهذه أول مرة تعرض فيها الولايات المتحدة عبر دولة كالسويد اتفاقاً سياسياً.

حمل رئيس وزراء السويد معه رسالة من شولتز تتضمن ثلاث نقاط يجب أن يتضمنها الإعلان، وهي نبذ العنف والاعتراف بحق إسرائيل بالعيش وراء حدود آمنة ومعترف بها وبقرارات الشرعية الدولية.

كان من الواضح جداً أن العمل تحول إلى اتصالات سياسية جدية وغاية في الأهمية. ولم يضع الرئيس الوقت. جمع الوفد وطلب صياغة رسالة فورية ليحملها رئيس وزراء السويد للإدارة الأميركية تشرح برنامجنا وأهدافنا واستعدادنا للسلام على أساس الشرعية الدولية وقبولنا ضمن هذا الإطار بالنقاط الأميركية الثلاث. وجاء الرد الذي أثار الدهشة سريعاً.

إذ لم يتضمن رد الوزير شولتز أية إشارات ترفض فكرة الدولة

الفلسطينية المستقلة ولا ملاحظات حول مقدمة الرسالة التي حددت أن اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية تحمل صفة الحكومة الفلسطينية المؤقتة إلى أن تقوم الدولة الفلسطينية المستقلة.

لكنها طلبت أن يركز الرئيس ياسر عرفات في مؤتمر صحافي، على البنود الثلاثة التي حملها رئيس وزراء السويد من الإدارة الأميركية. وتضمنت الرسالة وعداً بأنه في حال إعلان الرئيس ياسر عرفات في مؤتمر صحافي في استوكهولم هذه البنود الثلاثة، فإن وزير الخارجية الأميركي جورج شولتز سيعلن بعدها بنصف ساعة اعتراف الولايات المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية، وبدء حوار بنّاء معها لإقامة السلام في الشرق الأوسط.

تبين بوضوح ماذا كان يقصد الرئيس ياسر عرفات، عندما قال لوزير الخارجية في اللقاء الأول: إعلان مشترك مع السويد؟

فالمجموعة الأميركية لا تمثل حكومة إسرائيل أو الإدارة الأميركية. وكأنه كان يطلب منه العمل على إعلان مشترك مع هذه الجهات. وها هي الفرصة تلوح لإعلان متزامن بين منظمة التحرير الفلسطينية والإدارة الأميركية.

لاحقاً، وفي جناح الرئيس، دار نقاش هام كان واضحاً منه أن الرئيس يريد أن يلتقط الفرصة وأن يكون مرناً لتبدأ ولأول مرة علاقة رسمية بين م.ت.ف. والإدارة الأميركية. إنها أول ثمرة من ثمرات البرنامج السياسي الجديد الذي أقره المجلس الوطني الفلسطيني في ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٨٨.

طلب الرئيس من ياسر عبد ربه أن يجري اتصالات مع أعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. لكن شرح التفاصيل وأهمية التطورات لم يكن ممكناً.

تردد الرئيس. فقد كان حريصاً على أن تنال موافقة الأغلبية في اللجنة التنفيذية، حفاظاً على ديموقراطية اتخاذ القرار.

وفجأة لمعت عيناه بالفكرة. وقال: لماذا لا نعقد مؤتمراً صحافياً الآن وهنا في ستوكهولم؟ يمكننا أن ننهي العمل مع المجموعة الأميركية ونصدر إعلاناً مشتركاً. ونفصل بين هذا وبين اعتراف الولايات المتحدة بنا. وذلك بإعلان منا مطلوب في خطابي أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة الذي سيعقد بعد أسبوع في الثالث عشر من كانون الأول/ديسمبر في جنيف.

ونالت فكرته استحساناً وتقرر أن نقنع السويديين بذلك (لأنهم كانوا تواقين لعقد المؤتمر الصحافي التاريخي في ستوكهولم).

تفهم السويديون وجهة النظر وأعلموا بأن خطاب الرئيس أمام الجمعية العمومية سيكون خطاباً يطرح مبادرة للسلام. وطلب الرئيس منهم أن يرسلوا وفداً لمتابعة كافة الأمور بيننا وبين الإدارة الأميركية إلى جنيف.

تم الاحتفال مساء بإصدار إعلان ستوكهولم للسلام بين م.ت.ف. وقادة المنظمات اليهودية الأميركية. وكان له تأثير إيجابي ضاغط. وغادرنا عائدين إلى تونس.

وفي تونس نال الرئيس موافقة أغلبية أعضاء اللجنة التنفيذية على تحركه السياسي وعلى إعلان ستوكهولم للسلام ـ استناداً لبرنامج المجلس الوطني الجديد.

وبدأ التحضير لاجتماع الجمعية العمومية للأمم المتحدة وشكلت لجنة صياغة الخطاب الذي سيتضمن البنود (الشروط) الأميركية الثلاثة التي أصر عليها جورج شولتز وزير خارجية أميركا.

(١٩)

كيف استطاع عرفات استعادة فرصة اعتراف الولايات المتحدة بـ (م. ت. ف) بعد أن أفلتت من يده

عكفت المجموعة التي كلفت بصياغة خطاب الرئيس ياسر عرفات على العمل بسرعة، بعد تلقي توجيهاته، لإنجاز ذلك خلال أربع وعشرين ساعة.

وحرص الرئيس على قراءة النص الذي وجهه له جورج شولتز وزير الخارجية الأميركي، من خلال رئيس وزراء السويد ليكون واضحاً وبارزاً في إطار خطابه الذي يمكن تلخيصه «بمبادرة السلام الفلسطينية».

وبالفعل أنجز الفريق عمله خلال أربع وعشرين ساعة، ودقق الرئيس النص، وأجرى تعديلاته على بعض المقاطع.

كان يقرأ النص بدقه متناهية ممسكاً بقلمه، مؤشراً بحبره الأحمر عند بعض الجمل. وما إن أنهى التدقيق، حتى رفع رأسه ونظر إليّ قائلاً: نريد ترجمة دقيقة، فالموضوع حساس.

أجبته فوراً: لا يوجد أهم من طاقم «ميد إيست ميرور» في لندن لترجمته، فالطاقم دقيق وكفؤ ويقوده رجل رائع ويلمّ بكيفية مخاطبة الغرب: إنه فواز ناجية. وأستطيع أن أحمل الخطاب غداً إلى لندن، لترجمته بسرعة.

وبالفعل غادرت تونس إلى لندن حاملاً نص الخطاب كي تترجمه مؤسسة «ميد إيست ميرور» وتسلمت مسؤولية الإنجاز السيدة مشلين هزو التي كنت أطلق عليها لقب «الجنرال» لدقتها وكفاءتها ومتابعتها الحثيثة لإنجاز المهمات.

تم إنجاز العمل بشكل رائع. وعدت إلى تونس حاملاً النص باللغة الإنجليزية والذي سيكون له الدفع الأكبر كون الترجمة دقيقة، ولا يوجد حيز للخطأ لدى طواقم الترجمة الفورية في الجمعية العامة للأمم المتحدة، التي عقدت في ١٣\١٢\١٩٨٨، في جنيف.

أثناء وجودي في لندن اتصلت بالصديق جيفري أرشور، رئيس الحملة الانتخابية لرئيسة الوزراء البريطانية مارجريت ثاتشر، والكاتب البريطاني المعروف. والتقينا في بيته القريب من لندن، وحدثته حول مبادرة السلام التي سيطلقها الرئيس في جنيف في الثالث عشر من كانون الأول/ديسمبر.

أبدى أرشور اهتماماً كبيراً، واتصل فوراً برئيسة وزراء بريطانيا

ثاتشر. وأبلغها ما قلته. فكان جوابها: دعهم يرسلون لي الخطاب قبل إلقائه، وإن وجدته يصب في الاتجاه الصحيح سأكون أول من يؤيد ذلك.

وطلب مني جيفري أرشور أن أعطيه نسخة ليسلمها لرئيسة الوزراء البريطانية. فأجبته بأن هذا مستحيل قبل أن يطلع الرئيس على النص ويعطي موافقته على إرسال نسخة للسيدة مارجريت ثاتشر قبل إلقائه الخطاب أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة في جنيف.

وفي تونس تحرك بعض الذين لا يعرفون مدى أهمية ذلك، ليقنعوا الرئيس بأن إرسال الخطاب سيفسد المفاجأة. ذهلت من هذا الموقف. فما توصلت إليه مع السيد جيفري أرشور يتمناه الكثيرون من قادة العالم.

لكن القرار ليس قراري في نهاية الأمر. إنه قرار الرئيس، الذي كان وما زال يزن الأمور بتفاصيل لا داعي لها، ويتردد في أخذ قرارات كهذه وينصت في آخر لحظه لمن يثير في نفسه وعقله المخاوف. فهو يحاول دائماً أن يتجنب الخطأ مما يدفعه أحياناً لعدم اتخاذ قرار هام قد يؤثر على المسار لسنوات قادمة.

وهكذا حصل. لم يرسل الخطاب فلم تبادر ثاتشر لتأييده. وكان لها من الوزن السياسي الكثير الكثير خاصة مع الإدارة الأميركية.

وبدأت الترتيبات للتوجه إلى جنيف.

ربما كانت جلسة الجمعية العمومية للأمم المتحدة في

١٣\١٢\١٩٨٨ في جنيف من أهم الجلسات في تاريخ الأمم المتحدة ارتباطاً بالشرق الأوسط.

فقد أعلن خلالها الرئيس ياسر عرفات مبادرة غير مسبوقة لإنهاء الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، وقدم مقابل ذلك مساومة تاريخية.

بدا الرئيس ياسر عرفات نشطاً، تملؤه الحيوية، هذه هي شخصيته. كان دائماً يمتلىء حيوية عندما يقدم على ما هو هام وخطير، ويتعلق بقضية شعبه، ويتحول إلى شعلة نشاط يتابع كل كبيرة وصغيرة، ويتحرك بسرعة عندما يشعر بأنه على وشك تحقيق انتصار ما، الانتصار كان الحافز لديه دائماً وما زال.

كان يوم ١٣ كانون الأول/ديسمبر بالنسبة له يوم انتصار، لأن الولايات المتحدة وعدت بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية، وبدء حوار جدي معها حول سبل ووسائل إيجاد حل سياسي للصراع يؤدي للاستقرار وبناء السلام.

أصدر الرئيس أوامره لمجموعة كبيرة من المسؤولين بالتوجه إلى جنيف، ليصلوا قبله وليتابعوا التحضيرات والترتيبات الخاصة بإلقاء كلمته أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، والمؤتمر الصحافي الذي رتب لعقده بعد جلسة الجمعية العامة.

سياسيون، إداريون، إعلاميون، مرافقون، جميعهم توجهوا إلى جنيف وكان المقر الذي اختير للرئيس والوفد المرافق هو فندق إنتركونتننتال.

توجهت إلى جنيف قبل يوم واحد من توجه الرئيس إليها. كان ذلك في الحادي عشر من كانون الأول/ديسمبر.

كانت الإجراءات الأمنية غير عادية بل فاقت ذلك. فقد تغيرت معالم مدخل فندق الإنتركونتيننتال من كثرة الأجهزة الإلكترونية، التي كان على الجميع أن يمر خلالها وأن يمرر حقائبه عبر أجهزة إشعاعية كاشفة. وبعد أن مررت عبر هذه الآلات نظرت لبهو الفندق في الطابق الأول لأرى حشداً كبيراً جداً من الصحافيين والمصورين وكاميرات التلفزيون.

الجميع كان ينتظر ياسر عرفات.

إنه حدث كبير وستكون التغطية واسعة جداً. ولا شك لدي (من خبرتي الطويلة في هذا المجال) أن كبرى محطات التلفزة الأميركية قد طلب منها التغطية الحية والمباشرة وأن مضمون ما سيطرحه الرئيس ياسر عرفات قد سرب لمديريها.

وعندما اتجهت نحو المصعد متوجهاً إلى غرفتي اندفع نحوي عدد من الصحافيين ومراسلي التلفزيون ليسألوا عن موعد وصول الرئيس؟ فقلت لهم سيصل غداً لكن لا أحد يعلم ساعة وصوله بالضبط.

وهذا صحيح، فالمسؤول الأول عن أمن تحركات ياسر عرفات، هو ياسر عرفات نفسه.. وكان يبقي القرار بينه وبين نفسه، حتى ساعة الإقلاع نحو هدفه.

الطابق ١٤ في فندق إنتركونتيننتال كان مخصصاً لياسر عرفات

وطاقمه والوفد المرافق له. عندما وصلت للطابق وفتح باب المصعد فوجئت بعدد كبير من رجال الأمن السويسريين، إلى جانب عدد من رجال الأمن الفلسطيني الذين حيوني وطلبوا من الأمن السويسري عدم الاعتراض. فتوجهت إلى غرفتي التي كانت قريبة من جناح الرئيس.

أفرغت حقيبتي على عجل وعدت نحو المصعد أحمل ملفي ودفتر ملاحظاتي، وهبطت مرة أخرى لبهو الفندق..

كانت خطوتي الأولى هي الاستفسار من مسؤولي الاستقبال عن غرف الوفد السويدي. فقد كانت مهمتي الأولى أن أبقى على اتصال بهم لمتابعة واشنطن. كان الاتصال بواشنطن حلقه مركزية. ذلك من أجل ضمان تنفيذ التعهد الأميركي بالاعتراف والحوار مع م.ت.ف. بعد نصف ساعة من خطاب الرئيس. هذا ما وعد به جورج شولتز وزير خارجية الولايات المتحدة آنذاك.

اتصلت بالوفد السويدي وأبلغتهم رقم غرفتي واتفقنا أن نلتقي مساء ذلك اليوم لترتيب التنسيق والتحرك السياسي.

وكانت خطوتي الثانية هي الاستفسار عن غرفة السيدة مشلين هزو التي وصلت جنيف لتمثيل مؤسسة «ميد إيست ميرور» ــ التي قامت بترجمة خطاب الرئيس.

وكما أسلفت، كنت أطلق على مشلين هزو لقب «جنرال» لكفاءتها ودقتها وحرصها على المواعيد والوقت. واتفقت معها على لقاء مساء اليوم نفسه، للتنسيق والمتابعة.

توجهت بعدها نحو جموع الصحافيين والمراسلين الذين كنت أعرف معظمهم، كانوا منتشرين في كل أنحاء البهو الواسع، بطبيعة الحال كان الحديث يدور حول مبادرة سلام سيطلقها الرئيس ياسر عرفات وحاول الجميع معرفة ما سيقول. وطلب بعضهم نص الخطاب قبل إلقائه. كان ذلك تصرفاً طبيعياً من المراسلين.

وبقي الخطاب في ملفي لكن الإجابات انصبت حول البرنامج الذي أقره المجلس الوطني الفلسطيني في الخامس عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٨، أي قبل شهر تقريباً من اجتماع الجمعية العمومية للأمم المتحدة في جنيف.

في المساء أنهيت اجتماعي التنسيق واتفقنا خلالهما على جدول أعمال ومواعيد محددة ليومي الثالث عشر (موعد إلقاء الخطاب) والرابع عشر من كانون الأول/ديسمبر، لمتابعة النتائج.

كان الليل طويلاً ومنهكاً. فقد أجريت خلاله مناظرات تلفزيونية حية مع عدد كبير من السياسيين حول البرنامج الجديد لمنظمة التحرير الفلسطينية. وكانت أهم مناظرة في تلك الليلة هي التي دارت بيني وبين بنيامين نتنياهو الذي اتهم منظمة التحرير الفلسطينية بالإرهاب. كانت المناظرة عبر أهم برامج شبكة تلفزيونية (اي.بي.سي) وهو برنامج «نايت لاين» الذي يقدمه التلفزيوني المعروف تيد كوبل.

وقد أسقط في يد نتنياهو عندما سمع المشاهدون برنامجنا لإقامة سلام وحل الدولتين. وتحول برنامج منظمة التحرير الفلسطينية الجديد إلى نقطة تركيز الإعلام العالمي بأسره. كان الاهتمام حقيقياً

وليس مصطنعاً. كان ذلك واضحاً أيضاً من مستوى وفود الدول والأعضاء في الأمم المتحدة.

وصل الرئيس ياسر عرفات ظهر اليوم التالي وتوجه إلى جناحه الذي بدأت تتوافد عليه شخصيات سياسية عربية، ودولية، وفلسطينية، كذلك. حضر عدد كبير من رجال الأعمال الفلسطينيين ومنهم حسيب صباغ ومنيب المصري. فالكل كان ينظر للمناسبة بمقدار أهميتها الخاصة والتاريخية.

وفي ظل ذلك الازدحام همس الرئيس في أذني: هل وصل السويديون؟ كان هذا بالنسبة له هو الأهم.

وأبلغته أنني اتفقت معهم، وأنهم سيكونون على اتصال دائم معي. فاطمأن الرئيس، الذي كانت تبدو عليه في تلك اللحظة علائم توتر بسيط.

طلب أحدهم نسخة من الخطاب ليطلع عليه، فأمر الرئيس بإعطائه نسخة.

مساءً جاء ذلك الرجل ليقول للرئيس إنه يفضل أن يوزع الجمل الثلاث (التي طلبها شولتز) على فصول الخطاب بدلاً من سردها بفقرة واحدة. وساق حجة هي تخفيف وقع ذلك على الشعب الفلسطيني. ودار نقاش حول هذا الاقتراح.

وقرر الرئيس أن يذكر البنود الثلاثة ضمن ثلاث فقرات وليس ضمن فقرة واحدة. وعندما سنحت الفرصة أبلغته أن ذلك خطأ إذ إن

الإدارة الأميركية تنتظر سماع هذه الفقرة فقط. وأنها ستدرس الخطاب لاحقاً. وأن رد الفعل المتوقع لن يأتي إلّا إذا سمع شولتز الفقرة كاملة وأنني لا أتوقع من شولتز أن يجلس أمام شاشة التلفزيون ليسمع الخطاب كاملاً.

رغم اهتمامه لم يأخذ الرئيس بما قلته.

في الثالث عشر من كانون الأول/ديسمبر توجه الرئيس في موكب من فندق أنتركونتننتال إلى مقر الأمم المتحدة القريب. ولم أتوجه معه. بل بقيت أراقب ما تبثه المحطات العالمية. كان بثاً حياً لكامل النص.

وُدع الرئيس كما استقبل من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة: بالتصفيق وقوفاً. كانت الجمعية العامة قد قاطعته بالتصفيق عدة مرات لكنهم ودعوه بالتصفيق وقوفاً لمدة دقيقة.

لقد أظهر العالم من خلال مندوبيه مدى التأييد الذي حظي به برنامج منظمة التحرير الفلسطينية الجديد. واقتراحها حل الدولتين وإقامة سلام بين الدولة الفلسطينية ودولة إسرائيل، مستنداً إلى تطبيق قرارات الشرعية الدولية.

وعاد الرئيس إلى جناحه ينتظر رد الفعل يحيط به عدد كبير من رجال الأعمال والشخصيات الفلسطينية. جلس يتابع حديث المحيطين به مبدياً اهتماماً، لكنه في حقيقة الأمر كان قلقاً. كنت أراقبه من بعيد. كان ينظر لمن حوله لكنه يفكر بواشنطن والموقف الموعود. لكن التوتر ظهر عليه جلياً وظهر اليأس على الجميع عندما

مضت نصف ساعة دون أي خبر عن موقف أعلنه شولتز.

توجهت إلى غرفتي فوراً، حيث كان ينتظرني الوفد السويدي ومشلين هزو.

سألتهم.... ماذا جرى؟ لماذا لم يعلنْ شولتز ما تعهد بإعلانه؟

أجابت المسؤولة السويدية: لننتظر نصف ساعة أخرى. فأجبتها بأن لا داعي لذلك لأن شولتز أكد أنه سيبث الموقف من خلال التلفزيون، وها هي الشاشات صامته. وطلبت منها الاتصال لمعرفة ماذا جرى؟

عدت إلى جناح الرئيس القريب على عجل، بعد أن بدأت المسؤولة السويدية تجري اتصالاتها.

كان الجناح ممتلئاً بالزوار. تفرقوا مجموعات صغيرة يناقشون الأمر. لم يكن الرئيس في الصالون. سألت المرافقين، فقالوا إنه يجري اتصالات من غرفة مكتبه بالجناح. وعلمت فيما بعد أنه أجرى اتصالات مع عدد من القادة العرب ليبلغهم بما جرى فطلب منهم التحرك سياسياً كي لا تضيع الفرصة.

أرهق الجميع وخلصت المناقشات والتحليلات إلى ضرورة كشف كل ما جرى في المؤتمر الصحافي المقرر. كانت صدمة كبيرة. الجميع صدم لكن الذي تلقى الصدمة الأكبر كان الرئيس، فاستنفر قواه مرة أخرى.

في غرفتي جلس السويديون وقالوا إنهم يعتقدون في واشنطن أن ياسر عرفات لم يذكر في خطابه ما سبق أن اتفق على ذكره.

وبرزت بذهني فوراً اقتراحات ذلك الرجل لتوزيع الجمل الثلاث بدلاً من ذكرها بفقرة واحدة. لا بد أن الخلل كان هنا.

كانت مشلين هزو تحمل معها جهاز فاكس صغيراً يمكن تركيبه بسهولة على أي جهاز تلفون. فأبرزته وسألت إن كنت بحاجة إليه. كانت فكرة جيدة. طلبت من الوفد السويدي أن يطلبوا من واشنطن عبر الفاكس إبلاغهم بما يريدونه وينتظرونه بالضبط، لأن هنالك فرصة أخرى لإصلاح أي خطأ أو سوء تفاهم خلال المؤتمر الصحافي.

طالت الاتصالات، لكن في نهاية الأمر سمعنا صوت فاكس يعلن عن وصول ورقة. الورقة كانت تحمل نفس الفقرة ذات البنود الثلاثة...

تأكد، دون شك، أن هذه هي المشكلة وأن سوء التفاهم برز عندما لم يتابع الأميركيون كامل الخطاب حتى يتأكدوا من ورود الجمل الثلاث ضمنه، التي وردت لكن موزعة بدلاً من أن ترد في فقرة واحدة.

وأبلغ الرئيس، الذي حرص في المؤتمر الصحافي على قراءة الفقرة بينودها بالتتابع وليس بالمفرق.

انتهى المؤتمر الصحافي وعاد الرئيس للفندق. قرر مغادرة جنيف

فوراً، وهو يعلم أن الأميركيين سيعلمون انه غادر غاضباً. لم ينتظر الرد الأميركي هذه المرة. بل قرر التوجه لتونس. وطلب من الوفد المتابعة وإبلاغه عن كل جديد.

عدت إلى غرفتي، وإذا بالهاتف يرن. كانت المتكلمة صديقة أميركية قديمة مقربة جداً من الوزير شولتز.

قالت لي: بسام، بعد نصف ساعة سيدلي شولتز ببيان هام. وأتبعت ذلك بكلمة عربية (مبروك). توجهت فوراً لجناح الأخ جمال الصوراني، حيث تجمع عدد من أعضاء الوفد مطرقي الرؤوس، غاضبين. أسرعت نحو جهاز التلفزيون وبحثت عن محطة CNN فصرخ جمال الصوراني: هل هذا وقت تلفزيون؟ فقلت له: ألا تريد أن تسمع ما يريد أن يقوله شولتز.

أجابني بسخرية: أما زلت تثق بواشنطن؟ لن يقول شولتز شيئاً.

أجبته بهدوء: بل سيقول، واقترح عليك أن تحضر نفسك لنحتفل بالانتصار. لفت كلامي انتباه أعضاء الوفد، وسأل بعضهم: هل أنت متأكد؟ فأخبرتهم عن الاتصال الهاتفي الذي تلقيته قبل دقائق.

فسألني جمال الصوراني: ومن هي هذه الأميركية؟ هل هي من وزارة الخارجية؟

فقلت له كلا. إنها جوديت كيبر وهي رئيسة معهد دراسات له علاقة بالخارجية الأميركية وقريبة من جورج شولتز. وبقي الجميع

بين المشكك والمتمني إلى أن أعلن أن هنالك بياناً هاماً سيدلي به شولتز وزير الخارجية الأميركي.

وبالفعل ظهر جورج شولتز وأعلن اعتراف الولايات المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية، وبدء حوار جاد معها حول سبل ووسائل إيجاد تسوية سياسية، تشكل أساساً لصنع السلام في الشرق الأوسط.

وارتفع الصراخ والضحك في جناح جمال الصوراتي. وقلت له: لنحتفل إذاً يا صديقي. أجابني: كنت على حق رغم أنني لم أصدق ما قلته. أبلغنا تونس بأن يبلغوا الخبر للرئيس لحظة وصوله المطار وأن يباركوا له بهذا الانتصار السياسي.

كلف وزير الخارجية الأميركية آنذاك سفير الولايات المتحدة في تونس روبرت بيليترو بالشروع في الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية. وهكذا استعاد عرفات فرصة تاريخية بعد أن كادت تفلت من يديه.

بقيت في جنيف يومين لمتابعة ردود الفعل وإجراء اللازم لإعطاء هذا التطور الهام زخمه الإعلامي. وما إن وصلت إلى تونس، حتى توجهت من المطار مباشرة إلى مكتب الرئيس في منطقة يوغورتا.

فقال لي:

كنت على حق. لقد ظننت أنهم سيتابعون الخطاب كاملاً. نظر إليّ وقال: بالطبع لا. أنا أستلم ملخصاً وأقرأه. فابتسمت وغادرت مكتبه متوجهاً لمكتبي.

(٢٠)

لم يصدق السفير فضاعت منه الفرصة

في بداية عام ١٩٨٩ اتصلت بي كرمة النابلسي من لندن وحثتني على زيارة لندن. ووصفت الأجواء العامة في إطار البرلمانيين وبعض المسؤولين في الخارجية البريطانية بأنها إيجابية جداً، ومستعدة للتعامل الإيجابي مع «م.ت.ف.».

كرمة النابلسي سيدة فلسطينية متوقدة الحماسة لقضيتها، وكانت في تلك الفترة تعمل مستشارة للإعلام والعلاقات العامة في مكتب «م.ت.ف» في لندن.

سألتها عدة أسئلة لتحديد النواحي الإيجابية، وما يمكن أن يترجم عملياً أو ينجز في حال توجهت إلى لندن.

تحدثت عن برلمانيين وعن الجمعيات اليهودية الإنجليزية. وعن

مسؤولين في وزارة الخارجية. كان هذا مشجعاً فقد كنا نعمل دون كلل لتحقيق انتصارات سياسية وإعلامية (وإن كانت صغيرة).

وعدتها بأن أفكر بالأمر وأن أبحثه مع الرئيس وأن أتصل بها لاحقاً لبحث التفاصيل.

لمست كرمة أنني غير متحمس لأنني أسعى لانتصار سياسي أكبر. وعلمت لاحقا أنها بحثت هذا الموضوع مع يوسف علان الذي كان حلقة وصل بين النقابات العمالية الفلسطينية، والنقابات العمالية الإنجليزية لسنوات عديدة، تمكن خلالها من نسج علاقات غاية في الأهمية مع نواب حزب العمال البريطاني في البرلمان، ومع أطر سياسية متنفذة ومهتمة بالشرق الأوسط.

فاتصل بي هو الآخر وراح يستحثني على القيام بتلك الزيارة. وحدد نمط اللقاءات التي يمكن أن يرتبها مع نقابات العمال، ومع نواب حزب العمال في البرلمان، ومع لجان برلمانية لها صلة بالسياسة الخارجية، وبالشرق الأوسط، ومع الشخصيات البريطانية الهامة. وسألته بشكل مباشر: هل يمكن ترتيب لقاء مع وزير الخارجية أو وزير الدولة للشؤون الخارجية.

صمت يوسف علان ثواني معدودة. ثم عاد ليقول باندفاع: سأعمل على ذلك وأنا متأكد أنني سأنجح في ترتيبه.

فأجبته: إذا تمكنت من ذلك سأحضر إلى لندن فوراً وسأقوم بكل النشاطات الأخرى.

فوعد بالاتصال بي مرة ثانية حالما يحصل على نتيجة محددة لاتصالاته التي سيتابعها فوراً.

اتصل يوسف علان وإلى جانبه كرمة النابلسي بعد يومين وقال: تم ترتيب الأمر. سوف يلتقي بك وزير الدولة للشؤون الخارجية وليم والدغريف عندما تحضر إلى لندن.

كررت السؤال: هل أنت متأكد؟

أكثر من مرة. وفي كل مرة كان يؤكد لي ذلك. فقلت له: إذاً سوف أتوجه إلى لندن. وسوف أبلغك حال حصولي على التأشيرة حتى يتم تحديد الموعد.

أرسلت جواز سفري للقنصلية البريطانية في تونس للحصول على تأشيرة بطريقة عادية كأي مواطن.

عاد مرافقي الذي حمل الجواز للقنصلية البريطانية ليقول إنهم يسألون: ما هو الغرض من الزيارة.

فاتصلت بالقنصل وقلت له إنها زيارة عادية لعدة أيام. لدي أصدقاء وزملاء في لندن أريد رؤيتهم.

فقال: حسناً، سوف نطلب لك التأشيرة. وفي الواقع لم يطلب التأشيرة بل حول طلبي وجواز سفري للسفير البريطاني لدى تونس «السيد داي» الذي كان في الستينيات أثناء الاحتلال البريطاني لليمن الجنوبي حاكماً بريطانياً في اليمن.

السفارة والقنصلية البريطانيتان، كانتا تحتلان مبنى قديماً جداً في تونس القديمة (وسط المدينة). وكان منزل السفير في ضاحية (قمرت) عبارة عن قصر قديم، رائع الجمال يمر القطار عند أطراف حديقته، ولمنزل السفير محطة قطار خاصة، أنشئت أثناء الاحتلال الفرنسي كي ينتقل السفير إلى مقر السفارة في البلدة القديمة.

في تلك الأيام كنت أسكن في شقة صغيرة، جزء من منزل أخ تونسي يقطن هو وعائلته الطابق الأرضي منه.

وكان ذلك المنزل قريباً من منزل سفير بريطانيا لدى تونس.

هاتفني السفير البريطاني قائلاً: لا يمكن أن ينظر لطلبك للحصول على تأشيرة كطلب عادي. فأنت مسؤول سياسي في «م.ت.ف» وطلبت مني لندن أن أستفسر منك عن سبب الزيارة.

فقلت له: يا سعادة السفير، لقد أجبت على هذا السؤال عندما طرحه علي القنصل.

تابع السفير كلامه: هل يمكن أن نلتقي لنناقش الأمر؟

فقلت له: طبعاً.

ودعاني لتناول الفطور معه في بيته بعد أن علم مني أنني ساكن بجوار قصره. في السابعة صباحاً تناولت الفطور على شرفة قصره.

كان منظر الحديقة الواسعة خلاباً.

حاول أن يفهم مني أهداف سفري لأنه لم يكن مقتنعاً بأنني ذاهب إلى لندن في زيارة شخصية وعادية.

وفجأة قال السفير داي: هل لديك مانع من الالتقاء بمسؤولين من الخارجية البريطانية في لندن؟

كان ذلك سؤالاً مباشراً، وهو ما طلب منه أن يستفسر عنه، لكنه لف ودار إلى أن اقتنع بأن عليه أن يطرح السؤال مباشرة.

أجبته بسرعة: سأكون سعيداً أن ألتقي بالوزير.

وساد صمت.

تابعت قولي: طبعاً إلى جانب مسؤولين آخرين متخصصين في الشرق الأوسط. نظر السفير داي إليّ ملياً وأنا أشرب الشاي الإنجليزي بهدوء وقال: هذا مثير للاهتمام. سوف أرى. سوف أرى.

علمت لاحقاً أن السفير داي لم يكن متحمساً في تلك الفترة لعقد لقاء مع «م.ت.ف» على مستوى وزاري وأن العلاقة يجب أن تتدرج ببطء.

شكرته على الفطور وقلت له مودعاً «على كل حال أرجو أن تمنح لي التأشيرة اليوم لأني ارتبطت بمواعيد مع بعض الزملاء في لندن ومع رؤساء الجمعيات اليهودية البريطانية».

نظر إليّ ملياً والدهشة تغمر وجهه وقال: سأرى ما يمكن أن نفعله.

بعد ظهر اليوم نفسه اتصل بي وقال: إن التأشيرة جاهزة وجواز سفرك جاهز. ولكن أعتقد أنك لن تتمكن من السفر اليوم. هنالك

منع تجول بسبب زيارة العقيد معمر القذافي لتونس.ولا يمكنك الوصول للمطار.

أجبته ضاحكاً: هذه مشكلتي أنا وليست مشكلتك. سوف أسافر اليوم.

وطرت إلى لندن مساء ذلك اليوم.

كنت قد اتصلت ظهراً بكرمة النابلسي وبيوسف علان وأبلغتهما عن توجهي إلى لندن ورقم الرحلة. وطلبت منهما أن يحجزا لي غرفة في فندق غروفنرز.

واتصلت بسفيرنا في لندن الأخ فيصل عويضة وأبلغته أنني سأصل لندن ليلاً وسأتصل به حال استقراري في الفندق.

أجرى يوسف علان وكرمة النابلسي اتصالاتهما، وأبلغا كل الجهات التي كانت معنية بتلك الزيارة عن موعد وصولي لترتيب المواعيد، وليكون جدول الأعمال جاهزاً. كان من الطبيعي أن أركز على موعد الوزير. وكذلك بالنسبة ليوسف علان وكرمة النابلسي.

من طرفه، قام السفير داي بإبلاغ الخارجية البريطانية بما قلته له خلال تناول الفطور على شرفة قصره بتونس.

وصلت مطار هيثرو بلندن وكانت كرمة النابلسي وإلى جانبها يوسف علان بالانتظار، وتوجهنا مباشرة إلى فندق غروفنرز.

وسألت كرمة ضاحكة (وهي صديقة منذ حصار بيروت): لماذا تصر

على فندق غروفنرز؟ هنالك فنادق أفضل وأقرب لوزارة الخارجية. ابتسمت وقلت لها: إنه الفندق الذي نزل فيه شمعون بيريز لإجراء مباحثات مع وزير الخارجية.

وصلنا الفندق وتوجهنا للغرفة وجلسنا لالتقاط الأنفاس ولأستمع منهما عما لديهما من تفاصيل جديدة.

وقبل أن يبدأ بالحديث، اتصلت بسفيرنا فيصل عويضة وأبلغته أنني وصلت وأنني أنزل في فندق غروفنرز، وذكرت له رقم الغرفة.

قال يوسف علان: رتبت كل شيء تقريباً. هنالك بعض اللقاءات التي لم يحدد موعدها بعد ولكن سيتم ذلك اليوم.

وقلت فوراً: ماذا عن وزير الخارجية؟

قالت كرمة النابلسي: غداً في العاشرة والنصف صباحاً سيحضر إلى الفندق مدير الشرق الأوسط بالخارجية ليرافقك لوزارة الخارجية لتلتقي بالوزير في الموعد المحدد وهو الحادية عشرة صباحاً.

قلت: رائع. هكذا تبدأ الزيارة بالنجاح. وتابعا إبلاغي عن المواعيد مع الجمعيات اليهودية البريطانية وزيارة البرلمان البريطاني لألتقي بنواب من حزب العمال واللجان المتخصصة.

اتصلت مرة أخرى بالسفير فيصل عويضة وقلت له إن موعداً قد رتب مع الوزير والدغريف غداً في الحادية عشرة صباحاً. وأنني

انتظره في الفندق في العاشرة لبحث الأمر ثم نذهب سوياً للقاء الوزير. فضحك وقال: مستحيل. إنهم يكذبون عليك. لا يمكن أن يقابل الوزير مسؤولاً فلسطينياً في هذه المرحلة.

لقد حاولت مراراً أن أرتب موعداً لفاروق القدومي (أبو اللطف) ولم أنجح لأنهم اعتذروا وقالوا إن مثل هذه اللقاءات قد تتم في مراحل لاحقة.

فأجبته: أنا أصدق، ولذلك أدعوك للحضور.

فقال: سأراك بعد ظهر الغد لأنني مرتبط بمواعيد من الصباح حتى الظهر. وانتهت المكالمة.

غادر يوسف علان وكرمة النابلسي على أمل اللقاء في التاسعة صباحاً، وتركوني آخذ قسطاً من الراحة.

صباحاً، وصل يوسف علان وكرمة النابلسي وتناولنا القهوة ورحنا نتحدث حول اللقاء وأسألهما عن شخصية الوزير ومن سيكون معه باللقاء. والحق يقال أنهما كانا دقيقين وجادين.

في العاشرة صباحاً اتصلت بالرئيس وأبلغته عن اللقاء المرتقب مع الوزير فقال لي:

ستكون هذه سابقة وفاتحة خير، وأعتمد عليك.

وأبلغته عن مضمون محادثتي مع السفير وأن كرمة النابلسي

ويوسف علان سيتوجهان معي إلى الخارجية لحضور اللقاء. فقال: على بركة الله.

في العاشرة والنصف حضر مسؤول من الخارجية البريطانية (ألن غولتي) ليرافقني للخارجية. قمنا بواجب الضيافة وتوجهنا للخارجية، كنت قد طلبت من يوسف علان استئجار سيارة رسمية مع سائق ليقلنا للخارجية ويعيدنا منها.

كانت السيارة بالانتظار. رسمية تماماً. وسائقها يقف فاتحاً الباب ويعتمر قبعة السائق البريطانية التقليدية (كاسكيت). كل شيء كان جيداً حتى تلك اللحظة.

أبلغ السائق أن عليه أن يكون أمام باب الوزارة في الحادية عشرة أو قبل ذلك بقليل. كنا هناك في الوقت المناسب، وقادنا ألن نحو مكتب الوزير والدغريف.

تصافحنا.. وقمت بتعريف كرمة النابلسي ويوسف علان، وقام هو بتعريف سير دافيد غوربوث وسيمون فريزر (الشرق الأوسط) وأضاف: طبعاً تعرفت إلى ألن.

وجلسنا متقابلين إلى طاولة الاجتماعات. وجلس الجميع.

لم يُطل والدغريف الكلام. لكنه ركز على اهتمام لندن الشديد بالبرنامج السياسي الجديد الذي تبناه المجلس الوطني. وأن هنالك قراراً بتطوير علاقة بريطانيا بمنظمة التحرير. وأن هذا اللقاء الأول من نوعه (على مستوى وزاري).

وراح يقرأ من ورقه مطبوعة كانت في ملفه ـــ فقرة سياسية واحدة تتحدث عن نبذ «م.ت.ف» للعنف وحق إسرائيل في العيش بأمان وخلف حدود آمنة ومعترف بها، وأن المفاوضات هي السبيل لإيجاد حل سياسي للصراع في الشرق الأوسط لخلق الاستقرار وصنع السلام.

بعد أن أنهى قراءة الفقرة قال: إذا وافقت على إعلان هذه الفقرة على الرأي العام فإني بدوري سوف أعلن ما يلي.. وتناول ورقة أخرى من ملفه وقرأ ما مضمونه:

أنه بناء على هذا الموقف الإيجابي من «م.ت.ف» فإن حكومة جلالة الملكة قررت الاعتراف بـ«م.ت.ف» والتعامل معها من أجل السلام في الشرق الأوسط آخذة بعين الاعتبار قرارات الشرعية الدولية والحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني.

فقلت له: عندي ملاحظة واحدة فقط.

فقال: تفضل.. فقلت: من الضروري ذكر الدولة الفلسطينية المستقلة.

فنظر فوراً إلى ألن الذي هبّ واقفاً وغادر الغرفة.

فيما بعد عرفت أن ألن كان عين وآذان رئيسة الوزراء مارجريت ثاتشر في ذلك الاجتماع. عاد ألن بعد دقيقتين ونظر إلى الوزير، الذي قال: تفضل أن تبقى الصيغة كما هي.

فسألت: ما هي وسيلة الإعلان عن ذلك؟

فقال: لقد رتبنا مؤتمراً صحافياً على مدخل الوزارة وفي حال موافقتك سنتوجه سوياً لملاقاتهم، كل منا يقرأ الجزء المتعلق به.

فقلت له: أنا موافق. لنذهب.

هبطنا للطابق الأرضي وفتح باب الوزارة لنواجه حشداً من الصحافيين والمراسلين، دعاني الوزير والدغريف إلى البدء بالإعلان. وكانت لفتة مهذبة وفي الوقت نفسه كانت تحفظاً، انتظاراً لسماع كل كلمة في تلك الورقة.

شكرته وتقدمت خطوة، ثم طويت الورقة ووضعتها في جيبي. نظر إليّ الوزير ويكاد الرعب يملأ عينيه. لم أعر ذلك اهتماماً وبدأت بشكر الوزير والحكومة البريطانية على إتاحة الفرصة لـ«م.ت.ف» بلقاء على مستوى وزاري، وأننا نأمل في تطوير العلاقة من أجل السلام في الشرق الأوسط، وحددت النقاط الثلاث الواردة في الورقة بلغتي أنا وليس بلغتهم هم، وعندما وصلت إلى نقطة حق إسرائيل بالعيش بسلام وخلق حدود آمنة قلت للصحافيين: بطبيعة الحال هذا هو أيضاً حق لكافة دول المنطقة بما في ذلك إسرائيل والدولة الفلسطينية القادمة والتي ستعيش جنباً إلى جنب مع إسرائيل بسلام.

بعدما أنهيت كلامي قرأ الوزير فقرته. وعدنا للداخل. عندها أمسك الوزير بذراعي وقال: لقد أخفتني عندما وضعت الورقة في جيبك. لكنك ذكرتها أفضل مما وضعناها.

ابتسمت وقلت له: وأدخلت الدولة الفلسطينية المستقلة. ابتسم هو بدوره وقال ولكن بطريقة دبلوماسية جيدة.

فقلت: إنها الآن مسجلة.

لمدة دقائق تبادلنا حديثاً قصيراً ونحن نشرب القهوة. وقمت بتوجيه دعوة له لزيارة تونس وللقاء الرئيس ياسر عرفات. فقال: أعتقد أن هذا ممكن ويسعدني، ولكن علي أن أبحثه في جلسة الحكومة وسأبلغك بالأمر.

ودعته والجميع، وسار وفدنا نحو السيارة الرسمية وعدنا للفندق.

وما إن دخلنا حتى علا الصراخ والضحك والتصفيق: لقد نجحنا.

وانهمكنا منذ تلك اللحظة في لقاءات مع جمعيات يهودية مؤيدة للسلام، وكان أهمها مع السيدة جون رئيسة الجالية اليهودية آنذاك، وكان لقاء جيداً جداً أكدت فيه السيدة جون على دعم الجالية اليهودية لحق الشعب الفلسطيني بإقامة دولته.

واندفعت الصحافة الغربية والعربية والإسرائيلية طلباً لمقابلات حول اللقاء وحول آفاق السلام.

شعرت أنني حققت نتيجة جيدة. وتكلمت مع الرئيس أخبره عما تم. فاستبشر خيراً وطلب مني العودة سريعاً لأطلعه على التفاصيل. وبالفعل عدت إلى تونس، وأبلغته التفاصيل وطلب مني المتابعة.

وبدأت الإعداد لتطوير العلاقة مع بريطانيا بالتعاون مع كرمة النابلسي ويوسف علان. فقد كان من المهم الاستناد لهذا اللقاء غير

المسبوق لرفع مستوى العلاقة والتمثيل الفلسطيني والتعاون دعماً لشعبنا وقضيتنا.

وأصبح العمل السياسي الإعلامي في بريطانيا على جدول أعمالي. وقمت بزيارة لندن عدة مرات التقيت خلالها مع مسؤولين بريطانيين وأعضاء برلمان وأعضاء من مجلس اللوردات.

ورتب لي لقاء مع لجنة العلاقات الخارجية في البرلمان البريطاني تحداني خلالها رئيس لجنة العلاقات الخارجية قائلاً: «م.ت.ف» تعلن أنها مستعدة لإقامة سلام مع إسرائيل على أساس قرارات الشرعية الدولية.. هل أنتم جاهزون لعقد لقاء مع الإسرائيليين لترجمة ذلك عملياً؟!

ابتسمت وقلت بهدوء (يفضله البريطانيون) بالطبع: نحن على استعداد. وأنا اطلب منك ترتيب هذا الأمر بصفتك رئيساً لهذه اللجنة.

فهب واقفاً وقال: اسمح لي أن أتصل بالسفير الإسرائيلي فوراً. كان يتوقع أن يرحب السفير الإسرائيلي بذلك. لكنه عاد وهو مصدوم قليلاً وقال: سيتصل السفير بتل أبيب ويبلغهم ذلك وسيرد لي جواباً.

وكان جوابهم آنذاك ــ كما أعلمني ــ الرفض. وتغيرت مواقف ذلك الرجل تدريجياً لأنه اكتشف أن ادعاء إسرائيل بأن الفلسطينيين لا يريدون السلام ولا التفاوض انكشف على حقيقته.

ودعيت لجامعة أكسفورد لألقي كلمة حول السلام. وقام اليهود المتطرفون بحشد قواهم لتطويق تأثير المحاضرة التي حضرها آلاف الطلبة في قاعة المحاضرات الكبرى في جامعة أكسفورد، وحيث كان عدد الواقفين أكثر من الجالسين لأهمية موضوع السلام في الشرق الأوسط وبرنامج «م.ت.ف» للحل السياسي.

وهكذا تتابع النشاط إلى أن ارتفع مستوى العلاقة ورتب لي لقاء مع وزير الخارجية حضره الوزير وليم والدغريف، ودافيد غوربوث. وهذه المرة حضر السفير الفلسطيني.

(٢١)

بين الجرأة والمجازفة مسافة قصيرة

ساد الفتور العلاقات الأردنية ـ الفلسطينية منذ ألغى المجلس الوطني الفلسطيني، في دورته التي عقدت في العاشر من نيسان/أبريل عام ١٩٨٧، اتفاق عمان الشهير.

وكان اتفاق عمان الذي وقعه الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية، ينظم بشكل مشترك التحرك السياسي دولياً وإقليمياً لإيجاد حل سلمي للصراع العربي ـ الإسرائيلي، قائم على أسس قرارات الشرعية الدولية (قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨) والحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني. وتحول الفتور تدريجياً إلى جمود يكاد يشبه القطيعة.

وفي العام ١٩٨٩، أي بعد إطلاق مبادرة السلام الفلسطينية في كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٨٨، انشدّ المجتمع الدولي

للمبادرة التي لم تكن مسبوقة في التاريخ السياسي الفلسطيني. واهتمت مصر (وهي أكبر دولة عربية ـ والدول التي وقعت اتفاق سلام مع إسرائيل)، بالمبادرة وراحت تحشد القوى العربية والإقليمية والدولية لتأييدها وإعطائها زخماً، في محاولة لشق طريق نحو سلام فلسطيني ـ إسرائيلي. وفي هذا الإطار رأت مصر أنه من الهام والضروري ألّا يبقى الجمود مسيطراً على العلاقات الأردنية الفلسطينية وأن يتحول هذا الجمود إلى حركة، وإن تدريجية، تعطي زخماً إضافياً لمبادرة السلام الفلسطينية.

عندما ألغى المجلس الوطني الفلسطيني اتفاق عمان، غضب الملك حسين، عاهل الأردن، وانعكس غضبه على المؤسسات الأردنية، وأغلقت كافة القنوات المباشرة بين الأردن و «م.ت.ف» وراحت مصر تحت الرئيس ياسر عرفات وقيادة «م.ت.ف» على إعادة بناء الجسور مع الأردن. لكنها أيقنت، بعد وقت، أن كافة الأبواب مغلقة، وأن على مصر أن تبادر إلى حركة سياسية ما، لتتحول إلى بداية إعادة بناء الجسور بين الأردن و«م.ت.ف».

منذ احتلال إسرائيل لما تبقى من الأرض الفلسطينية في العام ١٩٦٧، ألغيت من قاموسي الشخصي بعض التعابير ذات المضامين كتعبير «عطلة نهاية الأسبوع» أو تعبير «إجازة» وما زلت حتى الآن أعمل ليل نهار وعلى مدار الأسبوع، وكذلك الفريق الذي يعمل معي.

لكن القواعد الجديدة (منذ عام ١٩٦٧) لم تمنع اختراقاً حصل في فترة زمنية محددة تحت ضغط عائلي. والاختراق الذي أتحدث عنه

الآن تحول إلى حركة سياسية ساهمت في تعديل مسار سياسي في الشرق الأوسط.

ففي شهر تموز/يوليو عام ١٩٨٩ أصرت عائلتي على الذهاب إلى شاطىء البحر المتوسط، قرب الإسكندرية في مصر. وكان والد زوجتي يملك فيلا لطيفة تحيط بها حديقة واسعة في منطقة «سيدي عبد الرحمن» وهي منطقة قريبة من الحدود الليبية ــ المصرية، وبعيدة عن الإسكندرية، ومياه شاطئها نظيفة، ورمال الشاطىء ناصعة البياض.

وسر طفلاي (كرمة وعمر) سروراً عظيماً، فقد كانت من المرات النادرة التي أقضي فيها، معهم، عدة أيام دون أن أكون منهمكاً في عمل لا يتوقف. وسعدت بالتئام شمل العائلة في تلك البقعة الخلابة من شاطىء المتوسط.

بعد أربعة أيام من الاسترخاء على الرمال وسماع أغاني الطرب العربي، كنت أجلس على شرفة الفيلا أشرب القهوة، عندما وصلت للبوابة الخارجية للمنزل سيارة شرطة مصرية.

هبط منها ضابط مهذب، وسأل: الأستاذ بسام أبو شريف؟

فقلت له: نعم، تفضل.

شكرني، وقال إنه على عجلة من أمره، لأن لديه عملاً يؤديه.

وأبلغني أنه جاء ليبلغني رسالة.. فاقتربت منه.

«الرئيس عازمك على الفطار غداً صباحاً. الساعة السابعة والنصف

صباحاً، في مقره ببرج العرب».

برج العرب تحتضن واحدة من المقرات الصيفية لرئيس جمهورية مصر العربية، والموقع قريب من الإسكندرية.

شكرته قائلاً «يشرفني ذلك».

ابتسم وقال: سنأتي غداً في السادسة والنصف صباحاً لنصطحبك إلى برج العرب. وغادر الضابط المكان فوراً عائداً إلى عمله.

وفي اليوم التالي عاد في السادسة والنصف ليصطحبني إلى برج العرب.

كانت تلك المرة الأولى التي أزور فيها مقر الرئاسة المصرية الصيفي في برج العرب. ورحت أراقب المكان فيما تتحرك السيارة ببطء نحو هدفها. خالجني شعور بأنني أدخل معسكراً للجيش، نظيفاً وأنيقاً، الشجر والورد في كل مكان، والشوارع مغسولة والأرصفة لامعة الطلاء. وبين شارع داخلي وآخر تقف مجموعة من الحرس الجمهوري أو الانضباط العسكري بلباسها الجميل.

أوقف الضابط السيارة أمام مبنى بسيط وقديم، ودعاني للنزول.

الباب قديم لكنه نظيف وقد طلي حديثاً. وما إن اقتربت منه، حتى فتح فجأة وأطل منه الدكتور أسامة الباز مستشار الرئيس حسني مبارك للشؤون السياسية.

«أهلاً أهلاً بسام» قالها بصوته المميز، عالي النبرة.

عانقته وتوجهنا سوياً نحو حديقة جميلة، رتبت على طرفها طاولة خشبية قديمة أحاطت بها كراسٍ من قش كتلك التي كنا نستخدمها ونحن أطفال.

دعاني للجلوس واستأذن:

«سأعود بعد لحظات».

لحظات قليلة مضت قبل أن تفتح الأبواب ليخرج منها عدد من ضباط الأمن وبعدهم الرئيس حسني مبارك.

صافحني مرحباً وجلس على كرسي القش الصغير.

وأقبل علينا نادلان يلبسان ثياباً ناصعة البياض وسألا عما نريد أن نتناول. تم كل شيء بسرعة غير عادية وأخلي المكان لإتاحة الفرصة للرئيس مبارك للتحدث.

تحدثنا حول الأوضاع السياسية وحول الرؤية المستقبلية.

وخلص الرئيس مبارك إلى الموضوع الذي دعاني من أجله:

«عايزك تروح لتونس وأن تبلغ الرئيس ياسر عرفات الرسالة التالية:

«المحتاجة غناجة».

فقلت له: عفواً لم أفهم ماذا تقصد؟

فقال: الرئيس عرفات يعرف ماذا أقصد. هذا مثل مصري. وهو

خبير في الأمثال المصرية. قل له: «المحتاجة غناجة».

فقلت له: سأتوجه لتونس وأبلغه ذلك.

تابعنا الحديث. وكانت علاقات مصر بليبيا تشهد تأزماً حاداً بلغ حد الصراع. فاستأذنته بأن أبدي الرأي بموضوع الصراع مع ليبيا فرحب فوراً بذلك. قلت له، سيادة الرئيس لدي وجهة نظر قد لا تكون قابلة للتطبيق إلّا إذا تبنيتها أنت. وهي أن التعامل مع ليبيا وتحديداً الرئيس معمر القذافي يجب ألا يكون باللكمات بل بالعناق.

فنظر إليّ مستفسراً دون أن يعبر عن ذلك بالكلام.

فتابعت رأيي قائلاً:

مصر دولة كبيرة وتتحمل ما لا يمكن للدول الصغيرة أن تتحمله. وليبيا دولة غنية لكنها صغيرة. وهي بحاجة لمصر ورعاية مصر وربما حماية مصر لها. والكبير قادر على تحمل الصغير.

«أعبط معمر القذافي بدل من أن تلكمه». لأنه سيشعر أنه أصبح «بمصر» كبيراً. وأن حنان مصر يحمي ليبيا.

وفي الوقت ذاته يمكن لمصر أن تبحث مع ليبيا إنشاء مشاريع اقتصادية مشتركة. فليبيا تملك المال الذي تحتاج له المشاريع المصرية.

أبدى الرئيس حسني مبارك كل الاهتمام وركز على ما أقول.

وفجأة، نادى الرئيس حسني مبارك بصوت مرتفع طالباً حضور الدكتور أسامة الباز.

هرع الدكتور أسامة الباز نحو المكان. فبادر الرئيس مبارك بالقول «اسمع يا أسامة وجهة نظر بسام حول ليبيا». يقترح أن نعبط ليبيا بدلاً من لكمها. وطلب مني أن اشرح وجهة نظري مرة أخرى. ففعلت.

وتبنى الرئيس مبارك وجهة النظر فأصبحت سياسة رسمية كانت نتائجها خيّرة وإيجابية على الجميع.

غادرت في اليوم التالي «سيدي عبد الرحمن» للقاهرة، ومنها لتونس. وتوجهت فوراً لمقر الرئيس عرفات الذي كان غارقاً في العمل كالعادة. ونقلت له رسالة الرئيس مبارك.

فوضع قلمه جانباً، ونظر إليّ قائلاً «هو قال لك كده؟» فهززت رأسي تأكيداً.

فكر الرئيس قليلاً، وهو ينظر بعيداً. ثم نادى على الكابتن عدنان وأصدر له التعليمات بترتيب سفره لمصر. وأجريت اتصالات رسمية لترتيب موعد زيارة الرئيس عرفات للقاهرة.

كان هذا رد الفعل الأول على الرسالة التي نقلتها من الرئيس حسني مبارك للرئيس ياسر عرفات.

وتم الأمر.

مع بداية شهر رمضان المبارك هبطت طائرة الرئيس عرفات في مطار القاهرة. وتوجه الركب فوراً لمقر الرئيس ياسر عرفات المعروف «قصر الأندلس». في شهر رمضان تتبدل مواعيد اللقاءات لتنسجم مع تقاليد الشهر المبارك.

وكالعادة تضج مدينة القاهرة بالحركة بعد غروب الشمس ــ أي بعد الإفطار ــ وكذلك الحركة السياسية، فالمواعيد واللقاءات ترتب عادة، بعد غروب الشمس.

استقبل الرئيس حسني مبارك الرئيس عرفات ليلاً وتناول البحث الجهود السياسية المبذولة لفتح الطريق أمام حل سياسي في المنطقة يستند إلى قرارات الشرعية الدولية.

وركز الرئيس مبارك على ضرورة حشد القوى العربية لمساندة منظمة التحرير الفلسطينية في سعيها لفتح طريق المفاوضات لإنهاء الاحتلال وإقامة دولة فلسطينية مستقلة، جنباً إلى جنب مع دولة إسرائيل (حل الدولتين). ثم انتقل مباشرة إلى النقطة الجوهرية التي أراد أن يقنع الرئيس عرفات بها، وهي رأب الصدع في العلاقة بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية، وطلب منه بذل الجهد في هذا الاتجاه وأن يعانق الملك حسين ويفتح صفحة جديدة معه، خدمة للمصالح العربية العليا وخدمة للمصلحة الفلسطينية العليا.

وأضاف: أنتم بحاجة لدعم كل الدول العربية، لذلك عليكم القيام بالجهد اللازم وألا تنتظروا الآخرين ليقوموا بذلك. (من هنا جاء المثل الذي حملته من الرئيس مبارك للرئيس عرفات، المحتاجة غناجة. أي أن الذي يحتاج للعلاقة عليه أن يبذل الجهد لإقامتها، أو إصلاحها).

تقبل الرئيس عرفات رأي الرئيس مبارك بإيجابية. فانتقل الرئيس مبارك للشروع العملي، فأجرى اتصالاً بالملك حسين، واقترح عليه أن يستقبل الرئيس ياسر عرفات لإجراء مباحثات صريحة ومباشرة

حول الرؤية السياسية، والتحرك السياسي اللازم لشق طريق السلام عبر المفاوضات وعلى أساس قرارات الشرعية الدولية.

فرحب الملك حسين بذلك.

وبادر الرئيس مبارك بالقول، ما رأيك أن تتناولا طعام «السحور» سوياً (أي قبل بزوغ فجر اليوم التالي)؟ فرحب الملك حسين وتم الاتفاق.

عندما أنهى الرئيس مبارك اتصاله الهاتفي ابتسم الرئيس عرفات ابتسامة المحب وقال: لكن لدينا مشكلة أمنية، فالمعلومات الأكيدة لدينا هي أن الإسرائيليين يرصدون حركة طائرتنا، وعبورنا أجواء خليج العقبة يجعل من طائرتنا هدفاً في متناول الصواريخ الإسرائيلية.

كان الرئيس مبارك متحمساً لرأب الصدع الذي كان قائماً في العلاقات الأردنية ــ الفلسطينية. أجاب بهدوء: «خلاص تتوجه للأردن بطائرة عسكرية مصرية». ولم ينتظر أي تعليق، بل أصدر تعليماته بتهيئة طائرة عسكرية للتوجه إلى مطار عمان.

وصلنا مطار عمان في الثالثة صباحاً.

وكان الملك حسين على رأس المستقبلين، رغم أن الزيارة كانت زيارة عمل. ولم يكن مضطراً لاستقبال الرئيس ياسر عرفات على أرض المطار. ولكنه أراد أن يعبر عن مدى اهتمامه وترحيبه بزيارة الرئيس عرفات.

الدكتور أسامة الباز طار معنا إلى عمان، وكذلك سفير فلسطين لدى القاهرة سعيد كمال.

كان الملك حسين ظاهر السرور، ولباسه كان غير رسمي، مما أضفى جواً من الصداقة والشعور العائلي منذ اللحظة الأولى.

ودعا الرئيس عرفات للصعود إلى سيارته في المقعد المجاور لمقعد السائق، وتحرك سريعاً نحو مقعد القيادة، وانطلق نحو قصر بسمان وتبعناهم نحن ضمن الموكب غير الرسمي. بدت المسافة قصيرة جداً. فالشوارع كانت خاليه تماماً، في الثالثة والنصف، دخلنا القصر الملكي.

دعينا فوراً لمائدة الطعام. كان الطعام بسيطاً ويناسب الصائمين. لكن الدعوة للمائدة لم تكن للأكل فقط، بل أساساً للحوار فيما يتناول الصائمون طعام السحور الملكي.

دار حديث هادئ ومسؤول حول ما يمكن عمله في ظل الظروف الراهنة وفي ظل موقف الحكومة الإسرائيلية المتعنت والمناور بشأن مفاوضات السلام في الشرق الأوسط.

ولا شك أن الكلام لم يعبر صراحة عما يجول في خاطر كل طرف. فقد كان دبلوماسياً ونبرة الشعور بالمسؤولية والحرص كانت عالية جداً. وأدلى أسامة الباز، أكثر من مرة، بدلوه مستهدفاً تركيز النقاش حول اقتراحات محددة. لكن الكلام بقي عاماً وعائماً.

كان الملك حسين دمثاً ومنشرحاً. وكذلك كان الرئيس ياسر عرفات.

لكن توتراً غير معلن كان يطل على المائدة طوال الوقت. ويبدو أن الملك حسين شعر بذلك فعمل على توسيع دائرة المتحدثين. إذ التفت فجأة وسأل سعيد كمال عن رأيه. ورغم أن سعيد فوجىء بالسؤال أجاب بلغة دبلوماسية لم يخف على أحد، تشابهها مع لغة أسامة الباز الدبلوماسية.

والتفت الملك مبتسماً لي وقال:

لنسمع رأي الأخ بسام.

أجبته مؤيداً رأي الرئيس عرفات مبلوراً مشكلة كبيرة علينا جميعاً أن نواجهها، وهي قوى الضغط في الولايات المتحدة. واختتمت بالقول: في نهاية الأمر القرار سيكون أميركياً.

استحسن الملك حسين والرئيس عرفات الأفكار الأخيرة مما شجعني أن أقترح تعاوناً مشتركاً وجاداً في هذا الميدان، وأن ننشىء مؤسسة مشتركة للتعامل مع الأمر عبر شبكة علاقات عامة منظمة مع قوى الضغط في واشنطن.

انتهى اللقاء دون نتائج ملموسة أو قرارات، لكن النتيجة الكبيرة كانت كسر الجليد الذي تراكم على العلاقات الفلسطينية ـ الأردنية، وفتح باب جديد لاستمرار الحوار وربما التعاون.

وعدنا للقاهرة مع طلوع الفجر وتوجهنا مباشرة لتونس.

التقط ياسر عرفات الفرصة. فقد جاء اقتراح الرئيس حسني مبارك مناسباً تماماً لرغبة الرئيس ياسر عرفات في حشد القوى العربية، لدعم مبادرته للسلام وخوض غمار معركة المفاوضات السياسية.

خلال نضاله الطويل من أجل حرية شعبه واستقلاله، قام الرئيس عرفات في أكثر من مناسبة بتجاوز الخلافات مع بعض الدول، وطي صفحتها.

فتح صفحة جديدة في العلاقات الفلسطينية ــ العربية، تطلب جرأة لاتخاذ قرار شجاع وإن بدا للحظة مجازفة قد تكون مكلفة جداً. يمتلك عرفات الشجاعة لاتخاذ قرارات تخدم المصالح العليا للشعب الفلسطيني وإن بدت تنطوي على مجازفة كبيرة.

وتمكن الرئيس ياسر عرفات، في مناسبات تاريخية عديدة من تحريك الوضع السياسي بتغيير درامي في شبكة العلاقات العربية والعربية ــ الفلسطينية.

فقد فعل ذلك، بعد خروج القوات الفلسطينية من الأردن في العام ١٩٧١، باتخاذ قرار استراتيجي بإقامة تحالف مع سورية بقي قائماً ومتيناً إلى أن نشبت الحرب الأهلية في لبنان عام ١٩٧٥.

حينها هدد التدخل السوري مصالح الفلسطينيين. وكان عليه أن يحمي المصالح الفلسطينية بنقل مركز الثقل في العلاقات الفلسطينية

ـ العربية حتى لا تبقى «م.ت.ف» تحت ضغط مركز الثقل السابق أي سورية.

فأقام تحالفاً استراتيجياً مع العراق.

وفعل هذا بعد اضطراره للخروج من طرابلس (لبنان) حين أقدم على إعادة العلاقات مع مصر ليستعين بالرافعة المصرية لمواجهة المرحلة الجديدة والخطيرة التي نشأت بعد خروج القوات الفلسطينية من لبنان إثر الغزو الإسرائيلي في العام ١٩٨٢.

في تفكيره السياسي، كان حريصاً على عدم السماح بإغلاق دائرة العلاقات الفلسطينية ـ العربية. وكلما حاولت جهات ما إغلاقها، كان يسارع لاتخاذ قرارات شجاعة (ومجازِفة) لمنع إحكام ذلك الإغلاق وإبقاء الدائرة مفتوحة.

(٢٢)

كيف التقى آية الله الخميني

قبل سقوط الشاه في إيران كانت التنظيمات المناهضة للشاه تنشط داخل إيران وخارجها.

ومنذ أواخر الستينيات بدأت هذه المنظمات والفصائل الإيرانية اتصالاتها بفصائل الثورة الفلسطينية التي منحتها الدعم والحماية.

وراح عدد كبير من المجاهدين الإيرانيين يتوافدون على معسكرات التدريب الفلسطينية. لكن أغلبية المتدفقين من المجاهدين الإيرانيين المناهضين للشاه توجهت لمعسكرات فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وهكذا نمت على مدى السنوات علاقات وثيقة بين الفصائل الفلسطينية المقاتلة والفصائل الإيرانية المناهضة للشاه.

وبرزت من بين هذه الفصائل في منتصف السبعينيات الحركة الدينية التي قادها آية الله الخميني من منفاه الطوعي بباريس.

وأصبح واضحاً أن حركة الخميني هي حركة منظمة يلتف حولها ملايين الإيرانيين. وتسارعت وتيرة الاتصالات بين قيادات فلسطينية وآية الله الخميني، سواء كان ذلك في باريس حيث مقر الخميني أو في بيروت التي كان يزورها رجال الخميني تباعاً للتشاور والبحث.

من جانب الرئيس ياسر عرفات، كان أبو حسن سلامة هو المكلف بمتابعة الحركة الإيرانية وتلبية طلباتها ومد يد المساعدة لها. ومن جانب الجبهة الشعبية كان الدكتور وديع حداد القيادي الذي يتابع العلاقات مع الحركة الإيرانية ويفتح أمامها كل آفاق الدعم الممكن.

وكان آية الله الخميني يعتز بهذه العلاقة. ورغم لزومه الصمت أمام رجال الإعلام بباريس إلّا أنه منح في العام ١٩٧٨ مقابلة مطولة لمجلة «الهدف» الناطقة باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وتحدث فيها عن استراتيجيته لتغيير النظام في إيران وتأسيس نظام إسلامي يحكم بالعدل ويمنع الظلم ويرعى الفقراء ويطور إيران عبر مداخيلها الضخمة التي كانت تنهب من الشاه وحاشيته الفاسدة.

لم يحدد الخميني موعداً لقلب نظام الشاه في إيران لكنه بدا واضحاً أن الأمر بات وشيكاً.

بعد عام من تلك المقابلة التي تحدث من خلالها للشعب الفلسطيني وفي ١١ تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٧٩ توجه الخميني إلى طهران حيث استقبله ملايين الإيرانيين وحمل على أكفهم نحو

مدرسة كبيرة، كان أتباعه من أعدوها له لتكون مقراً مؤقتاً.

وفي بيروت، ما إن وصل الخبر إلى مسامع الرئيس ياسر عرفات حتى أصدر أمره باستئجار طائرة ليتوجه على متنها إلى طهران.

لكن شركة «الميدل إيست» اللبنانية لم يكن لديها آنذاك طائرة واحدة غير مشغولة على خط من خطوط الطيران. فأصدر أوامره للإعداد للتوجه إلى دمشق على وجه السرعة.

وبالفعل توجه موكبه الضخم لأن عدداً كبيراً من القيادات والكوادر رافقه إلى دمشق. غادر بيروت عبر البقاع إلى سورية. وفي دمشق أجريت اتصالات على عجل وتمكن مكتبه من استئجار طائرة.

حاولت الطائرة أن تأخذ إذناً بالتحليق فوق إيران والهبوط في طهران. إلّا أن طهران كما يبدو كانت قد أغلقت مجالها الجوي وأوقفت اتصال برج المراقبة بالطائرات بعد هبوط طائرة الخميني. لذلك تعذر بشكل مطلق أخذ الإذن بالتحليق والهبوط في طهران.

محاولات الاتصال دامت عدة ساعات، كان خلالها الرئيس ياسر عرفات ينتظر في مكتبه بدمشق نتائج تلك الاتصالات (مكتب كان يطلق عليه رقم ٢٣)، كان يهز ساقه كعادته، عندما يستغرق في التفكير أو يكون على وشك الإقدام على خطوة هامة أو على مجازفة خطرة.

وعندما أبلغه الأخوة الذين كلفوا بمتابعة الأمر، أن لا جدوى من

الاتصال مع برج مراقبة مطار طهران لأنه مغلق وأن عليه أن ينتظر حتى ينتهي إغلاق المجال الجوي الإيراني، وساد الصمت في مكتب الرئيس ياسر عرفات والكل ينتظر الكلمة منه. فكر الرئيس ياسر عرفات واستمرت ساقه بالحركة يمنة ويسرة.

فجأة كسر الرئيس الصمت وهبّ واقفاً وقال: لنتوجه للمطار. هل جهزت الطائرة؟ سأل الكابتن عدنان، طياره الخاص. فأجاب الكابتن:

ما إن نصل المطار حتى يكون كل شيء جاهزاً للإقلاع، وتوجه الموكب إلى مطار دمشق الدولي.

وفي قاعة الشرف في المطار جرى نقاش بين مدير الطيران المدني وقبطان الطائرة من جهة وبين الرئيس ومرافقيه من جهة أخرى.

كان مدير الطيران المدني متمسكاً بالقوانين. إذ لا يمكن لطائرة أن تقلع من مطار دمشق إلى مطار طهران دون إذن مسبق من مطار طهران ودون إقرار خط طيرانها مع الدول التي ستعبر أجواءها.

بعد ذلك النقاش قال الرئيس ياسر عرفات: أنا أتحمل المسؤولية. لنقلع فوراً.

وبالفعل أقلعت الطائرة وبعد ساعات دخلت المجال الجوي الإيراني.

لم تمض دقائق معدودة حتى أحاطت طائرات مقاتلة من طراز أف ـ ١٥ بطائرة الرئيس. وراحت تميل بأجنحتها في إشارة تعني أن

المقاتلات تطلب من الطائرة الهبوط الفوري.

وعندما أطلقت المقاتلات طلقات تحذيرية في الهواء هب الرئيس عن مقعده واقترب من النافذة التي تطل على المقاتلات وخلع الحطة وراح يحيي بها الطيارين الإيرانيين.

وكان المقصود أن يعرف الطيارون أن الطائرة التجارية التي اخترقت المجال الجوي الإيراني كانت تقل الرئيس ياسر عرفات. ويبدو أن الطيارين خاطبوا مركزهم الأرضي وأبلغوه المعلومات.

وبقيت المقاتلات تحيط بالطائرة صعوداً وهبوطاً، ومن الجانب الأيمن والأيسر. وبعد دقائق ساد فيها التوتر والترقب حرك الطيارون أجنحة طائراتهم بما يعني الترحيب. فقد أبلغوا قيادة الثورة الإيرانية بوصول الرئيس ياسر عرفات فجأة لأجواء إيران، دون إذن مسبق فرحبت قيادة الثورة الإيرانية بأول زعيم يصل أجواءها بعد أن سيطرت على إيران.

ابتسم الرئيس ياسر عرفات وراح الجميع يهيئون أنفسهم للهبوط.

هبطت الطائرة، وسارت على المهبط بالاتجاه الذي حدد لها. وعندما توقفت وأوقفت المحركات، كان عدد من القياديين في الثورة الإيرانية قد وصلوا وراحوا يقتربون من باب الطائرة الذي فتح ليطل منه الرئيس ياسر عرفات.

تعانق الجميع وتحرك الموكب فوراً نحو المدرسة الكبيرة التي كان يقيم فيها آية الله الخميني مؤقتاً. والحقيقة أن المدرسة ــ على كبرها

ــ كانت تعج بالقادة والكوادر والعلماء.

كان الجميع منهمكاً في عمل ما. والرسل تتحرك من وإلى مقر الخميني لتقديم التقارير أو لتبليغ الأوامر. خلية نحل لا تتوقف.

خصص قادة الثورة الإيرانية جناحاً واسعاً للرئيس ياسر عرفات والوفد المرافق له. ورحب المستقبلون به أحسن ترحيب، وراحوا يسألونه عن أوضاع الثورة الفلسطينية والأراضي المحتلة.

خلال الحديث، أحضر المضيفون للرئيس ياسر عرفات والوفد المرافق له الطعام والماء قائلين: لا بد أنها كانت سفرة طويلة. كان الأمر أبعد من إحضار الطعام لوفد لم يأكل منذ ساعات. كانت تلك مشاركة «العيش والملح».

وبعد نصف ساعة حضر أحد العلماء الشباب، وأسرّ بكلمة في أذن القيادات الإيرانية الموجودة في جناح الرئيس ياسر عرفات. فنهض القياديون فوراً وسألوا الرئيس ياسر عرفات أن يتفضل للتوجه إلى مقر آية الله الخميني.

أمضى الرئيس ياسر عرفات مع آية الله الخميني ساعة كاملة، تناولا فيها أوضاع الشعب الفلسطيني وكفاحه ومستقبل إيران.

وأكد الخميني أن إيران الثورة الإسلامية لن تدخر جهداً ولا مالاً ولا سلاحاً من أجل نصرة الشعب الفلسطيني وكفاحه العادل.
وقبل الوداع قال الخميني:

«بإذن الله سينتصر الشعب الفلسطيني أيضاً كما انتصر الشعب الإيراني».

وتوجه الرئيس ياسر عرفات والوفد المرافق له للمطار، واستقلوا الطائرة عائدين إلى دمشق. وهكذا كان الرئيس ياسر عرفات أول زعيم يدخل طهران ويلتقي بآية الله الخميني بعد قيام الثورة الإسلامية ووصول الخميني لطهران.

لقد اتخذ الرئيس ياسر عرفات قراراً بالوصول لطهران، وكان مستعداً لتذليل أي عقبة تعيق ذلك. وتحمل مسؤولية المجازفة لأنه يعلم معنى وأبعاد لقائه مع آية الله الخميني في تلك اللحظة. وهكذا كان، فقد حدد آية الله الخميني موقف الثورة الإيرانية الداعم لنضال الشعب الفلسطيني في كفاحه العادل. وأصبح قوله سياسة لا يمكن أن يحيد عنها أحد.

وتنامت العلاقات إيجاباً بين الثورة الإسلامية الإيرانية ومنظمة التحرير الفلسطينية من ناحية أخرى.

وقامت الثورة الإسلامية في مراحلها الأولى بمدّ يد الدعم للثورة الفلسطينية التي كانت قد قامت بدور داعم ومساند للفصائل الإيرانية المناهضة لشاه إيران قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران.

وكانت أمواج بشرية ايرانية تهتف للثورة الفلسطينية وتندد بالولايات المتحدة وإسرائيل. وقام آلاف من الثوريين الإيرانيين بمحاصرة السفارة الأميركية في طهران التي كانت تعج بالموظفين

والدبلوماسيين. واعتبر الثوريون جميع من هم داخل السفارة آنذاك معتقلين.

وحاولت إدارة كارتر أن تفك أسر هؤلاء عبر عملية إنزال في الصحراء القريبة انتهت إلى فشل ذريع. وعندها راحت جهات دولية وإقليمية عديدة تحاول التوسط للإفراج عن الدبلوماسيين لكن الجهة الأكثر قرباً من الثورة الإيرانية آنذاك كانت الثورة الفلسطينية التي لم تتحرك بهذا الاتجاه إلّا عندما طلبت دول أوروبية من الرئيس ياسر عرفات أن يجس النبض في هذا الموضوع.

لكن الرئيس ياسر عرفات كان حذراً جداً عندما أرسل من يجس النبض. فقد كان من شأن نجاح م.ت.ف. بأن تنهي احتجاز الدبلوماسيين الأميركيين آنذاك أن يرفع مكانة م.ت.ف. ودورها في الشرق الأوسط خصوصاً بعد أن رفض مناحيم بيغن مشاركة م.ت.ف. في مباحثات السلام التي انتهت بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد.

كان عهد الرئيس كارتر على وشك الانتهاء. وكان الحزب الجمهوري قد قرر ترشيح رونالد ريغان لمنافسة جيمي كارتر على الرئاسة.

وشهدت الولايات المتحدة حملات انتخابية شعواء. فقد كان كارتر قد بنى رصيداً كبيراً بنجاحه في إتمام اتفاقية كامب ديفيد وكان من الصعب على رونالد ريغان أن يطيح به.

وعمل كارتر جهده الجهيد عبر حلفائه الأوروبيين لطرق كل باب

ممكن للإفراج عن المعتقلين في سفارة الولايات المتحدة بطهران.

فقد قدر مستشاروه في الحملة الانتخابية أن مثل هذه الخطوة سوف تقضي تماماً على فرص رونالد ريغان في الفوز رغم الدعم المالي الكبير الذي قدمته كبريات الكارتيلات (خاصة المجمع الصناعي العسكري وكارتيلات النفط) لحملته الانتخابية.

وكذلك قدر مستشارو ريغان للحملة الانتخابية. ولذلك راحوا يعملون لتأجيل أي إفراج عن المعتقلين في السفارة الأميركية بطهران قبل الانتخابات حتى لا تصبح فرص ريغان في الفوز ضئيلة.

وكان أحد أصدقاء ريغان ومن كبار من أدار حملته الانتخابية أميركياً من أصل سوري من عائلة شاهين. فكلفه ريغان بالعمل على تأخير الإفراج عن المعتقلين لما بعد الانتخابات.

وكانت قد وصلت معلومات لمديري حملة ريغان الانتخابية ولمسؤولي الحزب الجمهوري أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الجهة الوحيدة المؤثرة في الوساطة للإفراج عن المعتقلين.

وأنه إذا أراد ريغان أن يقنع المنظمة بتأجيل الوساطة فإن عليه أن يقطع لها وعوداً سياسية. واعتبر ريغان أن شاهين هو الأنسب بسبب جذوره العربية للقيام بهذه المهمة.

مايك بسيسو أميركي فلسطيني الأصل. كان يعمل لدى شاهين الذي لم يكن يخاطب الرئيس ريغان إلا باسمه المختصر «روني» لقربه الشديد منه وعلاقته الحميمة معه. وكان يقضي عطل نهاية

الأسبوع عائلياً في مزرعة رونالد ريغان.

استدعى شاهين مايك بسيسو ورسم معه خطة التحرك ومصاريف تلك الخطة. وأرسله إلى بيروت في مهمة استطلاعية مع منظمة التحرير الفلسطينية.

اتصل مايك بسيسو بي ولم يفصح عبر المكالمة ما الذي يريده لكنه طلب موعداً للقائي لأمر غاية في الأهمية. وعندما حضر لمكتبي الكائن آنذاك في كورنيش المزرعة ببيروت الغربية أدركت أن الموضوع هام.

فالرجل يحمل رسالة من رونالد ريغان يطلب فيها تأجيل الوساطة للإفراج عن المعتقلين في سفارة الولايات المتحدة بطهران مقابل وعد «بفتح أبواب البيت الأبيض لمنظمة التحرير الفلسطينية عند فوز رونالد ريغان».

قلت له «أمهلني بعض الوقت فعليّ أن أتحدث بهذا الأمر مع قادة آخرين» دون أن أسميهم.

وقبل مغادرته مكتبي اتفقنا على الاتصال مساء.

توجهت لمكتب الرئيس أبو عمار وأبلغته بالموضوع. فنظر إليّ وملء نظراته علامات دهشة واستفسار. فقلت له: هذا ما قاله الرجل.

وطلب مني أن أحدد للرجل موعداً في الواحدة بعد منتصف الليل في منزلي العائلي.

أحضرت مايك بسيسو في الثانية عشرة والنصف ليلاً. ورحنا ننتظر وصول الرئيس ياسر عرفات.

عند الواحدة تماماً دخل منزلي عدد من مرافقي الرئيس ياسر عرفات على رأسهم فتحي ــ الذي أصبح لاحقاً نائب قائد القوة البحرية الفلسطينية في غزة ــ وقال لي: الرئيس قادم بالمصعد. وقفز المرافقون الدرج قفزاً وسبقوا وصول المصعد إلى بيتي.

دخل الرئيس مبتسماً ومحيياً، فهب مايك بسيسو يصافح ويعانق يكاد نَفسه ينقطع من هيبة اللقاء.

فطلب منه الرئيس أن يجلس وأشار للمرافقين فخرجوا من الغرفة.

روى مايك للرئيس ما روى لي، وكان الرئيس قد أخرج من جيبه دفتر الملاحظات «الأخضر» الذي يدون فيه ملاحظاته الهامة فقط اثناء لقاءاته السياسية أو غيرها.

وراح يدون ما يقوله مايك. وعندما انتهى مايك من الكلام نظر الرئيس ياسر عرفات له قائلاً: سنرى.

وتحرك الرئيس باتجاه الباب للخروج ورافقته مودعاً. توقف والتفت إليّ وقال: «استفسر عن إمكانية الحصول على رسالة رسمية بهذا المعنى».

وغادر المكان.

سألت مايك حول هذه الإمكانية فأجاب: سأستفسر ثم أجيبك.

وافق ريغان على إعطاء الرسالة لكنه لم يف بوعده تحت مختلف الأعذار. ولكن عندما طلبت إسرائيل ضوءاً أخضر من ريغان لاجتياح جنوب لبنان عام ١٩٨٢ لمسافة أربعين كيلومتراً شمالي الحدود بينها وبين لبنان.. قال ريغان لشارون الذي كان وزيراً للدفاع «إذا كان الموضوع حماية بلداتكم فافعلوا لكن بسرعة، وإذا فشلتم فعليكم التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية».

(٢٣)

من جنوب أفريقيا إلى ناميبيا

الإفراج عن نلسون مانديلا في ١١\٢\١٩٩٠ كان حدثاً تاريخياً ومؤثراً إلى أبعد حد من الناحيتين السياسية والعاطفية المعنوية.

فقد قضى في السجن أكثر من ربع قرن وتحول إلى رمز أفريقي عالمي لمناهضة العنصرية من أجل الحرية وحقوق الإنسان.

عندما أبرقت وكالات الأنباء على عجل نبأ الإفراج عنه، كنت في مكتب الرئيس بتونس (يوغورتا) أتابع العمل معه (والعمل لا ينتهي ولا يتوقف في مكتب الرئيس عرفات).

فقمت بإبلاغه بالنبأ فوراً. توقف عن قراءة أوراق ملفه اليومي ونظر إليّ قائلاً:

هذا حدث عظيم وبداية تحول استراتيجي في جنوب القارة الأفريقية، ولا شك أنه سيعكس نفسه على الأجواء السياسية العالمية باتجاه حل المشاكل العالقة في مناطق مختلفة من العالم.

هززت رأسي تأييداً وقلت لنفسي يجب أن نربط قضيتنا بطريقة ما بهذا الحدث، فطالما شبهنا النظام: في إسرائيل بنظام «الأبارتهايد» في جنوب أفريقيا.

غادرت مكتب الرئيس وأنا أفكر بالأمر. وخطر لي أن أفضل بداية هي أن يكون الرئيس ياسر عرفات أول مهنئي نلسون مانديلا على الخروج من السجن واستعادة حريته، وأن يؤكد لمانديلا أن كفاحه وكفاح شعبه هو جزء لا يتجزأ من كفاح الشعوب لنيل حريتها وحقوقها، وأن كفاح شعبنا من أجل الحرية والاستقلال هو كذلك أيضاً.

ولكن كيف الاتصال بنلسون مانديلا؟

لقد خرج من السجن فكيف نعثر عليه؟

لا شك أنه توجه فوراً لمعانقة أنصاره وأبناء شعبه في سوثيو مدينة الفقراء السود. هكذا فكرت.

توجهت على عجل إلى مكتبي (القريب من مكتب الرئيس) لأبحث عن رقم هاتف صديق في جوهانسبرغ.

الصديق كان سكوت ماكلاود مدير مكتب مجلة «التايمز» في جنوب أفريقيا. وكان سكوت قبل نقله إلى جنوب أفريقيا، مدير

مكتب مجلة «التايم» في الشرق الأوسط، وربطتني به علاقة صداقه متينة على مدى الأعوام الطويلة التي قضاها متنقلاً بين بلدان الشرق الأوسط. ومَن أفضل من سكوت ماكلاود ليرشدني إلى مكان وجود نلسون مانديلا في تلك اللحظة، فاتصلت به هاتفياً على الفور. لحسن الحظ كان سكوت في مكتبه. وبعد التحية طلبت منه أرقام هواتف يمكن أن تقودني إلى نلسون مانديلا.

فأجابني سكوت إن مانديلا توجه إلى بيته في سوثيو برفقة زوجته بعد احتفال شعبي وأُبلغ المراسلون أنه يريد أن يرتاح وأن ينام قليلاً لأنه كان متعباً جداً. وزودني سكوت بأرقام هواتف يمكن أن توصلني به، ومنها هاتف مبيكي الذي أصبح رئيساً لجنوب أفريقيا بعد اعتزال مانديلا الرئاسة.

اتصلت به وكان غاية في اللطف والانفعال العاطفي. وأعجب جداً بالفكرة، وزودني برقم هاتف منزله في سوثيو وقال لي إنه يرتاح في المنزل لكنني متأكد أنهم سيوقظونه ليكلم الرئيس عرفات.

هرعت بعدها عائداً لمكتب الرئيس، الذي انتقل من مكتبه الواسع في الطابق الأرضي من مقره في «يوغورتا» إلى مكتبه الصغير، قرب غرفة نومه، في الطابق العلوي من المبنى.

وهو ينتقل عادة إلى مكتبه الصغير هذا عندما يريد أن يختلي إلى نفسه أو يختلي مع أوراق ملفه، أو تحضيراً للقاء يريده أن يكون مكتوماً وخاصاً.

صعدت للطابق العلوي ودخلت مكتبه الصغير.

كان منكباً على ملفه ولم يتوقف عن ذلك حينما دخلت. وشرحت له الفكرة وأنني سأرتب الاتصال خلال دقائق. وكعادته، كان يتابع أوراق ملفه، ويستمع لما أقول. وعندما أنهيت شرح الفكرة نظر إليّ مبتسماً وقال: فكرة رائعة. فهبطت الدرج مرة أخرى وتوجهت نحو غرفة الاتصالات وطلبت الرقم. حاولت عدة مرات لأن خط الهاتف كان مشغولاً. ولكن في آخر الأمر تمكنت من الاتصال. رد علي أحدهم ثم تناولت زوجة مانديلا السماعة. ورحبت بفلسطين كثيراً وقالت لي: سأوقظه حالاً.

صعدت الدرج راكضاً وقلت للرئيس، زوجة مانديلا ستوقظه للتحدث معك.

وضع الرئيس قلمه جانباً وانتظر متحمساً، فيما أنا أنتظر صوت مانديلا. وجاء صوته بحة خفيفة، حييته وقلت له:

أيها البطل، الرئيس ياسر عرفات سيكلمك.

وأمسك الرئيس بالسماعة ودار الحديث لدقائق. وانتشر الخبر بعد ساعة في كل أنحاء العالم.

كان حدثاً مهماً أن يتصل الرئيس ياسر عرفات وهو قائد لحركة تحرر وطني، وتمكن من تحويل قضية فلسطين إلى قضية عملاقة وأصبح هو عملاقاً تحررياً عالمياً استناداً لقضية شعبه العادلة، وأن يتحدث إلى عملاق آخر من عمالقة التحرر الوطني ومناضل عالمي ضد التفرقة العنصرية ولتحرير شعبه من نير النظام العنصري.

ولطالما شبه المحللون والمؤرخون جنوب أفريقيا في ظل النظام العنصري بإسرائيل.

هكذا تلاقى العملاقان واتفقا على اللقاء في أقرب فرصة.

خرجت من مكتبه الصغير مرتاحاً لنجاح الجهد وعدت لمكتبي.

واتصلت بصديقي سكوت ماكلاود لأشكره، فكان هو الآخر سعيداً لنجاح الجهد. وأبلغني أن القادة الأفريقيين سوف يجتمعون في بلد أفريقي مجاور ليستقبلوا مانديلا لتهنئته بالحرية وكسر القيود التي كبلته لأكثر من عقدين من الزمن. ووعدني بإعلامي عن المكان حال اتخاذ القرار.

أنهيت بعض الأعمال الملحة وتوجهت لمكتب الرئيس، أبلغته بما سمعته من سكوت ماكلاود. وقلت له: إن منظمة التحرير الفلسطينية عضو في منظمة الوحدة الأفريقية. وأعتقد أنه من الضروري أن تكون هناك عندما يستقبل القادة الأفارقة نلسون مانديلا.

هز رأسه موافقاً. وطلب من سلمان الهرفي (مسؤول أفريقيا في الدائرة السياسية) أن يتابع الموضوع، ليعرف أين ومتى سيتم اللقاء، وإبلاغ سكرتارية منظمة الوحدة الأفريقية موافقة الرئيس على المشاركة في استقبال نلسون مانديلا.

هبطنا في مطار لوساكا عاصمة زامبيا في ١٥\٢\١٩٩٠، حيث تجمع الرؤساء الأفارقة لاستقبال العملاق نلسون مانديلا. الجميع كان ينتظر وصول مانديلا من جنوب أفريقيا.

وضع الزامبيون منصة خشبية على أرض المطار، قبالة المكان الذي ستقف فيه الطائرة التي تقل نلسون مانديلا، ليقف عليها رؤساء أفريقيا، تحيةً لمانديلا، ولالتقاط الصور التاريخية، التي ستسجل الحدث الكبير.

كان الجميع يعلمون أن الإفراج عن مانديلا هو المقدمة الضرورية لبداية إنهاء نظام الأبارتهايد (النظام العنصري في جنوب أفريقيا).

تقدم الرئيس نحو الموقع الذي تجمع فيه الرؤساء الأفارقة (لم يتمكن الجميع من الحضور) وصافحهم ووقف معهم يتبادلون الحديث انتظاراً لمانديلا. بقيت أنا على مقربة من تجمع الرؤساء أتحدث مع عدد من الصحافيين الذين جاؤوا لتغطية الحدث. وكان بينهم صديقي سكوت ماكلاود مدير مكتب مجلة «التايم» الأميركية في جنوب أفريقيا.

قال سكوت: إنه حدث هام.

أجبته: الحدث الهام هو لقاء مانديلا وعرفات.

ضحك سكوت قائلاً: أنت تبالغ دائماً بأهمية عرفات. إن أفريقيا بأسرها مجتمعة اليوم لاستقبال مانديلا وهذا هو الحدث.

فأجبته ضاحكاً: هذا صحيح، لكن العنوان سيكون مانديلا وعرفات.

وسألني فوراً: أتشارطني على هذا؟

قلت له: بالطبع.

وكان الشرط دعوة عشاء.

كان الاستقبال عاطفياً جداً. وعُزفت الموسيقى الأفريقية وقام مئات من الشابات والشبان بتقديم عروض للرقص الشعبي من مختلف أنحاء أفريقيا. وكانت جميعها رقصات الفرح والاحتفال.

غادرنا لوساكا في اليوم نفسه ولذلك لم أتمكن من حسم الشرط الذي اتفقت عليه مع صديقي سكوت ماكلاود.

لكنه اتصل في اليوم التالي من جوهانسبرغ ليقول لي: لقد كسبت الرهان. الصورة والعنوان كانا لعناق عرفات ومانديلا.

وبدأت في جنوب أفريقيا مفاوضات معقدة ومضنية لإقامة نظام ديموقراطي جديد، يلغي العنصرية، ويقوم على الحرية والديموقراطية والتعددية السياسية، ويحفظ حقوق أهل البلاد والمولدين ممن استعمروا واستوطنوا جنوب أفريقيا.

وخلال هذه المفاوضات المعقدة في جنوب أفريقيا كانت تجري مفاوضات أخرى أقل تعقيداً وإن كانت ذات طبيعة مشتركة. تلك كانت المفاوضات لإيجاد صيغة مشتركة بين أهل البلاد والمولدين في ناميبيا.

سام نجوما، زعيم حركة التحرير الناميبية كان صديقاً حميماً للرئيس ياسر عرفات. وكانت حركته و «م.ت.ف» تؤيدان بعضهما البعض ويناضلان من أجل الحرية سوياً وتمدّان يد المساعدة الواحدة للأخرى.

كان دعم الرئيس عرفات للحركة التحررية الناميبية ولسام نجوما

زعيمها مشهوداً له. هذا جانب من شخصية واستراتيجية الرئيس ياسر عرفات، لم يكن معروفاً على نطاق واسع. وهو غير معروف على نطاق واسع حتى الآن.

لكنه كان هاماً جداً. ومن خلاله تمكنت «م.ت.ف» من عزل إسرائيل عزله تامة في القارة الأفريقية، رغم كل محاولاتها اختراق هذه العزلة عبر عروض سخية لمساعدة الدول الأفريقية في ميادين متعددة كالزراعة، والطب، والاستثمار الخارجي.

وأصبحت القضية الفلسطينية بفعل هذا الجهد من القضايا الهامة لدى دول أفريقيا. لا بل اعتبرتها منظمة الوحدة الأفريقية قضيتها أيضاً.

ونجحت «م.ت.ف» بإقناع الدول العربية ومستثمرين عرب بالتحرك الفاعل للتعاون مع أفريقيا وإقامة صلات وثيقة وتوقيع اتفاقات مشتركة لمساعدة الدول الأفريقية وتوثيق العلاقات بين الدول العربية والدول الأفريقية.

وأصدر الرئيس تعليماته للجهات المعنية للتفكير استراتيجياً بالاستثمار في الدول الأفريقية، بمشاريع تعود بالخير والفائدة على الشعوب الأفريقية. وكان لهذا أثر كبير ووقع مؤثر لدى الدول والجماهير الأفريقية.

لقد رافقت الرئيس في عشرات الزيارات لدول أفريقيا. و لا شك أننا نستطيع القول إن الرئيس ياسر عرفات هو الرئيس الذي زار الدول الأفريقية أكثر من أي رئيس آخر بما في ذلك الرؤساء

الأفارقة. لقد اعتبر، وهو محق، أن العوامل التي تجمع أفريقيا بالعرب عوامل عديدة. فإضافة لكون عدد من الدول العربية الكبيرة كمصر والسودان والجزائر وليبيا والمغرب وتونس وموريتانيا دولاً أفريقية، كانت للعرب علاقات تاريخية مع أفريقيا، وكان العرب أول من استكشف أفريقيا، وهبطوا على سواحلها.

والرئيس ياسر عرفات ملمّ بهذا التاريخ.

وكنت أطرح عليه أسئلة حول بعض الدول الأفريقية كلما طرنا لأفريقيا. وعلى سبيل المثال، لم أكن أدري أن موزامبيق كانت تسمى أصلا موسى بن شفيق (اسم مكتشفها) ومع الأيام ومرور الزمن لفظ اسم موسى بن شفيق: موزامبيق.

وفي إحدى رحلاتنا الطويلة حدثني مطولاً وبمعرفة أدهشتني، عن تاريخ حضرموت الإمبراطوري وكيف وصل أسطولهم إلى سنغافورة، وكيف أن وسط سنغافورة حتى الآن يعج بالمباني القديمة وأنها وقف إسلامي (يمني). وحدثني عن وصولهم إلى إندونيسيا وأن وزير الخارجية الإندونيسي (العطاس) آنذاك هو احد أبناء عمومة أبو بكر حيدر العطاس رئيس وزراء اليمن في ذلك الحين.

حجم المعلومات والمعرفة لدى الرئيس ياسر عرفات غير معروف للعالم ولا حتى لكثير من المقربين منه. لكنني كنت محظوظاً عبر مرافقتي له كل هذه السنوات للتعرف على الكمية الغنية من المعلومات والمعرفة التي يخزنها.

ولعب الرئيس مرات عديدة دوراً هاماً مؤثراً في نزع فتيل خلافات أفريقية - أفريقية كادت تؤدي إلى حروب.

عندما توصلت الأطراف لاتفاق حول استقلال ناميبيا، كان أول المدعوين الرئيس ياسر عرفات. فصديقه سام نجوما لم ينس أبداً العلاقة الكفاحية الحميمة بين الفلسطينيين والناميبيين.

كذلك دعي قادة العالم لحضور الحفل الذي شق طريق إنهاء النظم العنصرية في أفريقيا. من بين المدعوين الرئيسيين كان «دي كلارك» رئيس وزراء جنوب أفريقيا التي كانت حتى تلك اللحظة عنصرية (لكن المفاوضات المعقدة كانت دائرة لتغيير النظام وخلق نظام ديموقراطي يمكّن أهل البلاد من التمتع بحريتهم وحقوقهم).

كذلك كانت رئيسة وزراء إنجلترا مارجريت ثاتشر هناك ووزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر وضيوف كبار آخرون.

رافقنا الرئيس إلى ناميبيا لحضور حفل الاستقلال يوم ١٥\٢\١٩٩٠.

طوال فترة الطيران كانت مشاعري تضج بالسعادة وكأننا نتوجه إلى حفل استقلال فلسطين. فقد ربطتنا بالمناضلين في ناميبيا وسام نجوما على الأخص علاقة كفاحية وثيقة. وتذكرت ـ ونحن في سماء أفريقيا ــ يوم دعي سام نجوما إلى «سرت» المدينة الليبية «الجديدة» لحضور مؤتمر دعا له رئيس ليبيا العقيد معمر القذافي. لم يتمكن سام نجوما من الوصول إلى سرت بسبب عدم توفر طائرات في تلك الساعة. وكان هاماً جداً أن يصل نجوما لحضور المؤتمر في الوقت

المناسب. فطلب مني الرئيس أن أستأجر له طائرة خاصة صغيرة لنقله هو ووفده إلى سرت... وأضاف: من الضروري أن تسافر معه إلى سرت، احتراما له وحتى لا تضيع الأمور عندما يصل سرت.

فعلت. ورافقته إلى سرت وقاعة المؤتمر، وتأكدت أن كافة الترتيبات له ولوفده قد تمت.

كما عمل الرئيس على فتح أبواب للمناضلين الناميبيين مع عدد من الدول العربية التي أمدتهم بالمساعدة.

هبطنا من سماء أفريقيا الساحرة إلى أرض ناميبيا. لم تشهد ناميبيا ازدحاماً دولياً كما شهدته في ذلك اليوم. وبذلت جهود جبارة لاحتواء الحشد ولتنظيم هبوط الطائرات. وتوجه الضيوف للمدرج الكبير حيث يقام حفل الاستقلال.

وبسبب هذا الازدحام أخطأ برج المطار وأنزل طائرة الرئيس في مكان بعيد عما هو مقرر. ثم طلب من الطيار الإقلاع مجدداً والهبوط في موقع آخر.

توجهنا بسرعة شديدة في موكب رئاسي إلى المدرج (ملعب رياضي كبير) وكان الازدحام هناك أكبر بكثير مما تخيلت، لدرجة أنني شعرت بالاختناق بين الأجساد الضخمة لرجال الأمن. رجال أمن أميركيون، بريطانيون، جنوب أفريقيين، أفارقة بالطبع، ورجال أمن فلسطينيون.

أحاط ضباط الأمن الفلسطينيون بالرئيس وشكلوا حوله طوقاً أثناء

دخوله الجناح من ذلك الاستاد المخصص للرؤساء ورؤساء الوزراء والوزراء والذي كان على طرفي المنصة الرئيسية التي جلس فيها سامي نجوما، يحيط به الأمين العام للأمم المتحدة ورئيس وزراء جنوب أفريقيا آنذاك دي كلارك.

تمكن الرئيس بعد جهد من الوصول إلى المقعد المخصص له إلى جانب الرئيس حسني مبارك ورئيسة وزراء بريطانيا مارجريت ثاتشر، فيما جلس وراءه مباشرة جيمس بيكر وزير خارجية الولايات المتحدة.

قبل جلوسه، جال الرئيس عرفات ينظر في محيطه ويبتسم وكأنما يحيّي الجميع. ثم جلس ليتابع الحفل.

كان حفلاً طويلاً تخللته خطابات وموسيقى ورقص وإعلان الوزارة المشكلة من أهل البلاد والمولدين فيها.

وقبل نهاية الحفل أعلم الجميع عن طريقة المغادرة وأن الملتقى سيكون في قاعة حفلات في المدينة، يليه عشاء رسمي.

وبدأ الرؤساء والوزراء بالمغادرة. وكنت أقف على الدرج الفاصل بين جناحي ذلك القسم منتظراً خروج الرئيس بدوره. وعندما اقترب من الممر همست مشيراً عليه بأن يصافح سام أمام الجميع وأن هذا هام (كان قد أعلن أن التهنئة ستتم في قاعة الاحتفالات).

ولم يتردد الرئيس لحظة. استدار وتقدم نحو المنصة الرئيسية، فهب

سام نجوما واقفاً وقال «يا أخي» ووقف الأمين العام للأمم المتحدة ودي كلارك، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يصافح فيها الرئيس دي كلارك رئيس وزراء جنوب أفريقيا.

وفيما نحن نسير نحو موقف السيارات أمسكتْ يد بذراعي. التفتّ فإذا هو صديقي سكوت ماكلاود من مجلة «التايم» الأميركية مرة أخرى.

ضحك سكوت وقال لي: لا تقل هذه المرة إن الصورة والعنوان سيكونان حول عرفات ونجوما.

قلت له: أضاعف الشرط.

وكان الأمر كذلك. فمن «نيويورك تايمز» لكافة الصحف كانت صورة مصافحة الرئيس لدي كلارك ونجوما هي الخبر الأهم ضمن الاحتفال باستقلال ناميبيا.

وصلنا إلى قاعة الاحتفالات التي كانت عبارة عن قاعات واسعة للضيافة الرسمية. دخلنا أولاً إلى القاعة الكبيرة الأولى حيث أقيم حفل كوكتيل، قدم خلاله الضيوف التهاني، وكذلك فعل الرئيس ونحن من ورائه. وتفرق الجميع مجموعات مجموعات يتناولون شرابهم ويتحدثون في أمور مختلفة.

وأقبل على الرئيس الأمينُ العام للأمم المتحدة، يسير إلى جانبه رئيس وزراء جنوب أفريقيا دي كلارك. تمت المصافحة والتعريف بشكل مهذب ولائق. وبدأ الحديث دي كلارك فقال موجهاً كلامه

للرئيس: نريد منك أن تساعدنا لإقناع مانديلا بأن يكون معتدلاً وألا يتشدد. قالها وهو يضحك.

فأجابه الرئيس ضاحكاً أيضاً:

ونريد منك مساعدتنا لإقناع الإسرائيليين بالانسحاب من أرضنا.

وضحك الجميع.

وسأل الرئيس عن سير المفاوضات، فأبدى دي كلارك تفاؤلاً بقرب التوصل لاتفاق.

ثم تحدث الرئيس مع الأمين العام للأمم المتحدة حول الأوضاع المأساوية في الأراضي المحتلة (والجميع يستمع). ووعد الأمين العام بالتشاور مع الدول الأعضاء حول زيادة دعم الأونروا لمساعدة المخيمات الفلسطينية.

ونادى مسؤول عبر الميكروفون الضيوف للتوجه إلى قاعة الطعام المجاورة لتناول طعام العشاء. وتوجه الرؤساء والوزراء ببطء نحو قاعة الطعام. وفيما الرئيس يهم بالعبور عانقه نجوما قائلاً: اسمك على طاولة الرؤساء الرئيسية.

كانت المائدة الرئيسية قد وضعت على منصة وجلس إليها الرؤساء ورؤساء الوزراء. فجاء موقع الرئيس قريباً من مقعد مارجريت ثاتشر. وجلس الوزراء إلى طاولات صغيرة في قاعة كبيرة أمام منصة الرؤساء.

جلسنا كل إلى مقعده المخصص (بالاسم) ورحت أراقب جيمس بيكر الذي كان يجلس إلى الطاولة القريبة مني.

ولا أدري إذا أحس بيكر بنظراتي لكنه التفت فجأة نحوي فابتسمت وابتسم هو وكأنه يسأل من أنت؟ فقلت له بصوت أردت أن يسمعه من يجلس قربنا:

الآن جاء دور فلسطين.

أجاب بسرعة: أرجو ذلك.

وقرر الرئيس أن نعود إلى تونس في اليوم التالي ليتمكن من عقد بعض اللقاءات مع الرؤساء ورؤساء الوزارات.

وعدنا من ذلك الحفل الشيق سعداء ينتابنا شعور بأنه انتصار لنا.

وما إن عدت إلى مكتبي حتى اتصلت بصديقي سكوت ماكلاود وقلت له: أنت مدين لي بالعشاء مرتين. وضحكنا ثم قال متعجباً: لا أدري كيف يخطف الرئيس عرفات الخبر.

فقلت له: حيث يكون.. يكون الخبر.

غاندي ـ عرفات سجل حميم

ربطت الرئيس عرفات علاقات ود واحترام مع عدد من القيادات العالمية. واكتسب ياسر عرفات مزيداً من الاحترام والتقدير بسبب إخلاصه ووفائه لأصدقائه، خصوصاً في ظل الظروف الصعبة التي تعرّض لها هؤلاء الأصدقاء في بعض الأوقات. والظروف الصعبة هنا تعني الكثير. فقد تعرض بعضهم للاغتيال وتركت عائلاتهم دون راع.

وبعضهم تعرض لهجمات وانقلابات وشرد. لكن الرئيس ياسر عرفات كان دائماً وفياً لأصدقائه وأميناً على عائلاتهم وبذل كل ما أمكنه (ضمن إمكاناته) لمساعدة هذه العائلات وأصدقائه.خصلة الوفاء هذه ميزة من ميزات شخصية ياسر عرفات. وهو يشعر دائماً بالمسؤولية تجاه شعبه وأصدقاء شعبه ومن وقف مع شعبه في نضاله من أجل الحرية والاستقلال.

ورغم تساؤلات البعض عما يدفعنا لدعم هذه العائلات وهؤلاء القادة، استمر ياسر عرفات في الوفاء لأصدقائه ودعمهم، لأنه كان يعلم أن هذه خصلة نبيلة، تجعل من قضية شعبه ومنه شخصياً رمزاً للتضامن من أجل الحرية والاستقلال.

أحد عوامل تحوله إلى عملاق عالمي كان حرصه والتزامه بدعم الأحرار في العالم كلما تمكن من ذلك وحسب إمكاناته المتاحة.

ذو الفقار علي بوتو صديقه قتل، وترك عائلة مشردة، حرص الذين اغتالوه على إذلالها وحرمانها من كل الحقوق. وكانت ابنته بينازير، طالبة في الجامعة فتكفل بكل ما يلزمها.

كذلك أولاد لومومبا، كنيت كاوندا، وغيرهم.

إنه الفارس النبيل الذي لا يرضخ لميزان قوى جائر، ليبتعد عن أصدقائه وعائلاتهم. بل يتحدى الجميع، كروبين هود، لينصف المظلومين حسب قدراته.

والعلاقة التي ربطت ياسر عرفات بعائلة غاندي علاقة حميمة ومثيرة ولها معانٍ كبيرة. فقد كان معجباً جداً بالمهاتما غاندي حين كان طالباً.

جواهر لآل نهرو، كان زعيماً من زعماء العالم الناهض، عالم دول عدم الانحياز، الذي أرسى أسسه وأقام صرحه عام ١٩٦٠ كل من جوزيف بروس تيتو العملاق (يوغوسلافيا) وأحمد سوكارنو

العملاق (إندونيسيا) وجمال عبد الناصر العملاق (مصر) وجواهر لآل نهرو العملاق (الهند).

وقد غاب العمالقة جميعهم عن الحياة وبدأ بالبروز عمالقة آخرون منهم ياسر عرفات، وأنديرا غاندي، وفيديل كاسترو ومانديلا (السجين).

في ظل الصراع بين معسكري الشرق والغرب (حلف الناتو وحلف وارسو) قرر هؤلاء العمالقة الخروج من دائرة النفوذين الشرقي والغربي وأن يشقوا لشعوبهم وشعوب العالم طريقاً ثالثاً أسموه طريق «عدم الانحياز» أي عدم الانحياز للشرق أو للغرب وعدم الزج بشعوبهم ومصالحهم في أتون الصراع الذي أطلق عليه فيما بعد: «الحرب الباردة» بين الاتحاد السوفياتي ومن يقود من الدول التي انطوت تحت اللواء الشيوعي بعد الحرب العالمية الثانية، والولايات المتحدة والدول التي انطوت تحت لوائها لمواجهة الدول الشيوعية التي اعتبر الغرب أنها خلف الستار الحديدي.

مؤسسو حركة عدم الانحياز ضموا للحظة الأولى ملياراً ونصف مليار من البشر ليقولوا كلمتهم في هذا الصراع. كانوا ينادون بشن المعارك ضد الفقر والتخلف ومن أجل التنمية الاقتصادية، ومحو الفقر، ورفع مستوى التعليم ومحاربة الأمراض، والسلام العالمي.

كان لقاء القمة في باندونغ (إندونيسيا) ولقاء القمة بريوني حدثين ضخّما زخماً لا حدود له لهذه الحركة الجديدة، فراحت الدول

المستقلة حديثاً والمتعثرة اقتصادياً، تنضم تباعاً لهذه الحركة النبيلة.

توفي جواهر لال نهرو في الرابع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٦٤. وبدأت حقبه جديدة في الهند: حقبة أنديرا غاندي، التي قادت بشجاعة الأمة الهندية من الفقر المدقع إلى إنشاء الصناعة وتطويرها وإلى أخذ الأمة الهندية دورها في السياسة العالمية: دور يوازي ثقل هذه الأمة عدداً وثروة وإمكانات.

معظم ما كتبه جواهر لآل نهرو في السجن أو خارجه، كان موجهاً لأنديرا غاندي.

أنديرا غاندي كانت ابنة نهرو. وكان نهرو مهتماً طوال الوقت بتثقيف ابنته وتوعيتها، منذ نعومة أظافرها، حول مبادئ سامية: الحرية، الاستقلال، حق تقرير المصير، حقوق الإنسان، التنمية الاقتصادية.

وكان هو قد درس في كلية هارو الشهيرة (إنجلترا) وتخرج من جامعة كمبريدج (إنجلترا) قبل أن يعود للهند وينتخب رئيساً لحزب المؤتمر ويصبح أول رئيس وزراء للهند عام ١٩٤٧، بعد استقلالها.

مؤلفات نهرو جميعها كانت مهداة لابنته أنديرا، التي خلفته في رئاسة الحكومة بعد أن انتخبت رئيسة لحزب المؤتمر ولكتلة المؤتمر البرلمانية في العام ١٩٦٤.

رفضت أنديرا أن تستلم رئاسة الحكومة عام ١٩٦٤ بعد وفاة والدها. فقد شعرت بفراغ كبير وإحباط شديد بعد وفاة نهرو،

الحدث الذي أنزل بالأمة الهندية حزناً قاتلاً وخيمت على الهند موجة من الحزن لم يسبقها سوى تلك الغيمة من الحزن التي خيمت على الهند عندما توفي المهاتما غاندي.

فقدت زوجها فيروز غاندي، الذي توفي شاباً وفقدت والدها وأصبحت وحيدة مع ولديها.

رفضت في البداية كما قلنا تولي المسؤولية السياسية لكنها عادت وقبلت في العام ١٩٦٦. ومنذ تلك اللحظة ظهرت شخصية أنديرا غاندي وبرزت عندها كل المواصفات والقدرات التي زرعها ونماها والدها نهرو. وأصبحت أول امرأة تقود أمة بأكملها. وتحولت في شتى أنحاء العالم رمزاً للنساء المكافحات من أجل حقوق ومساواة المرأة بالرجل.

وفي العام ١٩٧١ انتصرت في الانتخابات انتصاراً كاسحاً، ثم أقصيت لاحقاً تحت تأثير اتهامات بالفساد. لكنها خاضت معارك قضائية وعادت للحكم عام ١٩٧٧. وأجرت انتخابات في العام ١٩٨٠ لتفوز فيها فوزاً منقطع النظير وكرست بذلك قيادتها للهند تكريساً ديموقراطيا قوياً.

وراح أعداؤها يخططون للتخلص منها وتحطيمها فاغتالوا ابنها الأكبر بتفجير طائرته الصغيرة التي كان يقودها في أجواء نيودلهي.

ثم اغتالوها هي عندما أطلق النار عليها حرسها الخاص (من الهندوس). وكانت قبل اغتيالها بأيام قد جمعت عائلتها، راجيف ابنها الثاني وزوجته وأطفاله، وأعلمتهم أنها تخشى من المؤامرات

التي تحاك ضدها وأوصتهم بالانتباه، وحذرت أحفادها من اللعب خارج أسوار المنزل. ثم أملت عليهم تفاصيل الجنازة التي تريدها لنفسها في حال اغتيالها.

وكنت أنا، قد نبهتها ونحن خارجان من مكتبها في نيودلهي في العام ١٩٨٤ من خطورة التحرك وحدها ودون حماية عسكرية. عندها نظرت إليّ وقالت: أنا لا أخشى الموت. لقد انتخبني الشعب بأغلبية كبيرة وهذا يعطيني ثقة بالنفس لا حدود لها.

امرأة عظيمة المواهب وتملك طاقة لا حدود لها. درست في جامعة الشاعر والفيلسوف الهندي الكبير، طاغور وأكملت تعليمها في جامعة أكسفورد بإنجلترا. وقادت الهند نحو مستقبل أفضل وأدخلت بلدها نادي التصنيع والحاسوب.

تلك هي المرأة التي أعجب بها الملايين وأعجب بها ياسر عرفات وأعجبت هي بياسر عرفات. منذ السبعينيات ربطت ياسر عرفات بأنديرا غاندي علاقة متينة صلبة على أسس سياسية واضحة: الحرية والتطور والنمو للشعوب.

ونمت العلاقة لتصبح حميمة على صعيد شخصي وعائلي. فقد وجد الاثنان، كل منهما في الآخر، الجانب الذي يفقده. رأت فيه الرجل المكافح بشرف وصلابة من أجل حرية شعبه، كما كان والدها، ورأت فيه القائد الذي تتمنى أن يصبح على شاكلته ابنها، ورأى فيها الحكمة والصلابة والقوة والاستقلال وكرامة أمة بأكملها.

الحميمية في العلاقة كانت لا تخفى على أحد، عند السلام وأثناء الحديث وأثناء الطعام. وكان ياسر عرفات أحد القلائل من بين أصدقائها، الذي أدخلته عرينها. وأصبح ياسر عرفات يعامل وكأنه أحد أفراد أسرتها.

كان عرينها ممنوعاً على الكثيرين فقد كانت تخشى على أحفادها وعلى ابنها، تحميهم وتعمل جاهدة لينهلوا من العلم والحكمة ما نهلت منه هي. وكان ياسر عرفات مصدراً من مصادر المعرفة والحكمة. وأصبح يلقب داخل البيت من قبل أبنائها وأحفادها «العم».

وأصبحت أنديرا غاندي بالنسبة لعرفات، مصدراً من مصادر الحكمة والنصح، ومناقشة التطورات وبلورة المواقف والقرارات، وكذلك هو بالنسبة لها. وظهر ذلك جلياً في مجموعة دول عدم الانحياز وفي الأزمات التي واجهتها انديرا غاندي وواجهها هو.

فقد واجهت أنديرا غاندي عواصف خطيرة مع الباكستان وفي كشمير وبنغلادش وسريلانكا.

وواجه هو عواصف وأزمات في الأردن ولبنان وبالطبع مع الإسرائيليين.

اغتيالها أصابه في الصميم. ولم أره حزيناً كما رأيته عندما تلقى الخبر. ومنذ جنازتها، يقوم ياسر عرفات بزيارة قبرها ليروي الشجرة التي زرعها أمام ذلك القبر وينحني بإجلال ويقف مفكراً، متذكراً أمامها لدقائق عدة.

غياب أنديرا الأليم، عمّق العلاقة الحميمة مع عائلتها. فـ«العم» ياسر عرفات تحول إلى «القريب الوحيد» لهم. فهو صديق والدة راجيف، وجدة الأحفاد (أولاد راجيف).

واستمر الجميع ينادونه «العم». حتى راجيف، كان يناديه «العم» عندما يكون معه في جلسة خاصة. وعندما أصبح راجيف رئيساً للوزراء، ازدادت زيارات ياسر عرفات للهند ووثق العلاقة بينهما وبين الفلسطينيين.

كان يعلم أن راجيف يشعر بالوحدة القاسية بعد رحيل أمه وأخيه، ومن قبلهم رحيل أبيه وجده. كان يشعر بأنه أصبح وحيداً في مواجهة أعاصير الهند وتناقضاتها الداخلية المعقدة. ولا شك أن الحديث مع ياسر عرفات، الذي وضعت أمه أنديرا ثقتها فيه، أعطاه المزيد من الثقة بالنفس وبث فيه روح الشجاعة لمواجهة عواصف الهند، وللسير بخطى ثابتة في السياسة الخارجية لدولة كبيرة كالهند.

أثناء إحدى زياراته لراجيف والهند، أقيم احتفال كبير الكلمات قبل أن يضع ياسر عرفات حجر الأساس لقاعة جامعية كبيرة، تبرع بها ياسر عرفات باسم الشعب الفلسطيني للجيل الهندي الجامعي.

وكانت الهند تمر آنذاك بموسم زراعي سيئ، إذ أتى الجفاف على المزروعات.

في ذلك الاحتفال، راح الخطباء الواحد تلو الآخر يلقون الكلمات ويؤكدون على التلاحم بين الشعبين الهندي والفلسطيني.

وعندما جاء دور الرئيس ياسر عرفات انهال المطر الغزير من غيوم كانت ملبدّة لأيام دون أن تفك أسر المطر. وتتابع المطر الغزير... غزير جداً لدرجة أن السرادق المقام في العراء أمام موقع القاعة لم يصمد.

وتعالت الهتافات، وتعالى الشكر وردد الحضور اسم ياسر عرفات.

وعلى مائدة العشاء في تلك الليلة، تبودلت كلمات الترحيب والتحية كما هي العادة، فبدأ راجيف كلمته بالقول: إن ياسر عرفات خير وبركة على الهند والهنود، فقد جلب لنا المطر والخير، وهو عزيز على الهنود وعزيز بعمق على قلوب عائلتي وقلبي أنا.

احتفال العائلة بعيد ميلاد راجيف كان دائماً احتفالاً عائلياً محصوراً بأقرب الأقارب والمقربين.

ورافقت الرئيس، مرة، لحفل ميلاد راجيف في بيت العائلة. كانت تلك هي المرة الأولى التي ادخل فيها بيت العائلة. فقد كنا دائماً ضيوفاً ننزل في قصر الضيافة الرسمي وتقام كل النشاطات في ذلك القصر. تلك الزيارة كانت خارقة للعادي. والعادي كان دائماً أرفع مستوى من الاستقبال.

في تلك الزيارة كسر الهنود، المعروفون بحرصهم على الحفاظ على التقاليد والبروتوكول التقاليد والبروتوكول.

فاستقبال كبار الضيوف (الرؤساء والملوك) يتم عادةً في باحة القصر الجمهوري وليس على أرض المطار. فإذا بهم قد أعدوا له استقبالاً

رسمياً على أرض المطار وفي باحة القصر الجمهوري. كان ذلك مؤثراً للغاية.

بعد أن سار موكبنا من المطار إلى القصر الجمهوري، استقبل الخيالة ممتطين أحصنتهم، بلباسهم الأحمر والذهبي الرائع، استقبلوا الرئيس وأحاطوا بالسيارة التي تقله من الجانبين وقادوها بنسق جميل نحو مدخل القصر، حيث اصطف حرس الشرف والفرقة الموسيقية، فعزفت الفرقة السلامين الوطنيين الفلسطيني والهندي، واستعرض الرئيس ــ يرافقه رئيس الهند ــ حرس الشرف ودخلنا للقصر.

كان ذلك جميلاً وأنيقاً ومؤثراً. وهمس في أذني أحد الوزراء الهنود: «الملكة إليزابث لم تحظ بذلك».

جلس راجيف إلى جانب الرئيس عرفات في إحدى قاعات الاستقبال الملحقة بجناح الرئيس، وتحدثا قليلاً وتم إطلاع الرئيس على الخطوط العريضة لبرنامج الزيارة والمباحثات. ثم استأذن راجيف للذهاب إلى مكتبه، ووجه الدعوة للرئيس لحضور عيد ميلاده بصوت شابه الهمس.

لم يكن برنامج الوفد يشير إلى أي نشاط في الليلة الأولى من الزيارة. لكن الرئيس طلب مني أن أحضر نفسي لمرافقته إلى بيت العائلة لحضور عيد ميلاد راجيف. ففعلت.

ما إن دخلنا المنزل، حتى اندفع أطفال راجيف، وهم يصرخون ويضحكون، نحو ياسر عرفات مرددين «العم.العم». عانقهم وعانقوه، فيما راجيف وزوجته سونيا يبتسمان بسعادة حقيقية

وقلبهما مفعم بالفرح. وعانقت سونيا وراجيف ياسر عرفات وشكراه بكل تهذيب على مجيئه.

كان احتفالاً بسيطاً. لكنني أقول إن ألذ أكل ذقته في حياتي كان ذلك الأكل (الهندي بالطبع) الذي تناولناه على مائدة سونيا وراجيف في بيتهما العائلي.

كانت الجلسة دافئة للغاية ودار حديث ذو شجون، وتناول العديد من المواضيع، من وضع الهند الداخلي، للسياسة الخارجية، لوضع الشعب الفلسطيني والأمم المتحدة.

كانت جلسة تفكير بصوت مرتفع. وكان راجيف يستمع بكل انتباه وكأنه لا يريد أن يفوته حرف مما يقوله ياسر عرفات.

وتجلت حكمة ياسر عرفات تلك الليلة، وظهرت مميزات شخصيته السياسية الملمة بقواعد الصراع العالمي والإقليمي، وبتكتيكات الصراعات المحلية.

كانت الجلسة أشبه بمجلس عائلي. وربما خطرت فكرة في ذهن راجيف تلك الليلة. ربما تذكر جلسات العائلة السياسية مع أنديرا غاندي التي رحلت وتركته وحده بعد أن رحل أخوه أيضاً ووالده من قبل. (والده فيروز غاندي كان صحافياً وملماً إلماماً واسعاً بالسياسة والصراعات الدولية والإقليمية).

كانت جلسة دافئة ورائعة، غادرنا بعدها بيت عائلة غاندي نحو مقرنا الرسمي في القصر الجمهوري.

وقبل مغادرتنا الهند قام الرئيس عرفات يرافقه كافة أعضاء الوفد بزيارة قبر المرأة العظيمة أنديرا. (القبر كان رمزياً بطبيعة الحال، فقد نثر رماد جسدها فوق النهر من طائرة صغيرة).

روى ياسر عرفات الشجرة التي زرعها أمام قبرها، وأحنى رأسه دقائق (ولا شك أنه كان يراها في تلك اللحظات). ثم رفع رأسه وبدأ بالتحرك. نظرت إلى وجهه ولمحت دمعتين خجلتين في مآقيه.

غادرنا الهند، بعد أن تكللت الزيارة بنجاح كان متوقعاً. ووقعت فلسطين والهند عدة اتفاقيات تعاون في ميادين مختلفة.

صعق خبر اغتيال راجيف الرئيس صعقاً. كان الخبر صاعقاً لدرجة أنه لم يصدق. لكنه كان حقيقة. «إنه قدر هذه العائلة» لقد تحملت هذه العائلة مسؤولية تاريخية في بلد مليء بالتناقضات، وهم يدفعون الثمن.

ونكبت عائلة غاندي مرة أخرى. أعداؤهم أعداء الهند اغتالوا راجيف ليجتثوا عائلة غاندي من جذورها. فوجود رجال أو نساء من هذه العائلة كان يحطم فرص هؤلاء في الفوز بالانتخابات وحكم البلاد. فعائلة غاندي العريقة في الثقافة والأخلاق والعلم كانت تحظى بتأييد شعبي واسع خاصة بين الفقراء وما أكثرهم في الهند.

فشعرت أنها أصبحت بلا حماية ولا مستقبل وأن أولادها الآن في خطر.

وتذكرت ليلة جاءت أنديرا غاندي لتقول لهم أنها تشعر أن حياتها مهددة. وكيف أعطتهم تفاصيل جنازتها كما تريدها أن تكون. تذكرت كيف نبهت أحفادها ألا يلعبوا خارج أسوار المنزل.

كانت أنديرا تتوقع أن يغتالوا أحفادها أيضاً. وبطبيعة الحال ابنها راجيف، رغم أنها لم تقل له هذا. لكنها كانت ذكية فركزت الاهتمام على أولاده ليفهموا أنهم جميعاً مستهدفون.

سونيا، عاشت جواً أليما منذ أن تزوجت راجيف وسكنت معه الهند. فقد كان أعداء حزب المؤتمر وأعداء بيت غاندي يشهرون دائماً سيف العنصرية، بالتركيز على أن سونيا إيطالية وليست هندية. والهدف كان تجريد أبناء راجيف من الصبغة الهندية الخالصة لحرمانهم من أي مستقبل سياسي، وزاد رعبها الآن وقد اغتالوا راجيف ويهاجمونها لأنها إيطالية الأصل.

سيحاولون اغتيال أولادها. فحملتهم بعد انتهاء فترة الحداد وغادرت الهند رغم معارضة قادة حزب المؤتمر، الذين أرادوا لها أن تقود الحزب بعد اغتيال راجيف. أرادت سونيا أن تخلو لنفسها وأن تفكر. فقد سيطر رعب احتمال اغتيال أولادها عليها. فحضنتهم وغادرت لتفكر بذهن صاف.

في خضم تلك التدافعات الذهنية والعاطفية برز أمام عينيها «العم». سعدت جداً، فقد وجدت أمامها أباً وعماً وصديقاً وحكيماً فشدت الرحال لتقابله ولتأخذ النصيحة منه. وأثناء رحلتها، لامت نفسها لأنها لم تفكر باللجوء إليه للنصيحة والرأي.

لا يمكن أن تصف الانعكاسات العاطفية على وجه ياسر عرفات عندما زارته سونيا. كانت مزيجاً من عاطفة نبيلة، الحزن على من رحل، القلق على من بقي منهم قيد الحياة، الرغبة ببسط جناحيه لحمايتهم، الرغبة في الانتقام من قتلتهم والحنان، كلها في إطار من الشعور بالثقة والرغبة في السير للأمام لمواجهة كل الأخطار مهما كانت. فبدا قوياً صامداً متماسكاً ليبث ذلك في سونيا. لقد كان يعلم تمام العلم ما تشعر به وما تخشى منه، ومدى التردد الذي تعيشه.

بكت سونيا دموعا خجلة حارة دون أن تتكلم. كانت دموعها كلاماً بليغاً لخص كل ما أرادت أن تقول.

ابتسم ياسر عرفات مشجعاً وقال: آل غاندي شجعان ولدوا ليواجهوا الصعاب ويتحملوا المسؤولية. وأنت سونيا غاندي، وعليك أن تتماسكي فأنت تحملين الراية الآن. وتصرفك سوف يكون مرشداً للأولاد. شرحت سونيا للرئيس، وجهة نظر قيادة حزب المؤتمر وفسرت له مخاوفها ولم تتردد في ذكر ما يستخدمه أعداء حزب المؤتمر ضد الحزب وضدها، أي أصولها الإيطالية.

أصغى الرئيس بكل اهتمام لكل كلمة قالتها. فقد كانت صادقة ولا تطمح لمنصب وتريد أن تحمي أولادها. وعندما انتهى الكلام قال لها الرئيس: يا ابنتي يا سونيا لا يمكن لإنسان أن يهرب من قدره. لقد تزوجت راجيف غاندي وأصبحت أم أولاده. وعائلة غاندي لم تهرب من قدرها أبداً بل خططت وعلمت وربت أولادها للتجاوب مع هذا القدر.

وعائلة غاندي قادت الهند وتحملت المسؤولية ودفعت ثمناً باهظاً

لذلك. إنها عائلة متميزة ارتبطت بتاريخ الهند النضالي وارتبط تاريخ الهند النضالي بها.

هذا قدرك لا تهربي منه. كوني شجاعة كجدة الأولاد أنديرا.

أنت تتحدثين عن الأولاد. اهتمي بتربيتهم وتعليمهم وستصبحين رئيسة وزراء الهند يوماً ما، شئت أم أبيت. وعندها يجب ألا تعرقل خطواتك إليه اتهامات أو هجمات أو استغلال حول أصولك الإيطالية.

أنت الآن زعيمة بيت غاندي فلا تترددي لحظة واحسمي أمرك. واعلمي أن لك أصدقاء وسأكون دائماً وأبداً جاهزاً للمساعدة قدر المستطاع.

هزت رأسها كأنها تقول: سألتزم بما تقول أيها «العم».

وهكذا كان.

وانتخبت سونيا رئيسة لوزراء الهند في شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٤.

ياسر عرفات محاصر في مكتبه مطوق بقوات الاحتلال يبتسم فرحاً لنجاح سونيا، ويتصل بها مهنئاً بالانتصار الكاسح، وثقة الشعب الهندي وحزب المؤتمر والأحزاب المؤتلفة معه بها.

الرئيس عرفات، سعى ويسعى باستمرار لحشد مزيد من التأييد العالمي للقضية الفلسطينية ورفعة شأنها. والمعادلة كانت واضحة أمامه:

القضية الفلسطينية قضية عادلة ومسلحة بقرارات دولية عديدة. لكن العالم الذي ينشغل بمشاكله أغمض العين وسد الأذن ولم يحرك ساكناً في وجه ما فعلته وتفعله إسرائيل.

وكان عليه كقائد أن يخلق واقعاً جديداً على أرض فلسطين (القتال والنضال) وان يحشد الدعم العربي والعالمي لحقوق هذا الشعب.

وفي قرارة نفسه كان يدرك أن هذه القضية العملاقة وهذا الشعب المكافح العملاق سوف يرفع من شأنه كلما رفع هو، بجهده وحركته واتصالاته، من شأن الشعب والقضية. فالترابط كان جدلياً في ذهنه وفي قرارة نفسه.

فقد بذل الشعب الفلسطيني على مدى عقود تضحيات كبيرة بالدم والمال والأرض، ولا بد لقيوده من أن تنكسر ولا بد أن ينال حريته واستقلاله.

والمعادلة الراسخة هذه جعلت من ياسر عرفات فلسطين ومن فلسطين ياسر عرفات في قلبه وقرارة نفسه.

والهند كانت مكسباً كبيراً للشعب الفلسطيني عندما وقفت دون تردد إلى جانب الحق الفلسطيني.

وخاض ياسر عرفات المعترك السياسي في تلك المنطقة من آسيا. فحشد تأييد المتعارضين للحقوق الفلسطينية. الصين وباكستان والهند وسيريلانكا وبنغلادش. وكم من تناقضات وتعارضات بين هذه الدول! لكنها أجمعت على تأييد الحق الفلسطيني.

لكن سونيا غاندي، آثرت عدم القبول، قبول مسؤولية الهند كرئيسة للوزراء. وفضلت أن تعين «نموهان سنغ» رئيساً للوزراء حرصاً على نجاح حزب المؤتمر في إدارة دفة الحكم، بدل الخوض في معارك جانبية حول أصولها الإيطالية.

لكني على يقين أن سونيا غاندي رئيسة حزب المؤتمر، ورئيسة كتلته البرلمانية تقوم بتحضير أولادها لتبوّء مركز الصدارة في الحياة السياسية الهندية.

(٢٥)

حاول عرفات منع غزو الكويت وحاول منع الحرب على العراق

ما إن انتهت الحرب الإيرانية ــ العراقية، بعد إعلان آية الله الخميني الاستسلام ووقف الحرب، حتى بدأت المشاحنات السياسية بين العراق والكويت.

فقد طالب العراق بدفع قيمة النفط الذي استخرجته الكويت من حقل عراقي (أو حقل مختلف عليه). وكان العراق قد رصد الكميات التي استخرجتها الكويت من ذلك الحقل. لكن الكويت رفضت دفع الأموال التي طالب بها العراق.

وحاول العراق استخدام الضغط السعودي والخليجي لحل هذه المشكلة. لكن كافة الجهود فشلت وكان آخرها (قبل أن يغزو العراق الكويت)، المؤتمر الذي عقد في جدة (السعودية) بتاريخ ٣١

تموز/يوليو ١٩٩٠ وحضره ولي العهد الكويتي رئيس الوزراء الشيخ سعد الجابر.

واستدعى الرئيس صدام حسين سفيرة الولايات المتحدة لدى العراق «غلاسبي» وبيّن لها طبيعة الخلاف العراقي ــ الكويتي، وطلب منها أن تستخدم الولايات المتحدة نفوذها لحل الخلاف، لأن عدم حله قد يعني مزيداً من المشاكل التي قد تتفاقم إلى حد الصدام العسكري.

ونقلت غلاسبي على الفور الرسالة لواشنطن، التي طلبت منها إبلاغ الرئيس صدام حسين، أن السياسة الأميركية في الخليج هي سياسة عدم التدخل في الخلافات القائمة بين دوله.

ووقعت القيادة العراقية في الفخ الذي نصبته لها واشنطن. فقد اعتبرت القيادة العراقية جواب واشنطن، ضوءاً أخضر للتصرف حيال الأزمة مع الكويت وأنها لن تتدخل في هذا الشأن.

وكان للقيادة العراقية أسبابها لتصديق واشنطن. فقد دعمت واشنطن بغداد بشكل مباشر وغير مباشر أثناء حرب الخليج مع إيران، مما جعل القيادة العراقية تقتنع بأن واشنطن اعتمدت بغداد قوة إقليمية في المنطقة. ولم تنتبه القيادة العراقية إلى المخطط الذي استهدف إضعاف إيران أولاً، والعراق ثانياً. وأن عين واشنطن لا ترى في المنطقة سوى الهيمنة على منابع النفط خدمة لمصالحها الاستراتيجية. فبدأت بغداد تعد العدة وتهيىء لغزو الكويت في حال إصرار الكويت على عدم دفع عائدات النفط الذي استخرجته إبان الحرب بين إيران والعراق.

الرئيس ياسر عرفات كان يتابع ما يدور بحذر شديد. فقد كان يدري حجم الانعكاسات السلبية على المنطقة (وعلى قضية فلسطين بشكل خاص)، التي ستنجم عن استخدام الحل العسكري لفض خلاف نفطي.

وعندما شعر عرفات بأن الخلاف أصبح ساخناً جداً، قرر أن يرمي بثقله وثقل فلسطين لمنع نشوب حرب بين العراق والكويت.

فقد كان الضغط السياسي لإيجاد حل سياسي للصراع الفلسطيني ــ الإسرائيلي قد بلغ أوجه، إذ بدا واضحاً للعالم أن الحكومة الإسرائيلية تماطل ولا تريد إيجاد حل سياسي، رغم المبادرة التي أطلقها الفلسطينيون لإيجاد حل يستند لقرارات الشرعية الدولية.

وكان جيمس بيكر وزير خارجية أميركا قد أعلم الإدارة بالموقف الإسرائيلي، ولم يتردد في أحيان كثيرة بالتلميح والتصريح تعليقاً على مواقف الحكومة الإسرائيلية السلبية.

وكان من الضروري المحافظة على الزخم والضغط الدوليين. وهذا لن يكون ممكناً في حال نشوب حرب بين العراق والكويت. إذ ستصبح هذه الحرب شغل العالم الشاغل وسيتلاشى زخم الضغط الدولي على إسرائيل.

قرر الرئيس عرفات أن يتحرك بسرعة في محاولة دبلوماسية مكوكية بين بغداد والكويت، في محاولة لنزع فتيل الحرب.

فطلب لقاءً عاجلاً مع الرئيس صدام حسين. فاستقبله في الليلة

ذاتها. ودار بينهما حديث جاد، وحاول الرئيس عرفات أن يبين للرئيس صدام حسين مخاطر الحل العسكري. وطلب منه منحه فرصة ليحاول إيجاد حل أو آلية حل لهذه المشكلة.

واختتم صدام حسين قوله لعرفات:

«قل لهم نحن طلاب حق ولا نريد سفك دماء عربية. نريد حقوقنا لا أكثر ولا أقل. وإذا رفضوا فعليهم أن يعلموا أن الكويت تصبح في قبضتنا في أقل من ساعتين».

توجهنا للمطار وطرنا نحو الكويت.

وصلناها فجراً. توجهنا إلى قصر الضيافة لنأخذ قسطاً من الراحة، وانتظاراً للموعد الذي حدد للرئيس عرفات لمقابلة أمير الكويت.

خلال ذلك كنا نتابع التصعيد الإسرائيلي في قطاع غزة والضفة الغربية. وما إن حان الموعد، خرج الرئيس عرفات من غرفته وتوجهنا في موكب لقصر أمير الكويت.

كان قد سبق لي أن زرت الكويت مرات عديدة والتقيت بالمسؤولين مرات عديدة، لكنني لمست هذه المرة أن توتراً ما كان يسود الأجواء. كان إحساساً سرعان ما تأكد من مجريات الحديث القصير الذي دار بين الرئيس عرفات وأمير دولة الكويت.

لاحظت بسرعة أن وزير خارجية الكويت لم يكن موجوداً، خلافاً للعادة. وربما كان هذا سبب بداية الإحساس لدي، بأن الجو متوتر.

تماماً كما بذل الجهد مع الرئيس صدام حسين لمنع الاحتكاك العسكري، بذل الجهد مع أمير الكويت لإقناعه بتشكيل لجنة لإيجاد حل أخوي للمشكلة.

بقيت صامتاً طوال الوقت، لكنني كنت أراقب بدقة خلجات الوجوه، وأصغي لكل كلمة تقال.

وسرعان ما توصلت للخلاصة:

الكويتيون لا يريدون تسوية المشكلة سياسياً، لأنهم يعتقدون أنهم على حق وأن العراق يحاول ابتزازهم. كما خرجت بخلاصة، أن الأمير لا يريد من الرئيس عرفات أن يتدخل.

انتهى الاجتماع بعد نصف ساعة. وغادرنا الديوان الأميري لنتوجه لديوان رئيس الوزراء، ولي العهد الشيخ سعد الجابر، الذي كانت تربطه بالرئيس عرفات علاقة حميمة منذ أن كان عرفات يعمل في الكويت كمهندس بعد تخرجه من جامعة القاهرة.

كان حديث الرئيس عرفات واضحاً ومباشراً. لكن بدا واضحاً أن القرار الكويتي كان واضحاً أيضاً.

وتحدث الشيخ سعد حول آخر محاولة لإيجاد حل في المؤتمر الذي دعت لعقده السعودية في مدينة جدة.

وعندما حذر الرئيس عرفات من انعكاسات نشوب حرب بين العراق والكويت، أجابه الشيخ سعد: الخبراء يقولون إن العراق لن

يتمكن من غزو الكويت إلّا بعد مرور أربعة أيام. وستتدخل خلال الأيام الأربعة قوى أخرى للدفاع عن الكويت.

أجابه الرئيس: الخبراء مخطئون، ولكن منع الحرب هو الأساس.

حوّل الشيخ سعد الجابر الحديث للاستفسار عن الانتفاضة وأحوال الشعب الفلسطيني وكأنه يقول:

انتهى حديثنا عن العراق.

وخرجت مكتئباً.

فالحرب واقعة لا محالة.

جاء أخي الدكتور أسامة ليودعني وسألني بقلق: ماذا سيحصل؟

فأجبته باختصار: ستقع الحرب.

فاكفهر وجهه ككل فلسطيني يعمل في الكويت.

وتوجهنا إلى تونس.

ووقع المحظور وغزا العراق الكويت في ٢ آب/لغسطس ١٩٩٠.

وارتكبت أعمال بعيدة كل البعد عن الأخلاق العربية، ويندى لها الجبين ومنذ تلك الخطوة تفاقمت الخلافات والعالم العربي، مما مكن أعداء الأمة العربية من استغلال تلك الظروف للهيمنة على المنطقة ونفطها وثرواتها وموقعها الاستراتيجي.

وهذا ما كان يخشاه الرئيس ياسر عرفات، ولمنعه بذل كل الجهد لإبعاد الحرب والتوصل لحلول سياسية تبقي الحد الأدنى من وحدة الموقف العربي.

ولم يكلّ ولم يتعب، بل راح يحاول إيجاد حل سياسي، حتى بعد غزو العراق للكويت. ذلك أن الولايات المتحدة بدأت بحشد القوات والاستعداد لشن حرب على العراق تحت عنوان تحرير الكويت، لكنها في الحقيقة تستهدف العراق وثرواته النفطية.

وراح الرئيس عرفات يعمل ويتصل ويتنقل من عاصمة عربية لأخرى، دون كلل، في سباق مع الزمن لمنع نزول قوات أجنبية على الأرض العربية لشن حرب على العراق. وذلك بالبحث المعمق في ورقة عمل لحل سياسي للمشكلة يبدأ بانسحاب القوات العراقية فوراً من الكويت.

كانت السعودية مترددة تردداً كبيراً في اللجوء للحل العسكري وبقيت تمانع نزول قوات أميركية على أراضيها واستخدام مطاراتها من قبل الأسطول الجوي الأميركي.

وبذلت الولايات المتحدة كل ما في جعبتها من وسائل لإقناع السعودية، لدرجة أن ديك تشيني (وزير الدفاع الأميركي آنذاك) أمر بالتلاعب بصور ملتقطة من الأقمار الصناعية، تظهر أن دبابات العراقيين تتجه نحو السعودية. وزعم أن هنالك خططاً عراقية للزحف على السعودية للوصول للبحر الأحمر.

وفي آخر زيارة للرئيس عرفات للسعودية في محاولة لإقناعها بالحل

السياسي، أوقفت طائرة الرئيس عرفات على المدرج لنصف ساعة تقريباً، لتتمكن طائرة تشيني من الوصول لقاعة التشريفات قبل وصول عرفات. فقد كانت الولايات المتحدة تسابق الزمن أيضاً.

كانت تريد شن الحرب على العراق لأهدافها الخاصة (الهيمنة على النفط)، ولذلك عملت لإفشال كافة الجهود العربية لإيجاد حل سياسي، خصوصاً الحل الذي كان يدعو له ويعمل له ياسر عرفات.

واستخدم ياسر عرفات كافة القنوات المتاحة له. سواء كانت قنوات مباشرة أو غير مباشرة. فقام برحلات مكوكية لإقناع القادة العرب، كما قام بجولات سريعة في أفريقيا وأوروبا لتشكيل رافعة دولية تدعم الحل السياسي.

وطلب من رجال أعمال سعوديين (من بينهم عدنان خاشقجي وحرب الزهير)، حمل الأفكار الأساسية للحل السياسي وورقة العمل السياسية للقادة السعوديين. وكان الأمير سلطان بن عبد العزيز متجاوباً وعقلانياً ويرغب في إيجاد حل سياسي. وأصبحت الرحلات الجوية مكوكية تم خلالها تبادل الملاحظات والتعديلات.

وأوشكت جهود الرئيس عرفات على النجاح. وتم الاتفاق على عقد قمة طارئة في القاهرة بتاريخ ١٠ آب/أغسطس ١٩٩٠ لبحث الوضع وإقرار مشروع حل سياسي تلعب فيه الدول العربية، عبر لجنة تشكلها القمة، الدور الرئيسي في الاتفاق موضع التنفيذ. وكان يتضمن إرسال قوات عربية لتحل محل القوات العراقية تمهيداً للتوصل إلى حل نهائي.

لكن الضغوط الأميركية كانت أفعل وأكثر تأثيرا. وانتهت جلسات القمة العربية، دون أن يتمكن الرئيس عرفات من طرح الحل السياسي، عبر استخدام ملتوٍ لقواعد النقاش في القمم وطريقة طرح الاقتراحات والتصويت عليها.

فقد كان من المفترض أن تطرح مشاريع الاقتراحات (التي كانت متعددة) ليجري التداول بها، ثم طرحها على التصويت. لكن النقاش بدأ باقتراح واحد وتم التصويت عليه على عجل. وأعلن رئيس الجلسة فوز الاقتراح ورفع جلسات القمة. مما أثار الرئيس عرفات الذي رفع صوته مخطِّئاً الأسلوب واعتبره غير قانوني. وجرى تلاسن حول هذا الأمر، لكن الولايات المتحدة كانت الأقوى نفوذاً.

وحسم الأمر: حرب على العراق تشارك فيه قوات عربية تجمعت في منطقة «حفر الباطن» بالسعودية.

وقرر الرئيس عرفات أن يجري آخر محاولة من خلال الاتحاد الأوروبي. فطلب مني التوجه إلى روما وأن أنقل رسالة شفهية لرئيس وزرائها آنذاك جوليو أندريوتي، وكان يترأس في الوقت ذاته الاتحاد الأوروبي.

كانت طبول الحرب قد بدأت تقرع واستكملت قوات التحالف استعداداتها وأصبحت جاهزة لتحديد ساعة الصفر.

توجه الرئيس إلى بغداد، فيما رحت أرتب أمور سفري إلى روما لمقابلة رئيس الوزراء الإيطالي. كان الوقت يداهم الجميع

والعد العكسي قد بدأ. ولم أجد في ذلك اليوم مكاناً لي على أي طائرة من الطائرات التجارية المتوجهة إلى روما. فاتصلت بصديق لي (رجل أعمال إيطالي) وطلبت منه إرسال طائرته الخاصة إلى تونس لتقلني إلى روما. ففعل فوراً. ووصلت روما.

كان ذلك صباح ١٤ كانون الثاني/يناير من العام ١٩٩١.

كنت قد أجريت اتصالات لتحديد موعد. ولم يكونوا قد حددوه بعد. فتوجهت للفندق وهنالك التقيت بصديقي رجل الأعمال. وعندما علم هدفي من المجيء لروما، اتصل هو برئيس الوزراء ـ وكان صديقاً حميماً له ـ ورتب الموعد على عجل.

وقمت بالاتصال بسفيرنا في روما نمر حماد وأبلغته عن الموعد وعن المهمة العاجلة.

ورغم شكه في القدرة على تحديد الموعد بهذه السرعة، التقينا عند مدخل رئيس وزراء إيطاليا الذي استقبلنا بالترحيب. فنقلت الرسالة. قلت له أننا نسابق الزمن لمنع وقوع الحرب. وأننا نقترح أن يتوجه وفد من الاتحاد الأوروبي (ترويكا) للعراق فوراً، وأن نبلور اقتراحاً سياسياً تتبناه أوروبا وبعض الدول العربية لتطبيق حل سياسي فوري يبدأ بانسحاب القوات العراقية من الكويت.

فكّر أندريوتي مليّاً، وانطلق يشرح لي صعوبة الوضع (باللغة الفرنسية) وتجاوز بذلك المترجم أو استخدام اللغة الإنكليزية (التي لم يكن ضليعاً بها).

تعقيدات الوضع الدولي أخذت جزءاً هاماً من حديثه، وكذلك موقف إيطاليا التي تتمنى ألا تحصل الحرب.

ثم نهض من على مقعده، وأمسك بذراعي وتوجه نحو شرفة مكتبه. فتح الباب وخرجنا للشرفة المطلة على الساحة الجميلة أمام مقر رئاسة الوزراء الإيطالية.

قال لي هامساً بالفرنسية: قرار الولايات المتحدة هو الحرب. ولن تنجح مبادرتنا. كان الله في عون العراق.

شكرته. وتوجهت فوراً نحو الفندق أنا وسفير فلسطين لدى روما نمر حماد. ما إن جلسنا حتى هز الغرفة رنينُ الهاتف. كانت سكرتيرتي من تونس، قالت لي ـ وهي مبعثرة بين اللهاث والبكاء ـ إن إطلاق نار حصل قبل دقائق في منزل الأخ أبو الهول. (هايل عبد الحميد عضو اللجنة المركزية لفتح). فرحت اتصل بأرقام مختلفة في تونس إلى أن علمت أن أبو الهول وأبو إياد (صلاح خلف) قد اغتيلا في منزل أبو الهول، وأن القاتل تحصن في الطابق العلوي وهو يحتجز زوجة أبو الهول وأطفاله.

فقلت لسفيرنا: يجب أن أعود فوراً لتونس. ولكن قبل ذلك سأكلم الرئيس ياسر عرفات في بغداد.

اتصلت وأبلغته النتائج، فطلب مني التوجه لتونس فوراً وأن أنتظر تعليماته.

وهكذا حصل.

عدت لتونس، شاكراً صديقي الإيطالي الذي وضع طائرته مرة

أخرى تحت تصرفي لتعيدني إلى تونس.

عاد الرئيس ياسر عرفات لتونس فجر ١٥ كانون الثاني/يناير ١٩٩١. وانغمس في العمل مرة أخرى بعد مراسم دفن الشهيدين أبو إياد وأبو الهول.

بعد مراسم الدفن، تجمع القادة والكوادر في مكتب الرئيس، والكل يشعر برهبة الموقف. كان اغتيال أبو إياد وأبو الهول صدمة كبرى للجميع خصوصاً بعد أن علم أن القاتل فلسطيني من أتباع أبو نضال، وكان قد أعلن توبته لينضم لحرس أبو الهول.

وكان القلق حول الحرب المتوقعة على العراق يكاد يصيب الجميع بالاختناق. ذلك على الرغم من أن عدداً من القيادات كان مقتنعا بأن الولايات المتحدة لن تشن حرباً على العراق، خشية من الخسائر البشرية.

وكنت من الرأي الذي يرى أن الحرب قادمة لا محالة، وأن الولايات المتحدة ستستخدم ترسانتها الجوية والصاروخية ولن تتيح للجيش العراقي خوض معركة، قد تنزل خسائر بشرية بصفوف الأميركيين.

غادرت مكتب الرئيس عائداً إلى مكتبي. عند الفجر في اليوم السادس عشر من كانون الثاني/يناير، اتصل بي صديقي من فرنسا، وقال لي إنه يتكلم من هاتف عمومي، وأن الهجوم الأميركي الجوي بالطائرات وصواريخ كروز سيبدأ فجر ١٧ كانون الثاني/يناير وأن الهدف هو بغداد وليست الكويت.

هرعت لمكتب الرئيس وأبلغته المعلومة، وكنت قد سجلتها كتابياً. فأرسل تلك الملاحظة فوراً لبغداد.

اعترض بعض القيادات على إرسال المعلومة، لقناعتهم بأن الولايات المتحدة لن تتجرأ على شن هجوم على العراق. لكن الرئيس كان له رأي آخر: هنالك معلومة، ربما تكون مفيدة، وربما لا، ويجب أن تعلمها بغداد.

حسب المعلومة، الساعة الثالثة فجراً بتوقيت بغداد، كان موعد بدء الهجوم الصاروخي والجوي. أي أن الهجوم سيبدأ منتصف الليل بالتوقيت المحلي لمدينة تونس، حيث كنا متجمعين في مكتب الرئيس.

وقرابة منتصف الليل تحركت نحو جهاز التلفزيون، في مكتب الرئيس، وأدرت المفاتيح لنشاهد قناة (سي.إن.أن).

دقائق قليلة مرت على منتصف الليل، فبدأ البعض يبتسم وترتخي أعصابه (المعلومة كانت خاطئة ولن تشن الولايات المتحدة حرباً على العراق). وفي تلك اللحظة بالذات شاهدنا مراسل سي.إن.أن. يقول «سماء بغداد يضيئها اللهب».

وانهالت الصواريخ والقصف الجوي على بغداد.

كان ذلك في السابع عشر من كانون الثاني/يناير من العام ١٩٩١.

وانتهت كل محاولات وجهود الرئيس ياسر عرفات لمنع الحرب وإيجاد حل سياسي للصراع العراقي ــ الكويتي. وبدأت مرحلة جديدة.

(٢٦)

تعديلات آخر لحظة... في مؤتمر مدريد

بعد انتهاء حرب الخليج الأولى ــ (غزو العراق للكويت) ألقى الرئيس جورج بوش (الأب) خطاباً في الكونغرس قوبل بترحيب شديد من قبل أعضاء الكونغرس جمهوريين وديموقراطيين.

كان خطاب الانتصار.... خطاب تحرير الكويت.

وخلال الخطاب صفق أعضاء الكونغرس للرئيس بوش وقوفاً خمس مرات. لكن أطول وقفة تصفيق جاءت عندما أعلن الرئيس بوش أنه آن الأوان لإيجاد حل للصراع العربي ــ الإسرائيلي وإيجاد حل للقضية الفلسطينية.

وهكذا أعطت الإدارة الأميركية الضوء الأخضر لبدء عملية سلام في الشرق الأوسط تستهدف: تحقيق الاستقرار والسلام استناداً إلى

قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨.

وبالتشاور مع روسيا، تقرر أن ترعى الولايات المتحدة وروسيا مؤتمراً دولياً للسلام في الشرق الأوسط تحضره كافة الأطراف المعنية وعلى أن يعقد في مدريد العاصمة الَسبانية.

في تلك الفترة كان إسحق شامير (يمين الليكود) يرأس الحكومة الإسرائيلية. وكان معارضاً لأي عملية سلام تتم استناداً إلى قرار ٢٤٢ أي انسحاب إسرائيل من الأراضي الفلسطينية التي احتلتها عام ١٩٦٧.

لكن إصرار الولايات المتحدة والرئيس بوش لم يمكّن شامير من تبرير رفضه للمؤتمر برفضه لقرارات مجلس الأمن. بل استند إلى رفضه التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية التي اتهمها بالإرهاب. وأن إسرائيل لا تتفاوض مع الإرهابيين.

ورد على الرئيس بوش الذي وجه له رسالة بهذا الخصوص، يدعوه فيها لحضور مؤتمر مدريد بالقول إن حكومة إسرائيل ترفض التفاوض مع «م.ت.ف»، لكنها على استعداد لمفاوضة فلسطينيين محليين من الضفة وغزة «لم تتلوث أيديهم بدماء يهودية».

وزاد شامير في تعقيد الأمور باشتراطه موافقة الحكومة الإسرائيلية على أسماء من سيشارك في المؤتمر من فلسطينيي الداخل.

وسارعت الإدارة الأميركية وروسيا إلى إقناع قيادة «م.ت.ف» بأن على القيادة الفلسطينية ألّا تضيّع الفرصة، كما يشتهي شامير.

ورغم إصرار منظمة التحرير الفلسطينية على مشاركتها المباشرة في مؤتمر مدريد، تعاملتْ مع العقبات التي كان يضعها شامير (لإجهاض المشروع) بشكل واقعي.

وازدحمت خطوط الاتصال بين واشنطن وموسكو وتونس للوصول إلى صيغة مرضية لمنظمة التحرير ولا يمكن لشامير الاعتراض عليها.

وأبلغت الإدارة الأميركية رئيس وزراء إسرائيل بموافقتها على مشاركة وفد فلسطيني يمثل الشعب الفلسطيني في الضفة وغزة، على أن تلعب هي (أي الإدارة الأميركية) الدور الرئيسي في اختيار أعضاء الوفد، وأنه إذا كان لشامير اعتراض يستند إلى حيثيات قوية فعليه أن يراجع الإدارة الأميركية بهذا الشأن.

وطلبت الإدارة الأميركية من منظمة التحرير وضع لائحة تضم أربعين من أسماء الشخصيات الوطنية في الضفة الغربية وقطاع غزة ليجري اختيار الوفد من بين الأسماء الأربعين.

وهكذا كان، وتشكل الوفد من شخصيات وطنية من الأرض المحتلة. وبدأت التحضيرات لعقد المؤتمر. وراح كل طرف معنيّ يعدّ مداخلته للجلسة الافتتاحية للمؤتمر.

وصادقت اللجنة التنفيذية على الكلمة التي أعدت ليلقيها الوفد في الجلسة الافتتاحية. وفي الوقت ذاته كان عدد من أعضاء الوفد في الداخل منكباً على صوغ الكلمة.

وقررت اللجنة التنفيذية إرسال عدد من القيادات والكوادر من تونس إلى مدريد ليواكبوا جلسات المؤتمر الرسمية، وعلى اتصال دائم بالوفد القادم من الأرض المحتلة.

وكنت أحد الذين تقرر توجههم إلى مدريد. لكن في اللحظة الأخيرة استدعاني الرئيس ياسر عرفات وطلب مني البقاء إلى جانبه لمتابعة مجريات المؤتمر. ولم أتردد بطبيعة الحال. لكنني علمت لاحقاً أن عدداً من قيادات فتح أصر على عدم ذهابي إلى مدريد. فقد كانت مجموعة منهم تبذل قصارى الجهد لإقصائي عن مركز الفعل، بعد أن تكللت الجهود السياسية والدبلوماسية والإعلامية بالنجاح في بلورة خطوة ملموسة هي الأولى منذ أن أطلقت مبادرة السلام في ١٣ كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٨٨ أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة.

كان البعض، الذي التحق متأخراً بركب المبادرة السياسية، يظن أن العمل الدبلوماسي السري هو الذي سيدفع العملية للأمام. وارتكبوا الخطأ الكبير الذي يفصل فصلاً تعسفياً بين السياسة والإعلام والدبلوماسية. فالإعلام كان سلاحاً ماضياً في تلك الحلبة السياسية. والرأي العام كان قوة ضاغطة بكل معنى الكلمة. ولم يكن بيد الفلسطينيين سلاحاً (في ظل مبادرتهم للسلام التي نبذت العنف) سوى سلاح الإعلام المرتبط بالخط السياسي والنشاط الدبلوماسي.

وكانت الصيغة التي استندت إليهما هذه المجموعة من قيادات فتح، هو أنني أستند إلى الإعلام وأكثر من هذا الاستناد، مما يضر بالحركة السياسية والنشاط الدبلوماسي.

كان من المقرر أن تعقد الجلسة الافتتاحية لمؤتمر مدريد بعد يومين من طلب الرئيس أن أبقى إلى جانبه. وفي صبيحة يوم الافتتاح اتصل بي الرئيس وطلب مني أن أتوجه فوراً للمطار. وكما هي العادة توجهت فوراً، وعلمت أننا سنتوجه للمغرب بدعوة من الملك الحسن الثاني لمتابعة مجريات الافتتاح من هناك.

رافق الرئيس في تلك الزيارة فاروق القدومي (أبو اللطف) وعبد الله حوراني وأنا.

وما إن أقلعت الطائرة باتجاه المغرب حتى بادرني الرئيس بالقول: خذ هذا النص واقرأه بتمعن وقل لي ما هو رأيك.

فقلت: ما هو هذا النص؟

فأجاب: إنه نص الكلمة التي أعدّتها مجموعة من الداخل ويقترحون أن تكون هي كلمة الوفد بدلاً من الكلمة التي أعددناها ووافقت عليها اللجنة التنفيذية. قرأت الكلمة بإمعان. وكانت قد صيغت باللغة الإنجليزية.

وعندما رفعت رأسي لأنظر للرئيس وجدته ينظر إليّ منتظراً تعقيبي على الكلمة. فقلت له:

«هذه كلمة اعتذار عن كل نضالنا وفيها نعلن توبتنا وكأننا ارتكبنا إثماً. والكلمة لا تأتي على ذكر منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ولا على قيادة الشعب الفلسطيني ولا تذكر حتى قرارات الشرعية الدولية المتصلة بأرضنا».

فاروق القدومي (أبو اللطف) كان يصغي ويبتسم ثم ينظر إلى

الرئيس. وكأنما جاء تعقيبي مطابقاً أو شبيها بتعقيبه هو.

طلب الرئيس من عبد الله حوراني ومن فاروق القدومي ومني أن نبدأ بصياغة تعديلات لإضافتها إلى الكلمة لتسد كل النواقص التي نعتقد أن هنالك ضرورة لسدها.

وشرعنا في بحث بعض النقاط في حين أعلن قائد الطائرة بداية هبوطه نحو الرباط.

كالعادة ضجت الطائرة بالحركة. الجميع يهيئ نفسه للهبوط.

وما هي إلّا دقائق حتى حطت بنا الطائرة وسارت متمهلة إلى أن توقفت قرب قاعة التشريفات في مطار الرباط.

حرص الرئيس على أن يكون الاستقبال سريعاً لكسب الوقت، وتوجه فوراً نحو قصر الضيافة الملكي حيث سيقيم الوفد.

وطلب الرئيس من بعض مساعديه إجراء الاتصالات اللازمة لوصله بالدكتور نبيل شعث الذي كان مكلفاً بالتنسيق مع الوفد القادم من داخل الأرض المحتلة. وكذلك مع الفريق الروسي الذي يشارك في الإشراف مع الفريق الأميركي على مؤتمر مدريد للسلام في الشرق الأوسط.

تم الاتصال، وأبلغ الرئيس الدكتور نبيل شعث الملاحظات حول الكلمة التي أعدت في الداخل، وقال له إن لا بد من إضافة بعض التعديلات السريعة حتى لا تكون الكلمة كارثة سياسية.

وقام عبد الله حوراني بإعطاء الملاحظات والتعديلات للدكتور نبيل شعث. وقد شملت جملاً مركزة حول الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وقرارات الشرعية الدولية وتأكيد أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني وأن قيادة المنظمة هي قيادة الشعب الفلسطيني وكذلك حل الدولتين.

لم يكن قد بقي كثير من الوقت على موعد الجلسة الافتتاحية للمؤتمر. لكن الوقت المتبقي كان كافياً لإجراء التعديلات على النص المقترح لكلمة الوفد الفلسطيني التي تقرر أن يلقيها الدكتور حيدر عبد الشافي رئيس الوفد.

جلسنا في إحدى غرف الاستقبال ننتظر.

بعد دقائق حضر للقاعة أحد مساعدي الرئيس ليبلغه أن الدكتور نبيل شعث يريد أن يكلمه لأمر هام.

فتوجهنا جميعاً إلى غرفة الاتصالات. أصغى الرئيس باهتمام لما كان يقوله الدكتور نبيل شعث. وفجأة علق قائلاً «ينسحبون»؟ بلهجة سؤال.... وطلب منه الانتظار على الخط.

وأخبرنا أن نبيل شعث اتصل بالروس ليبلغهم حول التعديلات التي نريد إضافتها على الكلمة. وكان قد أطلعهم على نص الكلمة من قبل. ولا شك بأنهم أعلموا الفريق الأميركي بمضمون كلمة الوفد الفلسطيني. وأن الفريق الروسي قام ببعض الاتصالات قال بعدها «إنهم يخشون في حال إدخال هذه

التعديلات أن ينسحب الوفد الإسرائيلي من جلسات المؤتمر».

وقلت تعليقاً على ذلك: لم يذهب شامير إلى مؤتمر مدريد لينسحب، هذه رغبة أميركية. ولن يحرجوا أنفسهم مع الرئيس بوش. إضافة لذلك فنحن لا نعلم ماذا سيقول شامير في كلمته رغم أنني أتوقع أن تكون متطرفة ورافضة لمشروع السلام.

اقتنع الرئيس بكلامي وكرر ذلك لنبيل شعث، رغم قلقه الشديد من انهيار المؤتمر.

فقد كانت هذه أول خطوة ملموسة على طريق البداية، في مسيرة لا شك ستكون طويلة نحو إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة.

وطلب الرئيس من نبيل شعث إبلاغ الوفد أن هذه هي تعليماته.

وهكذا كان.

جاءت كلمة الدكتور حيدر عبد الشافي بعد إضافة التعديلات لتضع الانتماء والأهداف بشكل واضح. وحددت بما لا يرقى إليه الشك مكانة «م.ت.ف» كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني، وكذلك أن قيادتها هي قيادة كل الشعب الفلسطيني.

كانت تلك اللحظة من أهم اللحظات السياسية. فبعد أن أصر شامير أسبوعاً تلو الأسبوع على عدم مشاركة «م.ت.ف» في المؤتمر وأن له حق الفيتو على أي اسم يطرح للمشاركة في الوفد المشكل من شخصيات فلسطينية من داخل الأرض المحتلة. ها هو يستمع بأذنيه للوفد الفلسطيني يؤكد أن «م.ت.ف» هي

ممثل الشعب الفلسطيني الشرعي وأن قيادتها هي قيادته.

وفي اليوم التالي استقبلنا الملك الحسن الثاني. ودار الحديث حول الترتيبات التي سبقت عقد الجلسة الافتتاحية والتوقعات. وكان الاتفاق بين الرئيس والملك جلياً. فالمعركة في هذه الفترة هي معركة سياسية إعلامية دبلوماسية، وهدفها الأول هو تحويل الفكرة إلى مجرى ملموس. أي بدء المفاوضات برعاية أميركية ـ روسية لتطبيق قرارات الشرعية الدولية.

وهكذا بدأت معركة من نمط آخر. فبعد حضور الحكومة الإسرائيلية الجلسة الأولى للمؤتمر ومتابعتها للجلسات، تحولت المعركة إلى الاتفاق على آلية أو آليات لمتابعة المفاوضات بشكل عملي وملموس.

انتهى اللقاء وسار الرئيس جنباً إلى جنب مع الملك الحسن الثاني يتبعهم أعضاء الوفد. وعند المدخل الخارجي للقصر الملكي توقف الملك مودعاً الرئيس وتقدمنا نحن للسلام. أوقفني الملك لحظة وقال للرئيس: من المفروض أن يكون بسام في مدريد للمعركة السياسية الإعلامية. فابتسم الرئيس وكأنه يقول «هو كذلك».

وغادرنا الرباط عائدين إلى تونس.

توجهت إلى مكتبي لأعدّ نفسي للسفر إلى مدريد. تعذر وجود طائرة ذلك اليوم وتعذر وجود أماكن على طائرتي اليومين التاليين.

فاتصلت بصديقي تايني رولاند وطلبت منه إرسال طائرت الخاصة

لتقلني من تونس إلى مدريد. فقام بإرسالها. وما إن تأكدت أنها هبطت في مطار تونس، توجهت لمكتب الرئيس وأخبرته بما يجري.

نظر إلي وقال: ابق إلى جانبي مرة أخرى.

وتأكدت في تلك اللحظة أن الرئيس لا يريد تعكير أجوائه الداخلية وأنه رضخ لضغوط بعض مراكز القوى في حركة فتح.

(٢٧)

يوم سقطت طائرة عرفات في صحراء ليبيا

في الثامن من نيسان/أبريل ١٩٩٣ استشهد شاب فلسطيني من أشجع الشباب. ورغم أن اسمه نادراً ما يذكر، إلّا أنه سيبقى في ذهني رمزاً للشجاعة والفداء. إنه الكابتن محمد درويش الذي كان يقود طائرة الرئيس ياسر عرفات، التي حاصرتها غيوم من الرمال وأفقدتها القدرة على الاتصال والرؤية واصطدمت بتلال من الرمال في الصحراء الليبية. هذا الحادث كاد يودي بحياة الرئيس ياسر عرفات لولا مشيئة الله وشجاعة الكابتن محمد درويش التي لا يمكن أن توصف، ولا سيما في اللحظة الحاسمة والخطيرة.

على يمين الكابتن محمد درويش في قمرة القيادة كان مساعده غسان ياسين، وهو رجل شجاع لم يتسرب إليه الخوف، يحاول أن يساعده في إدارة الدفة رغم أن الاثنين كانا يعلمان باستحالة إدارة

الدفة بشكل طبيعي، كون الطائرة محاصرة بغيوم الرمال ولا يعرفان طبيعة الأرض التي سيهبطان فيها أو حتى على أي علو يحلقان في السماء، فقد تعطلت كافه الأجهزة في تلك الأثناء. عندما أيقن الكابتن محمد درويش أنه أصبح مستحيلاً عليه الاتصال بأي برج مراقبة، وأن الرؤية بلغت درجة الصفر اتخذ القرار الشجاع، سلم دفة القيادة لمساعده وطلب منه الحفاظ على نفس العلو لحين عودته. وتقدم نحو الرئيس ياسر عرفات وأدى له التحية العسكرية قائلاً:

سيدي الرئيس، إننا معزولون تماماً. فالعواصف الرملية تحيط بنا من كل جانب والرؤية معدومة، وكافة أجهزة الاتصال تعطلت. وتابع يقول فيما الرئيس ياسر عرفات يصغي له بانتباه:

«لا نعرف بالضبط أين نحن الآن. لكننا نعلم أننا فوق الصحراء الليبية وفي مكان ليس بعيداً من معسكر السارة (معسكر للقوات الفلسطينية أقيم بعد خروج القوات الفلسطينية من لبنان عام ١٩٨٢) توقف الكابتن محمد درويش عن الكلام ثواني ثم تابع يقول للرئيس: «إننا مضطرون للهبوط اضطراريا دون أن نعلم ما هي طبيعة الأرض التي سنهبط عليها سوى أنها رملية. وقد تكون منطقة تلال رملية أو سهلاً رملياً. لكن هذه العواصف الرملية قادرة على تغيير طبيعة الكثبان الرملية في كل لحظة».

نظر إليه الرئيس وحدق في عينيه وكأنه يقول: ماذا تقترح؟

برباطة جأش وهدوء كاملين قال الكابتن محمد درويش للرئيس: يجب أن تنفذ تعليماتي فوراً. عليك العودة للمقعد الخلفي فوراً وطلب من الإخوة الذين أحاطوا بالرئيس أن يجمعوا كافة البطانيات

(أغطية صوفية) الموجودة في الطائرة. شد الحزام حول وسط الرئيس الذي انصاع لتعليمات الكابتن، ثم قام بلف البطانيات حول جسد الرئيس ورأسه. ثم طلب من الإخوة أن يحيطوا بالرئيس كدرع حماية بشري. وعاد الكابتن إلى قمرة القيادة، جلس إلى مقعده بهدوء، شد حزام الأمان ونظر إلى مساعده غسان نظرة مليئة بالثقة والإيمان والتضحية بالنفس وقال له. «غسان، توكل على الله. إننا نحاول حماية القائد والوطن، سنهبط مهما كانت الظروف لأننا لا يمكننا البقاء في الجو أكثر من دقائق. كما ترى نفد الوقود تقريباً». أجابه غسان وهو ينظر إليه قائلاً: توكلنا على الله.

خلال ثوان معدودات شرح الكابتن محمد لغسان خطته. سوف يهبط ببطء وتدريجياً دون أن يعلم متى سيرتطم برمال الصحراء أو تلالها. لكنه ألقى أنف الطائرة منخفضاً حتى يبقى ذيلها مرتفعاً. وذلك يعني أن صدمة الارتطام القاتلة سوف تتلقاها قمرة القيادة حيث يجلسان وليس الذيل حيث كان يجلس الرئيس مغموراً بالبطانيات والرجال الشجعان.

سادت دقائق من الصمت الرهيب، لا صوت سوى صوت المحركات وشخيرها. عندما تلطمها العواصف الرملية وكأنها تحاول إيقافها عن الدوران.

كانت أجهزة الطائرة واللوحة التي تزود قائدها بالمعلومات معطلة، فلم يكن الكابتن محمد يدري على أي ارتفاع هو ومتى سيرتطم بالصحراء، وفجأة انتابه إحساس غريب بأنه اقترب من الأرض فخاطب الجميع كي ينتبهوا ويتمسكوا جيداً بمقاعدهم. وطلب من بعض الأخوة الشجعان، الذين كانوا يقفون عند باب قمرة القيادة

لمتابعة ما يجري، أن يعودوا فوراً للمقاعد الخلفية وأن يربطوا الأحزمة وأن يتمسكوا بالمقاعد بقوة.

ما هي إلّا ثوان حتى نزلت الطائرة. فقد هبط الكابتن بها وأنفها منخفض مما حطم غرفة القيادة وفتت جسم الطائرة إلى ثلاث قطع ــ الجزء الخلفي والوسط وقمرة القيادة المدمرة. واستشهد الكابتن محمد ومساعده غسان على الفور. وكان مهندس الطائرة الروماني قد أصيب بسكته قلبيه أدت إلى وفاته قبل ذلك بساعة تقريباً.

ليل الثامن من نيسان/أبريل من العام ١٩٩٣، ارتطمت طائرة الرئيس ياسر عرفات برمال الصحراء الليبية، واستشهد قائدها ومساعده، ومهندسها. لكن العاصفة الرملية استمرت تولول حول أجزاء الطائرة التي بقيت. وهلة الصدمة والارتطام خيمت على الطائرة بأجزائها الثلاثة. وتحرك الرئيس ياسر عرفات وأصدر أوامره للجميع بإخلاء الطائرة (أو ذيلها) فوراً خشية اندلاع حريق. وراح الجميع يبحثون في الأجزاء عن إخوانهم الآخرين، الذين أصيب عدد منهم بجراح وبعضهم حاصرته قضبان الحديد الملتوية فلم يتمكنوا من إخراجهم. وخرج جميع من تمكن من الحركة من الطائرة ليواجهوا عاصفة الرمال التي بقيت تولول وزادت الظلام الدامس حولهم ظلاماً. وسحب الرمال المجنونة كانت تهبّ في كل اتجاه وتتلوى حسب ما تشتهيه الرياح.

وكنت رافقت الرئيس ياسر عرفات في الثالث من نيسان/أبريل في زيارة قام بها لليمن. ولقد طرنا من تونس لليمن على متن طائرة الرئيس النفاثة (جت) وهي مجهزة تجهيزاً حديثاً كاملاً بما في ذلك جهازا كومبيوتر إضافيان للاحتياط.

وبعد انتهاء المباحثات، طلب مني الرئيس ياسر عرفات أن أبقى في اليمن لمتابعة أمر اتفق عليه مع الرئيس علي عبد الله صالح. وغادر هو للسودان في زيارة مباحثات. وطلب مني العودة لتونس حالما أنهي العمل المكلف به، على متن طائرة تجارية.

وبالفعل أنهيت العمل في اليوم التالي وغادرت بعد منتصف الليل إلى تونس عبر باريس (طائرة اير فرانس). وصلت تونس في الخامس من نيسان/أبريل وتوجهت لمكتبي فوراً. وأجريت اتصالاً بالإخوة الذين رافقوا الرئيس للسودان فأبلغوني أنهم سيتأخرون قليلاً لأن زجاج الطائرة النفاثة (الجت) قد تشقق، وأن الطيارين يصرون على استبداله بزجاج جديد لأن الطيران سيصبح خطراً على حياة الرئيس إن بقي الزجاج الأمامي للقمرة مشققاً. وتبين أنه لا توجد قطع غيار لهذا النوع من الزجاج في السودان وجرت محاولة شرائه من الإمارات لكن الإخوة أبلغوا أن ذلك سيتطلب عشرة أيام من الوقت على أقل تقدير. عندها قرر الرئيس ياسر عرفات استخدام إحدى الطائرات العسكرية التي كانت تابعة للقوات الفلسطينية المتمركزة في السودان. وهي من طراز «أنتونوف» خضعت للصيانة قبل شهر. لكنها غير مجهزة بأجهزة حديثة كونها من طراز قديم استخدمت أثناء الحرب العالمية الثانية. وفي الثامن من نيسان/أبريل أقلعت «الانتونوف» في طريقها إلى تونس عبر الصحراء الليبية. كما ذكرنا، لم تكن الطائرة مجهزة بأجهزة حديثة. إذ كان من الممكن لقبطان الطائرة أن يرى على شاشته أن عواصف رملية عاتية تزحف نحو مسار الطائرة قادمة من مصر وأماكن أخرى من الصحراء. فاستمر في الطيران حسب الخطة المرسومة. ولم تقم الأبراج التي كان على اتصال بها بإبلاغه بالعواصف الرملية إلا بعد فوات الأوان. إذ وجد نفسه

وسط العواصف الرملية وانعدمت الرؤية تماماً وتعطلت أجهزة الاتصال.

كنت أتابع عملي في مكتبي الكائن في حي «المنزه السادس» بمدينة تونس عندما تلقيت اتصالاً هاتفياً من أحد هواة الراديو، الذي أبلغني أنه التقط بالصدفة نداء استغاثة من طائرة تقل الرئيس ياسر عرفات، وأن الطائرة كانت فوق الصحراء الليبية، اعتقدت في بادئ الأمر أن المكالمة استهدفت بث القلق والتشويش ولا تعدو في أحسن الأحوال كونها دعابة ثقيلة. لكنني قررت الاتصال بالمسؤولين الليبيين ليطمئن قلبي وعقلي. وبالفعل اتصلت هاتفياً بالأخ عبدالله السنوسي الساعد الأيمن للعقيد معمر القذافي وسألته عن أخبار طائرة الرئيس. فأجابني بقلق شديد: لقد فقدنا الاتصال بها ونخشى أن تكون في مأزق بسبب العاصفة الرملية الهوجاء التي ما زالت تجتاح المنطقة. لكننا نتابع بسرعة من خلال أقرب مطار ومن خلال قواتنا في الصحراء. كان الأمر صحيحاً إذا.

بعد نصف ساعة عاودت الاتصال بالأخ عبدالله السنوسي فأبلغني أنهم لم يعثروا عليها بعد، ويعتقدون أنها سقطت في منطقة صحراوية قرب «السارة». (السارة كانت موقعاً عسكرياً لقسم من القوات الفلسطينية التي تم توزيعها على عدد من الدول العربية بعد خروجها من لبنان في أيلول/سبتمبر من العام ١٩٨٢).

استنفرت إحساسي وأعصابي وعقلي وأحسست بقلق شديد على مصير الرئيس ياسر عرفات. كان الخبر قد انتشر بسرعة النار في الهشيم. وبدأ المراسلون الصحافيون الأجانب والعرب يتدفقون إلى مكتبي للاستفسار وتتبع الأخبار، اعتذرت منهم بعد أن أكدت لهم

النبأ وعدت من صالون الاستقبال حيث كانوا يتجمعون، إلى مكتبي لأتابع الأمر.

تجمع حولي في المكتب عدد من الأصدقاء والإخوة، وراح كل منهم يدلي بفكرة أو رأي أو توقع. فكرت ملياً: إذا كانت الطائرة قد سقطت فإن كل لحظة تمر هي لحظة ثمينة جداً. وتخيّلت الوضع: طائرة صغيرة سقطت على أرض صحراوية والعاصفة تلفها من كل مكان وتجعل رؤيتها ضرباً من المستحيل، وتحرك أي شخص أو آلية سيكون عبثاً طالما أن الموقع غير محدد بالضبط.

وصلت في تفكيري إلى أن تحديد مكان الطائرة المتحطمة هو الخطوة الأساسية الأولى والضرورية لكل الطواقم التي لا بد أنها تهيأت لعملية إنقاذ.

تبادلت الرأي مع الإخوة الذين كانوا قد تجمعوا في مكتبي، ووافق الجميع على أن هذه الخطوة هي الأولى والضرورية للبحث عن الطائرة. وقررت الاتصال بثلاث دول تملك القدرة على تحديد مكان الطائرة «الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا».

تحدثت هاتفياً مع مدير عام وزارة الخارجية البريطانية ثم إلى وزير الخارجية وأبلغتهم بما حدث وأننا نطلب مساعدتهم في تحديد موقع الطائرة.

كما تحدثت مع وزير الخارجية الفرنسي وطلبت منه المساعدة على تحديد الموقع. وقلت له إن الطيران الفرنسي المتمركز في تشاد قد يكون القادر على تحديد موقع الطائرة. وعدني الوزيران خيراً.

لكن الاتصال الأهم كان مع الولايات المتحدة الأميركية. فقد اتصلت بالرئيس جيمي كارتر عبر البيت الأبيض ولكن عبر خطه المباشر، وكنت أعلم أن البيت الأبيض يقدم الخدمات لكل الرؤساء السابقين وأن جهاز أمن البيت الأبيض على اتصال مع مفرزة الأمن لحماية الرؤساء السابقين. اتصلت بالبيت الأبيض وطلبت التحدث للرئيس جيمي كارتر لأمر عاجل وضروري. وبعد أن أخذوا كل المعلومات عني وكيف يكتب اسمي حولوني لمركز أمن البيت الأبيض، الذي أعاد الأسئلة وتأكد من هوية السائل. وطلب مني الانتظار لحظات. ما هي إلّا لحظات حتى ردت على الهاتف السيدة كارتر وأبلغتني أنه نائم.

شرحت لها الوضع وخطورته فقالت بلطف: انتظر سوف أبلغه. ما هي إلّا ثوان حتى سمعت صوت الرئيس كارتر (الذي أعرفه منذ فترة من الوقت) يحيّيني ويسألني عما جرى.

أبلغته وطلبت منه استخدام نفوذه لدى البيت الأبيض لإعطاء التعليمات للجهات المسؤولة لتقوم الأقمار الاصطناعية الأميركية (التي تراقب ليبيا حتماً) بتحديد موقع الطائرة بدقة. وأبلغته المعلومات الأولية حول الموقع التقريبي حسب اعتقاد الإخوة الليبيين. أجابني الرئيس كارتر: سأحاول جهدي فوراً وسأكلمك بعد ربع ساعة. الجميع كان متوتراً وقلقاً. ولا أحد يدري ماذا جرى وما هي نتائج تحطم الطائرة. وتتدافع الأفكار ويزداد التوتر والقلق.

خلْت الربع ساعة دهراً. كانت يدي تمسك بسماعة الهاتف طوال الوقت انتظاراً. ورن جرس الهاتف. التقطت السماعة بسرعة. كان الرئيس كارتر المتحدث. وأبلغني بالإحداثيات التي أعطتها له

الجهات المسؤولة. شكرته جزيلاً. ورحت أحاول الاتصال بالأخ عبد الله السنوسي الذي تعذر لفترة من الوقت. لكن في نهاية الأمر تمكنت من مكالمته وأعطيته الإحداثيات.

قال لي: هذا جيد لكن العاصفة ما زالت تهب والرؤية معدومة ولا نستطيع التحرك في المنطقة. وأبلغنا معسكر القوات الفلسطينية في السارة (وهي الأقرب للموقع الذي يظن أن الطائرة سقطت فيه) بالإحداثيات. ورحنا ننتظر على أحر من الجمر. وانتبهت فجأة إلى فتاة تجلس قرب مكتبي كانت مراسلة «البي بي سي» في تونس. وقد دونت كل التحركات التي قام بها مكتبي والاتصالات التي أجراها. فسألتها كيف دخلت الغرفة؟ فأجابت مبتسمة: هذه لحظات تاريخية. أردت أن أكون شاهدة.

ماذا كان يدور في موقع سقوط الطائرة.

عندما ارتطم أنف الطائرة بكثبان الرمل تمزقت إلى ثلاث قطع كما ذكرنا. وبقي الجزء الخلفي أقل تحطماً من الأجزاء الأخرى.

قمرة القيادة دمرت واستشهد فيها الطيار ومساعده. والتف الحديد الملتوي على ساق ماهر مشعل الذي بقي أسير ذلك الحديد الملتوي إلى أن حرره منه رفاقه.

فقد أصدر الرئيس أمراً بإخلاء الطائرة تحسباً من حريق قد ينتشر إثر ارتطامها. وحاول بعض الإخوة الذين كانوا قادرين على الحركة تحرير ماهر مشعل من قضبان الحديد التي التفت على ساقيه عبثاً. عدد من الإخوة أصيبوا بجروح مختلفة. وعندما اطمأن الجميع أن

النار لن تشتعل في ما تبقى من الطائرة (إذ قام الكابتن محمد بالتحليق حتى آخر قطرة وقود)، أمر الرئيس الجميع بالعودة إلى ذيل الطائرة خشية هجوم ثعالب الصحراء التي تقودها رائحة الدم. وطلب من الإخوة تفقد ما تبقى من ماء وطعام. لم يكن هنالك الكثير. فقد نجت من الكارثة زجاجتا ماء وأربع برتقالات. وتقرر أن تستهلك بحرص شديد وكميات قليلة خشية أن يطول الوقت قبل وصول فرق الإنقاذ.

ومعروف أن الرئيس ذو خبرة واسعة ومطّلع، ومعلوماته العامة بحر واسع. فهو يحمل دائماً في جيوبه الصغيرة سكيناً سويسرية، وبوصلة، وإبرة خياطة، وخيطاناً، ومشعلاً كهربائياً صغيراً (لوكس) وغيرها من الأدوات المفيدة لأي جندي أو كشاف في حالة الضرورة. على ضوء ذلك الضوء المنبعث من المشعل الكهربائي الصغير راح يتفقد رجاله واحداً واحداً.

وانتبه أن فتحي قد أصيب بجرح بالغ مما أدى إلى اقتلاع جلدة رأسه. فطلب فوراً زجاجة ماء وراح ينظف الجرح من الرمال العالقة، وعندما تأكد من نظافته من الرمال قام بإعادة تثبيتها بمهارة المهندس. عندما أتم فحص رجاله واطمأن عليهم تحدث بهدوء للجميع. قال لهم: لا ندري كم يطول بقاؤنا هنا ولكن علينا دائماً أن نحسب حساب الأسوأ. لذلك علينا أن نكون حريصين في مثل هذه الحالات التي يفتقد فيها الأكل والماء. علينا أن ننتبه إلى ما لدينا إلى أقصى درجة. وطلب من الجميع ألا يبولوا في الصحراء بل في زجاجات الماء الفارغة لأن المجموعة قد تضطر لاستخدامها. ورتبت مناوبات الحراسة خشية مهاجمة الموقع من وحوش الصحراء خصوصاً أن هنالك جثتي قائد الطائرة ومساعده وجثة المهندس

الروماني بين الحطام دون دفن. ما إن وصلت المعلومات للقوات الفلسطينية في معسكر السارة حتى انطلقت مجموعات محمولة بسياراتها الصحراوية نحو الموقع. كان الأمر صعباً جداً. فقد بقيت الرؤية معدومة ومصابيح السيارات لا تنير أكثر من سنتمترات معدودة. كانت القافلة تسير ببطء شديد وتتوقف لتتأكد من الاتجاه باستخدام البوصلة. ساعات مضت دون أن تتمكن القافلة من تلمس أي دليل على موقع الطائرة. فقد أخفت الرمال كل أثر ومنعت الرؤية. وكاد يسقط في يد الرجال. وفجأة برز بدوي من بين أمواج الرمال المتطايرة. عمّ تبحثون يا رجال؟ وأجاب أكثر من ضابط: عن طائرة سقطت منذ ساعات في هذه المنطقة. وتطوع البدوي لإرشادهم للموقع. وهكذا كان. فقد استخدم أنفه وأذنيه وقادهم نحو الموقع في ظل عواصف الرمال. هرع الجميع وبدأت عملية الإنقاذ.

(ما جرى في الموقع نقلاً عن أخوة كانوا على متن الطائرة).

في مكتبي في المنزه السادس بتونس كان الجو متوتراً وقلقاً لأننا لم نكن نعلم ما يدور. لكننا كنا ننتظر. مئات المكالمات الهاتفية للاستفسار، عشرات المقابلات الإذاعية والتلفزيونية حول ما حدث وماذا بعد... ومن سيخلف الرئيس عرفات. وفي خضم ذلك قال لي «فادي الصفدي» أحد الأصدقاء: لا توجد أي وسيلة الآن للوصول لطرابلس الغرب، ولذا علينا استئجار طائرة خاصة، لنكون جاهزين للانطلاق لطرابلس. وأردف: «لدي إحساس أنهم أنقذوا أبا عمار». فقلت له: «هذه فكرة حسنة».

وأجرى فادي اتصالاته، وطلب طائرة خاصة صغيرة من شركة طيران إيطالية، وصلت مطار تونس بعد ساعتين. خلالها أجريت

اتصالاتي مع الإخوة الليبيين الذين لم يكونوا متأكدين في البداية من وصول فرق الإنقاذ. ولكن في الساعة الأخيرة أعلموني أن الفرق وصلت وأنهم يتهيأون لاستقبال أبو عمار في مستشفى طرابلس. أجريت اتصالاتي مع عدد من قيادات فتح ومنظمة التحرير لأبلغهم أن طائرة خاصة تجثم على مدرج مطار تونس جاهزة لنقلهم إلى طرابلس. حتى تلك اللحظة لم أكن أعرف ولا أحد يعرف مدى إصابة الرئيس.

وبعد ساعتين من الوقت رن جرس الهاتف في مكتبي وكان المتحدث الرئيس بنفسه. قال لي بالحرف: «الحمد لله أنا بخير يا بسام». وسقطت من عيني دمعة الفرح.

(٢٨)

العودة والحصار القاتل

جُرّ شامير جراً إلى مؤتمر مدريد للسلام في الشرق الأوسط في الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٩١.

وكان الرئيس جورج بوش قد أعلن نيته إيجاد حل سياسي للصراع العربي ـ الإسرائيلي في الكلمة التي ألقاها أمام الكونغرس بعد الحرب التي شنتها الولايات المتحدة على العراق إثر اجتياح القوات العراقية لدولة الكويت.

وحدد شامير في كلمته أمام المؤتمر سياسة الليكود (الحاكم آنذاك) الرافضة للانسحاب من الأراضي الفلسطينية المحتلة وجوهر عملية السلام.

وبقي الخط الذي رسمه إسحق شامير ساري المفعول ويحدد سياسة

الليكود التي رسمها شامير، وهي التي التزم بها بيبي نتنياهو وأريل شارون وهما رئيسا الوزارة الإسرائيلية الليكوديان، اللذان حكما بعد مقتل إسحق رابين على يد متطرف يهودي بتحريض من السياسة الليكودية في إسرائيل.

وتحولت المداولات التي شكلها مؤتمر مدريد للسلام، بفضل سياسة شامير، إلى مضيعة للوقت، أرادت حكومة شامير من خلال ذلك وفق وتمييع ثم إنهاء المبادرة الأميركية التي أطلقها الرئيس جورج بوش الأب آنذاك أمام الكونغرس، فأصيبت كل العملية بالشلل.

ورغم محاولات الإدارة الأميركية فقد استمر التعنت الإسرائيلي لدرجة أن وزير خارجية الولايات المتحدة آنذاك جيمس بيكر قال في مؤتمر صحافي: هذه هي أرقام البيت الأبيض فإذا أرادت الحكومة الإسرائيلية أن تغير موقفها وتنحاز إلى السلام فلتتصل بنا.

لكن فوز حزب العمل بقيادة رابين في الانتخابات الإسرائيلية أحدث نقطة تحول. ولعبت النرويج (بسبب العلاقات الجيدة بين قيادة الحزب الحاكم فيها وحزب العمل) دوراً هاماً في استضافة مباحثات سرية في العاصمة أوسلو أدت إلى التوصل لاتفاق (سمي اتفاق أوسلو) بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل.

وفي الثالث عشر من شهر أيلول/سبتمبر من العام ١٩٩٣ وقع الرئيس ياسر عرفات ورئيس وزراء إسرائيل الاتفاق وتصافحا في البيت الأبيض بواشنطن.

وانهمك الجميع في الإعداد لرحلة العودة بناء على اتفاق أوسلو.

وفي الأول من تموز/يوليو من العام ١٩٩٤ عاد الرئيس ياسر عرفات إلى فلسطين المحتلة وكانت محطته الأولى قطاع غزة.

وفي الثامن والعشرين من أيلول/سبتمبر ١٩٩٥ تم توقيع اتفاق جديد أطلق عليه (أوسلو ٢) ليشمل الضفة الغربية بعد أن حطت رحال الرئيس عرفات قبل عام في قطاع غزة.

رغم العراقيل، يمكننا القول إن تطبيق اتفاق أوسلو كان يسير للأمام وإن كان متلكئاً.

لكن الانقلاب في الموقف الإسرائيلي الذي أدى إلى سفك الدماء والدمار جاء إثر اغتيال رابين على يد متطرف من رجال الأمن الإسرائيليين، بتحريض من الليكود وتنظيمات يهودية متطرفة.

ففي الرابع من نتشرين الثاني/وفمبر من العام ١٩٩٥ وبعد إلقاء كلمته أمام مئات الآلاف من الإسرائيليين بتل أبيب، أطلق رجل الأمن المتطرف النار على إسحق رابين فأرداه قتيلاً.

ودب رعب في أوساط قيادة حزب العمل، مما جعل شمعون بيريز، الذي تسلم رئاسة الحكومة لحين إجراء الانتخابات، يتخذ مواقف سلبية من الاستمرار في تطبيق اتفاق أوسلو. لا بل اتخذ قرارات خاطئة في محاولة لإثبات تطرف حزب العمل، كذلك الخطأ الرهيب عندما أمر بشن غارات جوية على قانا بجنوب لبنان، أدت إلى مقتل وجرح المئات من المدنيين اللبنانيين، وكذلك عندما قرر تأجيل تطبيق اتفاق أوسلو كما هو محدد في الجدول الزمني. فلم يسلّم مدينة الخليل للفلسطينيين كما هو متفق.

وعاد «الليكود» للحكم بعد أن خسر «العمل» الانتخابات وأصبح نتنياهو رئيساً لوزراء إسرائيل، وبرهن عن التزامه بالسياسة التي رسمها إسحق شامير الرافضة لإقامة دولة فلسطينية مستقلة تكون أساساً للسلام بين الشعبين الإسرائيلي والفلسطيني.

وجرى بيني وبين الرئيس ياسر عرفات حديث معمق حول المرحلة وحول نوايا الإسرائيليين. وكانت وجهة نظري التي وافقني عليها، هي أن المسؤولين الإسرائيليين الذين يفاوضوننا لا يقبلون فكرة إقامة دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة وعاصمتها القدس الشرقية. وأن ما يريدون هو أن تقيم منظمة التحرير الفلسطينية حكماً ذاتياً محدوداً وتلعب دور الشرطي لحماية إسرائيل.

شاطرني الرئيس ياسر عرفات الرأي لكنه قال: ليس كل ما يريدونه قدراً، سوف نقيم دولتنا المستقلة.

نتنياهو بدأ بتطبيق سياسة شامير تدريجياً. أي تحطيم اتفاق أوسلو والعودة لإخضاع الفلسطينيين بالقوة العسكرية. وهيأ نتنياهو البنية اللازمة التي استخدمها شارون في إعادة احتلال المناطق الفلسطينية، عبر سفك الدماء والتدمير واقتلاع الشجر واعتقال جماعي للشعب الفلسطيني.

دوّنت في مذكراتي في التاسع من كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٩٦ ما يلي:

الصراع الذي يخوضه ياسر عرفات في هذه الفترة هو صراع مرير وصعب، فهو يواجه الآن بشكل مباشر مخطط الليكود الرامي إلى

إلحاق الضفة الغربية بإسرائيل وإبعاد العرب عنها تدريجياً وتهويد مدينة القدس. وهذا يعني أن عرفات يصارع «الوحش» وجهاً لوجه. ويبدو للوهلة الأولى أن ميزان قوى هذا الصراع لا يحمل في طياته أي علائم للانتصار على الوحش، إلّا أن هذه العلائم يمكن أن تظهر لصالح عرفات إن أحسن الفلسطينيون التصرف، والتدبير، والتخطيط. وأسباب الوضع الصعب كثيرة ومتعددة يقف على رأسها نتنياهو وحكومته بكل ما يمثلانه ويخططان له من تعنت، ومصادرة للأراضي وتوسيع للمشاريع الاستيطانية ومن ثم تعطيل عجلة السلام.

فمنذ حل نتنياهو رئيساً للحكومة الإسرائيلية وعراقيل عملية السلام تتوالى الواحد تلو الآخر. تمت مصادرة ٣٠٠,٠٠٠ دونم جديد من الأرض الفلسطينية تحت حجج مختلفة بعضها لشق طرق المستوطنات وبعضها بحجة دواعي الأمن الاستراتيجي.

كما تم إقرار توسيع عدد من المستوطنات بإقامة خمسين ألف منزل جديد.

وأعادت الحكومة الإسرائيلية لوجودها العسكري في الضفة الغربية زخمه السابق، وذلك بإضافة ثلاثة آلاف جندي لقواتها المتمركزة في الضفة. مما أدى إلى بروز شكوك كبيرة وعلامات استفهام واستفسارات حول عملية السلام برمتها. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن مواقف إسرائيل أدت إلى تردي الأوضاع الاقتصادية في المنطقة. فقد توقفت الوعود الدولية نتيجة لتعمد إسرائيل سد الطرق أمام أية محاولة لفك الطوق الاقتصادي، أو العمل على فتح أية ثغرة لعمل اقتصادي ناجح يمكنه أن ينتشل المنطقة من حالة الشلل والركود

السائدين. هذا إضافة إلى عدم وجود خطة شاملة للتنمية الاقتصادية على المستوى الفلسطيني تنفذ على مراحل. غياب خطة سريعة يعتمد عليها في تنفيذ الأعمال الصغيرة، كان من شأنها أن تأتي بمردود سريع على الفلسطينيين. سواء أكانت خلق فرص عمل لآلاف العاطلين عن العمل من الفلسطينيين، أو بتنشيط الدورة الاقتصادية في المجتمع الفلسطيني إضافة إلى مسألة أساسية وحيوية تتمثل في المرحلة القائمة التي يعيشها الفلسطينيون، وهي مرحلة الانتقال من الثورة إلى الدولة بكل ما تفرزه من حالات ونتائج. وأساساً فإن هذه المرحلة قلقة في عمومها، وإفرازاتُها تنعكس في كل الاتجاهات.

فالانتقال من الثورة إلى الدولة هو انتقال صعب إجمالاً، ذلك أن مثل هذه المراحل تختلط فيها الأمور والصفات، وتظهر فيها صعوبة التمييز بين الصفات النضالية كمقياس للحكم، وللتقييم، وبين صفات الكفاءة التقنية والمهنية كمقياس للتعامل عند بناء المؤسسات الجديدة، وهذا يوجد عادة تناقضات داخلية ويفرز حالات تصبح بعد فترة قصيرة مَرَضية تؤدي إلى تعطيل العمل، والتطور الإداري والمؤسساتي. وعودة إلى موضوع صراع عرفات والوحش، فإن ياسر عرفات على الرغم من هذا كله، ومن الصعوبات القائمة هو الأقوى (صاحب العرين) وعليه أن يستثمر هذه المعطيات على الرغم من تعقيدها وصعوباتها. فالحكومة الإسرائيلية تعزل نفسها بنفسها من خلال مواقفها التوسعية والرافضة لمعادلة الأرض مقابل السلام، التي أجمع عليها المجتمع الدولي بما فيه الولايات المتحدة الأميركية. إذ إن برنامج الحكومة الإسرائيلية له جذور تمتد عميقاً في السياسة الجابوتنسكية ــ الليكودية والتي تعتبر أن «يهودا والسامرة» هي أرض إسرائيل، ويظهر ذلك جلياً من خلال ما قاله رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو لروبرتسون: الخليل هي في موقع القلب،

هي مهد أجدادنا، ويهودا والسامرة رئتنا وأرض الأجداد فكيف تريد منا أن نتخلى عن قلبنا ورئتنا ورأسنا.

ويذكر أن أوروبا التي حاولت العمل على تنشيط عملية السلام، ورأب الصدوع أثناء حملة الانتخابات الأميركية، اكتشفت الحقيقة وباتت الآن تؤيد ياسر عرفات تأييداً مطلقاً، وظهر ذلك من خلال التصريحات المتعددة التي أطلقها السيد جاك شيراك رئيس فرنسا، و دوشاريه وزير خارجيتها، وتصريحات المسؤولين الإيطاليين بعد زيارة السيد داليما لإسرائيل وفلسطين والشرق الأوسط.

ثم إن الدول العربية هي الأخرى تدرك وتعلن أنه لا سلام بدون الفلسطينيين، كما ظهر جلياً في تصريح السيد حسن علوي وزير خارجية عمان في اجتماعه مع وزير خارجية تونس، وفي بيان الجامعة العربية والذي تضمن إعلان الدول العربية تجميدها للعلاقات مع إسرائيل إن لم تنفذ اتفاقاتها مع الفلسطينيين. والموقف نفسه أعلنته قمة الدول الخليجية مؤخراً. ثم إن الظروف السياسية العامة في المنطقة تسير كلها بهذا الاتجاه. فالعراق الذي سيبدأ ضخ نفطه قريباً تنفيذاً لقرار مجلس الأمن الذي ينص على تصدير النفط مقابل الغذاء والذي سيتيح المجال أمام العراق كقوة عربية لها وزنها في ضخ الدم في عروق التضامن العربي الذي هو بالتالي في مصلحة ياسر عرفات. ولا شك أن اجتماع السيد محمد سعيد الصحاف وزير خارجية العراق مع جلالة الملك حسين في عمان والذي تلته مباشرة زيارة خاطفة قام بها صاحب الجلالة الملك حسين لأبو ظبي لزيارة سمو الشيخ زايد بن سلطان، يمس بشكل مباشر فكرة إحياء التضامن العربي لما له في هذه المرحلة من تأثير مباشر على مسار عملية السلام ولما له من ثقل على الصعيدين الدولي والإقليمي لدفع الأمور بنفس الاتجاه، وهذا أيضاً يضيف إلى قوة الرئيس عرفات.

أما على الصعيد الأميركي فإن كلينتون الذي انتخب لدورة رئاسية ثانية هو الآن أكثر حرية على الرغم من سلاسل الكونغرس التي تفرضها الأغلبية الجمهورية، والتي قد تستخدم من قبل إسرائيل لمنع الرئيس كلينتون من اتخاذ أية خطوات ضاغطة باتجاه إتمام تطبيق الاتفاقات المعقودة مع الفلسطينيين، وعبور المرحلة الثانية من المفاوضات وهي المرحلة النهائية التي تشمل بحث مستقبل القدس ومستقبل المستوطنات التي أقيمت على الأرض الفلسطينية المصادرة في الضفة وغزة. لكن الأمور قد لا تسير كما تشتهي إسرائيل فيما يتصل بتجاوب الجمهوريين مع كل ما سيطلبه منهم نتنياهو، ففي أثناء لقائي بالسيد رونالد ليدز نائب رئيس الحزب الجمهوري الأسبوع الماضي في باريس أبلغني أن الجمهوريين يرون في الموقف الفلسطيني موقفاً معتدلاً ومعقولاً، وأنهم يؤيدون هذا الموقف ويرون في موقف نتنياهو خروجاً على الاتفاقات المبرمة، والتي كانت الولايات المتحدة شريكاً فيها. وأبلغني أن هذا الأمر سيثبت في مؤتمر الحزب القادم والذي سيعقد قريباً.

لكن هذا كله لا يكفي. إذ لا بد من التخطيط لمواجهة «الوحش» وقد تكون أفضل الخطط تلك التي تتضمن النقاط التالية:

العمل على تثبيت المواقف العربية الداعية إلى تجميد العلاقات مع إسرائيل إلى أن تحل المشاكل على المسار الفلسطيني، وهذا سيبقي العالم العربي أداة ضغط على إسرائيل.

تنمية وتنشيط الأعمال الصغيرة والمتوسطة في فلسطين زراعياً وصناعياً وسياحياً.

أما على الصعيد الدولي فلا بد من نشاط واسع لإقناع الدول الأوروبية والمانحة لإقرار التسهيلات اللازمة لشركاتها ومصارفها، والأهم هو التعامل مع فلسطين على أساس أنها دولة، حيث إن قوانين الاستثمارات الأوروبية لا تمنح المساعدات والضمانات لشركاتها إن لم تتعامل مع دولة. فالتعامل مع فلسطين على أساس أنها سلطة أو حكم ذاتي يمنع هذه الشركات من الحصول على الضمانات الكافية لاستثماراتها، وبإمكان أوروبا أن تلعب هذه الورقة لدعم ياسر عرفات ومواجهة نتنياهو. ففي فرنسا مثلاً تقوم مؤسسة (كوفاس) التي تضمن استثمارات شركات بلادها في الخارج بتقديم الضمانات الكافية لقيام مشاريعها. وكذلك بنك التصدير الإيطالي فيما يتعلق بالشركات الإيطالية التي تستثمر في البلدان الأخرى خاصة النامية منها. وعلى هذا الأساس، لو قامت أوروبا بالتعامل مع فلسطين على أساس أنها دولة، ومنحت كل هذه التسهيلات لاستثمارات شركاتها، لتبدل الوضع الاقتصادي في المنطقة، والذي بدوره يمنح الفلسطينيين قوة عظيمة في مواجهة التعنت الإسرائيلي، وسيخلق دورة اقتصادية في فلسطين تجعل المواطنين الفلسطينيين يشعرون أن عملية السلام ستجلب الخير للجميع.

لكن المهم والملحّ والضروري، هو وضع البرنامج السياسي لمناهضة مخططات الحكومة الإسرائيلية ونتنياهو عبر معسكر السلام الإسرائيلي ــ الفلسطيني، والمتمثل بقوى منظمة التحرير وحزب العمل وتشكيلات الاحزاب اليسارية الإسرائيلية، مما يجعل نتنياهو أمام مواجهة معسكر فلسطيني ــ إسرائيلي مشترك، وتخرج المواجهة عن كونها بين فلسطيني وإسرائيلي وتتسع الدائرة لتصبح مواجهة معسكر السلام المشترك لمخططات نتنياهو أكثر بروزاً ومكانة، مما يعزل الأقلية المتطرفة في المجتمع الإسرائيلي أيضاً.

بعد ضغط أميركي على حكومة نتنياهو المتطرفة، وافق نتنياهو على تسليم أربعة أخماس مدينة الخليل لمنظمة التحرير الفلسطينية كان ذلك في الخامس عشر من شهر كانون الثاني/يناير من العام ١٩٩٧.

كانت تلك هي الخطوة الوحيدة التي اتخذها نتنياهو ضمن إطار تطبيق اتفاقيات أوسلو.

ثم انقطعت اللقاءات الإسرائيلية ــ الفلسطينية قرابة سبعة أشهر.

رافقت الرئيس في رحلة لاستلام أربعة أخماس مدينة الخليل. كانت بالنسبة لي أول فرصة لأرى بأم عيني سلسلة المستعمرات الاستيطانية التي أقامها الإسرائيليون على الأراضي الفلسطينية التي صادروها من أصحابها في الضفة الغربية.

صعدنا إلى طائرته المروحية وجلست قبالته فيما استقل مرافقوه طائرة مروحية ثانية.

أقلعنا من مطار المروحيات القريب من مقر الرئيس ياسر عرفات بمدينة غزة وشقت لنا الطريق الجوي طائرة مروحية عسكرية إسرائيلية. فقد كانوا وما زالوا هم الذين يحددون خط سير مروحية الرئيس ياسر عرفات حتى في سماء أرض فلسطين.

طرنا فوق البحر بمسار دائري أدى بنا إلى سماء تل أبيب، وكانت أول مرة أشاهد فيها تل أبيب من الجو. كنا نتبادل الكلمات لكن بقي الرئيس ياسر عرفات مشدوداً لمشاهدة المناطق التي نطير فوقها.

دقائق مرت وإذا نحن نطير فوق أراضي الضفة الغربية. ابتسم الرئيس وقال لي وهو يشير بإصبعه «هذه منطقة اللطرون ــ هذه منطقة رام الله» واتجهنا شرقاً. فأشار لي أن أرى سلسلة المستعمرات الاستيطانية المحيطة برام الله قائلاً: إنها مواقع عسكرية تهيمن على بلداتنا وقرانا.

وعبرنا الأجواء نحو غور الأردن فالبحر الميت، ثم توجهنا إلى الجنوب الغربي باتجاه الخليل. وما إن اقتربنا من جبل الخليل حتى رأينا السلسلة المتواصلة من المستوطنات التي أقيمت على التلال الفلسطينية وتطوق مدينة الخليل.

إنه المخطط: تطويق المدن والبلدات الفلسطينية بمستعمرات استيطانية عسكرية لمحاصرتها دائماً وللتوسع اللاحق ثانياً.

حامت المروحية فوق مدينة الخليل واقتربت من مبنى المقاطعة هناك حيث كان من المفترض أن تهبط. لكن احتشاد مئات الآلاف لاستقبال الرئيس ياسر عرفات أجبر الطيارين على الهبوط في مكان مجاور.

هبطنا على الأرض وفتح باب المروحية ليطل الرئيس ياسر عرفات على حشد من المستقبلين الذين عانقوه بحرارة. وانهمرت دموع بعضهم من التأثير.

سرنا خلفه لكنه اختفى بلحظة، ابتلعت آثاره الحشود! أنقذني من الورطة أحد ضباط الأمن الوطني الذي حملنا بسيارته محاولاً شق الطريق نحو مبنى المقاطعة حيث الحشود الكبرى التي تنتظر الرئيس

ياسر عرفات ليلقي كلمته في يوم تحرير الخليل ـ على الأقل أربعة أخماس الخليل.

بشق الأنفس تمكنت من الوصول للمكان. كان الرئيس ياسر عرفات ممتلئاً غبطة ويتذوق من خلال تحرير الخليل حلاوة إنهاء الاحتلال كلياً ورحيله عن أرضنا بكاملها وتذوق حلاوة رفع العلم الفلسطيني على أسوار القدس الشريف.

وخلال رحلة العودة من الخليل إلى غزة ـ بعد أن أقامت المدينة له إفطاراً حاشداً (رمضان)، أطرق مفكراً ـ وكانت لحظات مؤثرة ـ فسألته: ما الخطب؟

فقال: بشق الأنفس سلمونا أربعة أخماس الخليل وأرى غيوماً قادمة. إنهم لا يريدون السلام. سوف يتراجعون عن تعهداتهم ولن يحترموا الاتفاقات.

وبالفعل أثبتت الأحداث واللقاءات التي تمت في «واي ريفر بلانتيشين» بين الرئيس ياسر عرفات ورئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو في ٢٣ \ ١٠ \ ١٩٩٨ أن الحكومة الإسرائيلية تريد أن تتنصل من التزاماتها وبشق الأنفس وافق نتنياهو على تقليص رقعة الانسحاب الثاني إلى ١٣٪ من أراضي الضفة بعد أن كان متفقاً على تسليم ٣٥٪ من أراضي الضفة الغربية للسلطة كمرحلة ثانية من الانسحاب الإسرائيلي. وجاءت موافقة نتنياهو ووزير خارجيته شارون تحت ضغط من الرئيس كلنتون. لكن نتنياهو وشارون كانا يبيتان أمراً آخر.. هو عدم تنفيذ هذا الالتزام أيضاً.

ورفض باراك ـ الذي هزم نتنياهو في الانتخابات ـ الالتزام بالاتفاقات، وراوغ في لقاءات كمب دايفيد ليتملص من التزامات إسرائيل.

ولم تُجدِ قمة شرم الشيخ.

أما في طابا فقد كاد الوفدان المفاوضان (١٩٩٩) الإسرائيلي والفلسطيني أن يصلا لاتفاق لولا تخوف باراك من أن توقيع اتفاق في طابا سوف يسبب له خسارة الانتخابات.

لكنه خسر الانتخابات رغم تقاعسه عن توقيع اتفاق طابا.

وقبل خسارته الانتخابات سمح لأرييل شارون أن يدخل المسجد الأقصى، مما شكّل خرقاً خطيراً للأعراف إذ رافقه عدد كبير من الجنود ورجال الأمن والشرطة. مما أشعل اشتباكات داخل الحرم القدسي بين المصلين والجنود المدججين بالسلاح.

وشكلت تلك الزيارة بداية مرحلة جديدة من العدوان الإسرائيلي والتوسع الاستيطاني.

كان ذلك في الثامن والعشرين من شهر أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠٠.

فاندلعت مظاهرات شعبية فلسطينية في كل أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة احتجاجاً على اقتحام شارون والجنود حرمة الأقصى. وقام الجيش الإسرائيلي بالتصدي للتظاهرات الشعبية والسلمية بالرصاص الحي والرصاص المطاطي وقنابل الغاز الخانقة.

واستمرت التظاهرات والمصادمات إلى أن فاز شارون في شهر شباط/فبراير من العام ٢٠٠١ بالانتخابات وأصبح هو رئيس وزراء إسرائيل.

وعندها بدأ العدوان الهمجي على الشعب الفلسطيني في كل مكان. فاستدعى شارون الاحتياط وزج بآلاف الجنود بآلياتهم ودباباتهم في معركة إعادة احتلال المناطق الفلسطينية بعد أن رفض تقرير ميتشل في شهر مايو (أيار) من العام ٢٠٠١.وذلك بعد أن كان قد رفض خطة تينت من قبل.

كذلك رفض شارون اقتراح الدول الثماني الكبرى بإرسال مراقبين دوليين لإنهاء الصدام الدموي بين الفلسطينيين والإسرائيليين والإشراف على وقف إطلاق النار. وكان ذلك في التاسع عشر من تموز (يوليو) من العام ٢٠٠١.

فقد كان لدى شارون مخططاته العدوانية التي أعد الجيش الإسرائيلي لتنفيذها، ولذلك رفض كل المحاولات الأميركية والدولية لوقف الاشتباكات والعودة لطاولة المفاوضات.

في تلك الأثناء أبلغتني مصادر إسرائيلية موثوقة جداً حول مخطط شارون لمحاصرة مقر الرئيس ياسر عرفات في المقاطعة ومداهمة مبانيها إذا لزم الأمر.

اتصلت بالرئيس ياسر عرفات وطلبت رؤيته فوراً. وتوجهت لمكتبه حيث كان قد تجمع عدد من القيادات السياسية والقيادات الأمنية.

كان هناك محمود عباس (أبو مازن) وجبريل الرجوب (مدير الأمن الوقائي في الضفة الغربية آنذاك) ومحمد دحلان (مدير الأمن الوقائي في قطاع غزة) وإسماعيل جبر (الحاج إسماعيل) مدير الأمن الوطني في الضفة الغربية وغيرهم.

فطلب مني الرئيس عرفات أن أتحدث بحرية أمام الجميع. ترددت قليلاً لكنني سردت له المعلومات التي وصلتني وحذرت من خطورة هذا لأنه موضوع جدي. وأذكر أنني قلت له إن الدبابات الإسرائيلية ستقف على مدخل مكتبك وليس خارج الأسوار.

وحذرته من احتمال ترجيح كفة من يطالب من الضباط الإسرائيليين باغتياله أو ترحيله.

وكما توقعت حسب المعلومات التي وصلتني حصلت الأمور. فعند فجر الثاني عشر من شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠١ قامت الدبابات الإسرائيلية بغزو مدينة رام الله وفرضت عليها منع التجول وتجمعت عشرات منها لتحيط بمقر الرئيس ياسر عرفات (المقاطعة).

في البدء قامت تلك القوات باحتلال كافة المنازل المحيطة بالمقاطعة وحجز الأطفال والنساء والرجال في غرفة من غرف منازلهم، واعتلوا أسطح البنايات بأسلحتهم المتوسطة وقنّاصيهم وراحت الدبابات تقصف المقاطعة دون توقف.

وحلقت المروحيات العسكرية فوق المقاطعة وفوق محيطها.

(٢٩)

حصار مقر الرئيس (المقاطعة)(*) الأول وتحذيره من تسميمه

كانت الساعة تشير للخامسة صباحاً عندما توقفت عشرات الدبابات عند باب مكتبي وبيتي الملاصق لمكتبي، والذي لا يبعد عن مقر الرئيس ياسر عرفات أكثر من مائة متر.

راقبت من النافذة الجنود يهبطون من حاملات الجند المحمية بالدبابات الثقيلة ويتوجهون نحو مدخل مكتبي. كنت قد تركت باب المكتب مفتوحاً كما هي عادتي.

وصعد الجنود المدججون بالسلاح إلى مكتبي. كانوا ١٥٠ جندياً.

(*) المقاطعة: مقر الرئيس عرفات ووزارة الداخلية والقيادات الأمنية في مدينة رام الله.

وتوجه خمسون منهم نحو السطح ونصبوا أسلحتهم، كما شاهدنا لاحقاً ثم قرعوا باب منزلي.

فتحت الباب لأواجه بفوهات رشاشات الجنود مصوبة لرأسي فسألتهم:

ماذا تريدون؟

هاجمني أحدهم ودفعني برشاشه نحو الحائط. وانتشروا في المنزل: في كل مكان: غرفة النوم. المطبخ. الحمامات. خلعوا الستائر وجروا المقاعد، وأعدوا استحكاماتهم لاستخدام النوافذ مواقع لإطلاق النار. كلما حاولت التحرك داخل منزلي كان الجنود يصوبون رشاشاتهم نحوي.

ومنعوني من استخدام الهاتف أو الكومبيوتر. إلّا أن زوجتي مها اندفعت نحو المكتب ونقلت الكومبيوتر المحمول للمنزل، فلم يمكنوها من استخدامه وقاموا بقطع الأسلاك لمنعها من استخدام الكومبيوتر.

وراح الجنود يتخذون مواقع قتالية. وطلبت من زوجتي مها أن تأخذ الهاتف الجوال وتحاول أن تطلب أحد الأصدقاء الإسرائيليين رغم أن الساعة كانت السادسة صباحاً.

وبالفعل قامت بالاتصال به، وهو جنرال متقاعد. لحسن الحظ أن الجنرال كان صاحياً فأجاب، وفيما هي تشرح له ما يحدث اقتحم الجنود باب الحمام فقالت على الفور: الجنرال يريد التحدث للضابط. جاء الضابط وتحدث مع الجنرال وبعدها قال الضابط

(أوكي) وأمر الجنود باللغة العبرية بالمغادرة وغادروا المكتب والمنزل والسطح واحداً تلو الآخر.

ونظر إلينا الضابط قائلاً:

«سوف تسمعون أصوات انفجارات ضخمة بعد دقائق».

ما هي إلا دقائق حتى بدأ القصف من الدبابات المحيطة بنا مستهدفاً أسوار المقاطعة وميادينها.

انقطع التيار الكهربائي وقطعت المياه. فقد قامت الدبابات والجرافات بشكل متعمد بتحطيم أعمدة الكهرباء وتفجير أنابيب المياه التي تمد الحي بما يلزمه من كهرباء وماء.

استمر العدوان الهمجي على هذا الموال أياماً وليالي طويلةً، روع خلالها الجنود الإسرائيليون الأطفال والنساء وكبار السن في مباني الحي التي استمروا في احتلالها ومنع أصحابها مغادرة الغرف التي سجنوا فيها داخل منازلهم.

كتبت في تلك الأيام في سجل ملاحظاتي ما يلي:

لو كان العالم بافلوف حياً لتأكد الآن أن نظريته (Conditioned Response) صحيحة تماماً، خصوصاً في ما يتعلق بالصوت وترابطه مع حالة نفسية محددة.

ففي رام الله الآن عشرات الآلاف من الأطفال والنساء والرجال ارتبط بذهنهم صوت هدير جنازير الدبابات بالموت والنسف والقصف والإذلال. وارتبط بأذهان الأطفال خصوصاً، هدير الجنازير

بالرعب الذي يسبب لهم ارتجافاً لمدة طويلة يرافقه بكاء ومحاولة غريزية للاختباء في أحضان أمهاتهم.

فهذا هو الإرهاب.

ورام الله تعيش الآن، بعد أن حوصر الرئيس ياسر عرفات ضمن معسكر اعتقال صغير محاط بأسلاك شائكة ودبابات، تهز ما تبقى من مقره بعد تدمير أجزاء كبيرة منه واحتلال مبانيه كلياً، رام الله تعيش عيش معسكرات اعتقال الحرب العالمية الثانية. فالتجول ممنوع، والعمل ممنوع. قطع الاحتلال الكهرباء والماء عن أحياء عديدة في المدينة. ومن لم يجرب قطع الماء والكهرباء لا يمكن أن يدرك معنى ونتائج ذلك، ابتداء من المرحاض وصولاً إلى الكومبيوتر، مروراً بمخزون الأكل الذي أتلف بسبب ذلك.

ورام الله تعيش، هذه الأيام، طقساً شديد البرودة، فالعواصف والبرد ينهال، والضباب يغلف المدينة مسدلاً عليها ستاراً من القتامة والحزن.

كنت أحب الضباب وأهوى السير على قدميّ بين ثناياه. وكنت أشعر بمتعة ذلك خصوصاً في شوارع أكسفورد، لكنني الآن، وحسب نظرية بافلوف لا أطيقه. أقول إن رام الله مغلفة بطقس بارد جداً، وهي مصيف فلسطيني كما تعلمون، ومئات الآلاف من الأطفال والنساء والرجال والشيوخ يقبعون في منازلهم أو أكواخهم دون تدفئة، لأن الكهرباء مقطوعة، وكافة أنواع الوقود مفقودة، ولا يمكن لأحد أن يبتاعها، إن وجدت، بسبب منع أي إنسان من الخروج من بيته.

فمنذ الصباح والسماء تنهال على رام الله شتاء وبرداً وتعصف الرياح بها، وكأنها تحتج على ما تفعله القوات الإسرائيلية وتعبر عن غضبها الشديد.

دفنت إحدى وعشرين جثة خلال ساعتي رفع التجول. الجثث وجدت في الشوارع، وعدد منها لم يعرف أصحابه. رفض الإسرائيليون السماح بأداء الشعائر الدينية والصلاة عليهم وتشييعهم لمثواهم الأخير. وأمروا بدفنهم جماعياً في أكياس بلاستيكية في حديقة المستشفى الذي احتفظ بجثثهم في البرادات التي لا تعمل، بسبب انقطاع الكهرباء.

الدبابات تجول وتصول في كل الشوارع، وصمت الموت يهيمن على كل البيوت والبنايات والأكواخ، حتى العصافير التي اعتادت أن تغرد كل يوم، متأرجحة على أغصان شجرتي التين والبلوط المحيطتين بمكتبي، توقفت عن التغريد. قد تكون ارتعبت هي أيضاً. وقد تكون حزينة تدمع عيونها فلا تتمكن من التغريد.

ديك جارنا توقف عن الصياح صباحاً، واختبأت دجاجاته في القن، والأسوار المحيطة بمكتبي اختفى رونقها الحجري، فقد هدمتها دبابات جيش الاحتلال وحولتها إلى ركام متناثر فوق أشجار الورد التي كنت قد زرعتها في الحديقة وأنتظر قدوم الربيع لأرى أزهارها وورودها.

حزين هو المنظر.

تخصصي حديث ويلعب دوراً مهماً في معالجة حالات خاصة. لم تحترم قوات الاحتلال حرمة المستشفى فاقتحمته معرضة حياة المرضى للخطر. وأصرت على الدخول إلى كل غرفة، بما فيها غرف الأطفال، وعيادات الأطباء وغرف العمليات. فعلت ذلك بعد أن حجزت الطاقم الطبي في غرفة. واقتادت أمامها طبيباً ليدلها على الغرف والأقسام. واقتحمت قوات الاحتلال مستشفى رام الله ترافقها كلاب بوليسية. وأدخلوا الكلاب معهم إلى جناح حاضنات الأطفال. منعوا سيارات الإسعاف من انتشال الجثث الملقاة في الشوارع، أو نقل الجرحى للمستشفيات تاركينهم ينزفون حتى الموت على الأرصفة وفي الشوارع، أو في بيوتهم التي اقتحموها.

أما عن اقتحام البيوت وإتلاف المواد الغذائية وتحطيم الأثاث وترويع الأطفال والكبار فحدّث ولا تسل.

تقوم القوات الإسرائيلية بشن حرب نفسية على الشعب الفلسطيني في المناطق التي سحقوها وأكملوا السيطرة عليها مثل رام الله.

إطلاق النار في الهواء باستمرار لترويع السكان. منع الماء والكهرباء عن السكان لترويعهم وتركيعهم.

منع التجول لإشعار السكان بالاختناق.

منع قوافل الإغاثة التموينية والطبية وإطلاق النار عليها، كما جرى أمس لقافلة الأمم المتحدة التي أرسلها كوفي أنان. فقد منعها حاجز عسكري قرب قرية قلنديا من المرور إلي رام الله. وعندما أصر مسؤول القافلة أطلقوا النار عليه فأردوه قتيلاً.

كذلك حصل مع قافلة عرب ١٩٤٨، فقد أوقفوها عند نفس الحاجز. وحاول التجمع الذي يرافق القافلة إقناعهم عبثاً، فاعتصموا هناك وتظاهروا. وما زالوا حتى هذه اللحظة يقفون عند الحاجز، ويضم هذا التجمع عرباً إسرائيليين ويهوداً إسرائيليين من أتباع حركة «السلام الآن».

هذا التصرف هو بند من بنود الحرب النفسية لتركيع الشعب الفلسطيني.

اليوم خرجت الصحف الإسرائيلية بقصة حول اتصال هاتفي بين شارون وموفاز (سُمع ــ ولا أدري كيف) تحدثا فيه حول تصفية ياسر عرفات جسدياً. طبعاً لا أستغرب إطلاقاً أن يكون هذا الأمر من شارون، أو أن يعمل على تحقيقه فعلاً. لكن الأمر، حتى هذه اللحظة، يبدو بنداً من بنود الحرب النفسية. ومع ذلك يجب أن يؤخذ بجدية كاملة. فشارون مجرم محترف وشهيته للقتل مفتوحة دائماً. ولا يعير وزناً للآخرين، ولا حتى لوعوده التي أعطاها للرئيس بوش. فجنوده الآن يحتلون الطابق الذي يشغله الرئيس ياسر عرفات من بين الطوابق الثلاثة التي يتكون منها المبنى. وهم يقفون وجهاً لوجه مع حرس الرئيس الشخصي. ويتبدل هؤلاء الجنود كل ست ساعات، بينما حرس الرئيس لا يتمكن من التبديل أو حتى من النوم أكثر من دقائق بين الفينة والأخرى. فقد حل بهم الإعياء والتعب. والماء منع عن المقر، ولا شك أن القارئ يعلم ما هي النتائج المترتبة على ذلك سواء كانت بالنسبة للمراحيض أو الاستحمام أو حتى الوضوء. والكهرباء مقطوعة أيضاً ولا شك أن القارئ يعلم أيضاً نتائج ذلك.

في الوقت الذي يتابع فيه شارون حرب التصفية الجسدية في كافة مدن الضفة الغربية بدأ يشن حربه النفسية. والسؤال هنا، ما هو الهدف الأبعد لهذه الحرب النفسية والجسدية، إضافة للأهداف التي ذكرناها؟

جوابي كلمة واحدة: التهجير!

فشارون من أصحاب الرأي الذي يقول إنه لا بد من ترحيل أعداد كبيرة من الفلسطينيين من الضفة وغزة حتى تصبح نسبة الباقين مواتية أو قريبة من نسبة المستوطنين، كي يتمكن من جلب مليون مهاجر جديد من أميركا اللاتينية.

ما زلت تحت الحصار المكثف ـ لا ماء لا كهرباء ـ لا خطوط هاتف. وذلك لأني أعمل على بعد عشرين متراً من مقر الرئيس ياسر عرفات المطوق بالأسلاك الشائكة والدبابات وناقلات الجنود. وكذا حال مقري.

لقد تجرأت فتاة فلسطينية وجازفت في اقتحام الحصار المكثف لتصل إلى مقري، وهكذا تمكنت من إرسال مقالي هذا معها.

أعلن شارون أنه أنهى المرحلة الأولى من خطته «لمحاربة الإرهاب» في فلسطين وأنه سوف يستمر في حملته لمحاربة «الإرهاب» بوسائل مختلفة.

ويبدو أنه قرر متابعة احتلال الريف ومداهمة القرى قرية قرية وبيوتها بيتاً بيتاً، واعتقال أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين واغتيال النشطاء

من كافة التنظيمات. وفوق هذا وذاك تدمير البنية التحتية للسلطة الفلسطينية وأجهزة الأمن مقرات وأفراداً وضباطاً. ومن المؤكد، كما دلت الأحداث، أن الانسحاب الذي أعلن عنه شارون، بناء على رغبة الرئيس بوش، ما هو إلا تكتيك سياسي يستهدف امتصاص نقمة المجتمع الدولي وإرضاء الرئيس بوش. لكنه في حقيقة الأمر حوّل المدن والبلدات والقرى الفلسطينية إلى معسكرات اعتقال والتسمية الأدق هي معسكرات تجميع «Concentration Camps» كما كان يسميها النازيون.

وفي الوقت ذاته تستمر حرب الاحتلال الإسرائيلي ضد الشعب الفلسطيني على الصعيد النفسي، فالتدمير والقتل والمجازر كانت دائماً وسائل شارون، لكنها لم تنجح إطلاقاً في إخضاع الشعب الفلسطيني وثنيه عن الاستمرار في النضال لتحقيق أهدافه الوطنية.

لكن شارون وحكومته اليمينية ـ اليسارية يسعون من خلال حرب التدمير والقتل والجرائم الجماعية إلى تدمير إرادة الفلسطينيين وإنزال ضربات بالكبرياء والكرامة الفلسطينية وإذلال هذا الشعب العظيم.

وربما يكون ذلك بهدف تنفيذ مخطط شارون وليبرمان لترحيل جزء كبير من الشعب الفلسطيني الذي يقيم في الضفة الغربية وقطاع غزة، وبذلك يتسنى لهذه الحكومة ضم ٥٢٪ من الضفة الغربية و٥٧٪ من قطاع غزة لإسرائيل وجلب المهاجرين اليهود من أميركا اللاتينية لاستعمار هذه الأرض.

وهكذا يحول شارون من تبقى من الفلسطينيين في الضفة وقطاع غزة إلى عمال سخرة لدى المستعمرين الجدد. لكن حسابات

شارون هذه المرة، وربما كما كانت في لبنان لن تنجح. فالشعب الفلسطيني الذي أنزلت به قوات الاحتلال الإسرائيلية كوارث ومآسي، وارتكبت بحقه الجرائم الجماعية لن يخضع لأنه يريد الحرية والاستقلال.

لقد دفع الكثير، وعلى استعداد لأن يدفع ثمن الحرية الباهظ، فالحرية كانت دائماً باهظة الثمن. لكنها ذات ثمن أكثر بكثير من حرية أي شعب آخر لأن الغزاة هم الصهاينة الذين يتحكمون، إلى حد بعيد في قرارات الأمم المتحدة، وقد وصلت الأمور إلى حد أن شمعون بيريز (الحائز جائزة نوبل للسلام) يحاول ابتزاز دول أوروبا لمنعها من الوقوف بحزم إلى جانب الشعب الفلسطيني المعذب بقوله: تذكروا ماذا فعلتم باليهود قبل قيام دولة إسرائيل. وكذلك إيهود باراك (الذي خاض في واشنطن مفاوضات كمب ديفيد وطابا)، والذي أعلن أمام اجتماع إيباك أن إسرائيل لا تنوي ولن تقبل إزاحة المستوطنات.

أما شارون، فقد أطلق العاملين في مكتبه أمس، ليبدأوا ترويج فكرة ضم خمسين بالمائة من الضفة وأنه لن يتخلى عن الكنيس في أريحا أو قبر يوسف في نابلس.

والآن نعود للمعادلة الدولية والإقليمية. كما ذكرنا، لن تأتي حسابات شارون أُكلها طالما أن الشعب الفلسطيني صامد ويتحمل كل هذه الكوارث والجرائم في سبيل نيل حريته.

لأن هذا الصمود هو الذي سيحرك العوامل الإقليمية والدولية ـ وهي بذلك أسلحة الشعب الفلسطيني الوحيدة إضافة لصموده وتحمله.

الرئيس بوش كرر موقف الولايات المتحدة من أن أساس الاستقرار في منطقة الشرق الأوسط هو إقامة دولة فلسطينية، وأن تنعم إسرائيل بالأمن، وقال مفاخراً أن شارون هو رجل السلام، وأن التاريخ سيثبت ذلك. والأمير عبد الله بن عبد العزيز ـــ الذي سيلتقي في واشنطن بالرئيس بوش ـــ أعطى بإطلاق مبادرته إمام القمة العربية الإطار الذي يضمن الأمن والسلام لإسرائيل مع جيرانها العرب.

وقرارات الشرعية الدولية تبلورت لتصبح أكثر دقة من حيث إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة، وهذا مرتبط بطبيعة الحال بالقرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ وهي حددت ذلك بوضوح تام عندما تطرقت إلى الدولة المستقلة بعد الانسحاب الإسرائيلي لخطوط الرابع من حزيران/يونيو وأن عاصمتها (القدس الشرقية).

هنا يصبح من الضروري والأساسي أن يتفهم الرئيس بوش من الأمير عبد الله بن عبد العزيز ومن الملك محمد السادس أن الأمر لم يعد يحتمل أي تأخير أو مماطلة أو تحوير، وأن على الولايات المتحدة أن تستخدم ما لديها من نفوذ كبير جداً على إسرائيل لكي تلتزم بتطبيق هذه القرارات وهذه الرؤية، وهي أن الانسحاب من الأراضي حتى خطوط الرابع من حزيران سيكون مقابل الأمن والسلام.

شارون وحكومته، كما قلنا، يريدان للشعب الفلسطيني وسلطته أن يرضخا ليتم خفض سقف توقعاتهم وطموحاتهم. أي أن ينزل بهم الضربات الجسدية والنفسية، وأن تتمركز قواته المحتلة في محيط المدن والقرى بحيث تتمكن من إنزال مزيد من الضربات متى يعنّ على باله، بحيث يرضخون لمشروعه السياسي أي مشروع الـ٥٠٪.

لكن ذلك لن يحصل. فالضمانة ليست بأعضاء القيادة جميعهم، بل بياسر عرفات الذي يخوض، وهو يعلم ذلك، معركة تاريخية. ويعلم قادة العرب جميعاً أن الموقف الصلب الذي يتخذه هو في الحقيقة موقف مساومة تاريخية مع الغزوة الصهيونية، وهو ما طرحه الأمير عبد الله بن عبد العزيز على قمة بيروت.

ولذلك فإن المطلوب من الأمير عبد الله بن عبد العزيز والملك محمد السادس أن يضعا الأمور في نصابها وبدقة لا تحتمل أي تأويل ولا تتيح أي مجال لتلاعب وخداع إسرائيلي جديد.

إن عقد الصفقة التاريخية ـ أي الأرض مقابل الأمن والسلام ـ لن يتم إلّا إذا قبض الثمن وهو:

ـ الدولة الفلسطينية المستقلة على الأرض التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧ (أي الانسحاب الإسرائيلي لخطوط الرابع من حزيران/يونيو ١٩٦٧).

ـ أن تكون عاصمتها القدس الشريف.

ـ أن تنسحب قوات الاحتلال من الجولان السوري والجولان الفلسطيني.

ـ أن تنسحب من مزارع شبعا وتعيد أرضها للبنان.

ولكي يصبح هذا الكلام أمراً قابلاً للدفع والتحقيق، كان لا بد لكل من الأمير عبد الله بن عبد العزيز والملك محمد السادس أن

يصرّا (خلال وجودهما في واشنطن) على انسحاب القوات الإسرائيلية الفوري ـ فعلاً ـ وليس قولاً، من المناطق الخاضعة للسلطة الفلسطينية، وأن تطبق ورقة تينيت وتوصيات ميتشل خلال أسبوع فقط، وأن يبدأ المؤتمر المقترح عقده في واشنطن بحضور كافة الأطراف المعنية بعملية السلام في الشرق الأوسط. وأن لا يكون هدف هذا المؤتمر سوى البحث في تطبيق قراري الشرعية الدولية ٢٤٢ و ٣٣٨ وكافة قرارات الأمم المتحدة المتصلة وإقامة دولة فلسطين المستقلة.

ما كان شارون ليشن هذا الهجوم الهمجي، وليدمر ويحاصر لولا أن الإدارة الأميركية أعطته في تلك الفترة ضوءاً أخضر، حمله له ديك تشيني نائب الرئيس بوش الذي زار إسرائيل في الثامن عشر من آذار/مارس من العام ٢٠٠٢ وفي الثالث عشر من نيسان/أبريل. وبعد جهود أوروبية وعربية تم رفع الحصار الأول عن الرئيس ياسر عرفات وانسحبت الدبابات التي كانت تحيط بنا من كل الجهات.

وجرى لقاء بين الرئيس ياسر عرفات وكولن باول وزير الخارجية الأميركي الذي حمل رسالة لشارون يطلب منه فيها الرئيس بوش إنهاء الحصار المفروض على مقر الرئيس ياسر عرفات.

(٣٠)

الحصار الثاني والوداع الأخير

ما إن انسحبت الدبابات الإسرائيلية حتى أسرعنا إلى مبنى المقاطعة لنطمئن على الرئيس ياسر عرفات الذي كانت قد قطعت عنه الاتصالات، باستثناء مرات نادرة كنا نتمكن فيها من الحديث معه عبر هاتف خلوي مربوط بالشبكات الإسرائيلية وليس بالشبكة الفلسطينية.

كانت معنوياته مرتفعة وراح يبحث معنا نيته لزيارة مخيم جنين الذي كان قد تعرض لمجزرة بشعة، وحوصر مدة أسبوعين، ودمرت الدبابات الإسرائيلية جزءاً كبيراً منه.

كان يريد زيارة المخيم ليواسي ويعزي ويطمئن على من بقي في المخيم.

الاهتمام بشعبه كان دائماً ذا أولوية لدى الرئيس ياسر عرفات.

حاول عدد من مسؤولي الأمن ثنيه عن القيام بزيارة مخيم جنين في هذا الوقت ونصحوه بأن يتريث قليلاً. إلّا أنه رفض النصيحة وأعطى تعليماته للتحضير لزيارة مستشفيات رام الله ومخيماتها وشمال الضفة الغربية لزيارة مستشفى جنين ومخيمها المنكوب.

لكن العدوان الإسرائيلي استمر واستمرت ردود الفعل الفلسطينية. وقامت بعض التنظيمات المسلحة بارتكاب أعمال مدانة من قبل السلطة كاستهداف المدنيين في إسرائيل. ورغم إدانة السلطة لهذه العمليات صعدت إسرائيل عدوانها وقصفها للأماكن والأحياء المدنية وزادت من وتيرة عمليات اغتيال الكوادر والقيادات.

ودخلت الأحداث في حلقة مفرغة من العنف والعنف المتبادل.

واتبعت الحكومة الإسرائيلية خطة لعزل الرئيس ياسر عرفات بحجة أنه إرهابي ويدعم الإرهاب وأنه ليس شريكاً مناسباً في عملية السلام، وذلك لتعطيل عملية السلام برمتها كما تريد الحكومة الإسرائيلية.

وراح وزراء حكومة شارون وأجهزة الإعلام الإسرائيلية يتهمون الرئيس ياسر عرفات بأنه يقف وراء كل عملية تفجيرية في إسرائيل، ويحملونه مسؤولية ذلك، ولفّقوا تقارير مضلّلة لتحذو الإدارة الأميركية حذو الحكومة الإسرائيلية وتقاطعه، وتوقف الاتصالات به. وقرر شارون عدم استقبال أي مسؤول يأتي لزيارة إسرائيل والسلطة الوطنية الفلسطينية ممثلة بالرئيس ياسر عرفات وذلك للضغط على

الاتحاد الأوروبي، وحتى الأمم المتحدة لاتخاذ موقف مشابه لموقف الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل. لكن الجميع كان يعلم، بما في ذلك الإسرائيليون أن موقف الرئيس ياسر عرفات، من العمليات التي تستهدف المدنيين الإسرائيليين، والفلسطينيين كان موقفاً حاسماً في إدانته لها. وكان خطه في السعي لإيجاد حل سياسي وإشاعة الاستقرار والسلام واضحاً أيضاً.

وأعلن شارون أكثر من مرة أنه نادم لتعهده للرئيس بوش بعدم المساس بالرئيس ياسر عرفات، مما يدل على نيته وتوجهه لمثل هذه الجريمة. واستعاض عن ذلك باتخاذ قرار في مجلس الوزراء الإسرائيلي بإبعاد الرئيس ياسر عرفات عن الأراضي الفلسطينية، لكنه إبقاه قيد التنفيذ دون تحديد موعد لهذا الإبعاد.

عندها قرر شارون محاصرة عرفات إلى أجل غير منظور.

في تلك الأثناء وصلتني معلومات عن حديث دار في مجلس الوزراء المصغر بين شارون وموفاز (وزير الدفاع) الذي قال لشارون «إن الوقت مناسب للتخلص من عرفات» فأجابه شارون بأنه تعهد للرئيس بوش بعدم المساس بياسر عرفات». لكنه أضاف بعد ذلك «إلا إذا كانت هناك طرق أخرى.

فكتبت للرئيس ياسر عرفات رسالة (النص الأصلي في ملحق هذا الكتاب) وصلته باليد حول نية شارون اغتياله بوسائل «أخرى» أي ليس بقصف مقره بالدبابات والطائرات، لأن هذا سيشير لإسرائيل مباشرة على أنها اغتالت الرئيس ياسر عرفات، ولكن بطرق أخرى. وأبلغته أن تجاربنا تدل أن إسرائيل تلجأ للسم والكيماويات للقيام

بذلك. وحذرته ونبهته من محاولات إسرائيلية لدس السم له. وقد أمر ياسر عرفات بتوزيع نسخ من الرسالة على كافة أعضاء القيادة وهذا نصها:

الأخ الرئيس أبو عمار حفظه الله.

تحية فلسطين.

اجتماع ظهر اليوم للمجلس المصغر لم يتخذ قراراً كما أبلغتكم. وسيجتمع بعد ساعة للبحث في القرار.

والخياران المطروحان هما:

عملية واسعة في كل المناطق بما فيها عزل أو اتخاذ خطوة حاسمة لطرد ياسر عرفات من المناطق.

أرجو الحذر. كما أرجو أن تحذر من الأكل والماء. لا تشرب إلا من زجاجة تفتحها أنت بيدك ولا تأكل هذه الأيام إلّا من معلبات مغلقة تفتحها أنت ويشتريها الخلص وصالحة زمنياً.

وأنا على استعداد أن تقوم مها زوجتي يومياً بإعداد ذلك.

لدي معلومات من جهات أنهم سيحاولون تسميمك.

كذلك أرجوك مرة أخرى كما سبق أن ذكرت لك أن تضمن الأموال، وأن تسحب أية صلاحية لأي شخص خاصة خالد من التصرف بالأموال لأن القرار الإسرائيلي هو محاصرتك مالياً وما أكتبه له مبررات مستندة لمعلومات.

الأمر خطير لأن هنالك مؤامرة تحاك ضدك عنوانها (رفع يدك عن المال) تحت حجة عدم تصرفك لشراء السلاح وتمويل الإرهاب. ورفع يدك عن الأمن ليتحكموا هم به.

أرجو أن تبقي في ذهنك ما قلته لك قبل حصارك.

(Suevival is victory) وهذا كلام من مصادر موثوقه جداً في واشنطن.

كل الولاء والوفاء لقائدي أبو عمار رمز نضالنا.

ودمتم لفلسطين.

أخوك
بسام أبو شريف

والتقيت به في اليوم التالي وتحدثنا حول هذا الاحتمال. وكان جوابه «هذه ليست أول مرة ــ لقد حاول شارون اغتيالي ١٨ مرة حتى الآن. وسيستمر».

ونبهت الرئيس ياسر عرفات للمرحلة الثانية من مخطط شارون وهي محاصرة واعتقال ياسر عرفات بمقره بالمقاطعة في رام الله وعزله عن شعبه والعالم. (نص الرسائل في ملحق الكتاب).

وفي اليوم التالي ٢٠ أيلول/سبتمبر قامت الدبابات الإسرائيلية وطائرات مروحية عسكرية بقصف مكثف للمباني في مقر المقاطعة، مما أسفر عن تدمير ١٨ بناية ونهب محتوياتها بما في ذلك الهدايا

الرمزية التي تلقاها الرئيس ياسر عرفات من رؤساء الدول على مدى العقود الأربعة الماضية.

وأبقى الجيش الإسرائيلي على المبنى الذي يقيم ويعمل فيه الرئيس ياسر عرفات بعد أن دمر جزءاً منه. وراح وزراء إسرائيليون يهددون ويتوعدون ويطالبون بترحيل ياسر عرفات وذلك باقتحام مكتبه ووضعه على متن طائرة تقله خارج الأراضي الفلسطينية.

ووصل الأمر ببعضهم إلى تحديد الصحراء الليبية مكاناً للإلقاء بياسر عرفات بعيداً عن وطنه. لكن الرئيس ياسر عرفات سخر من هؤلاء وأطلق جملته الشهيرة.

«لن أكون طريداً أو أسيراً، بل شهيداً شهيداً شهيداً».

وبذلك أصبح الحصار والاعتقال أمراً واقعياً وبدأت الدوائر الأمنية الإسرائيلية تعد وتخطط لتنفيذ قرار اغتياله بوسائل أخرى.

لم يكن الرئيس ياسر عرفات صامداً وجباراً فقط، بل كان يبث الأمل وروح الصمود في شعبه من خلال كلماته التي كانت تبث عبر الهاتف أو القنوات الفضائية. وكان كل من يزوره يشعر بأن هذا العملاق الصابر المرابط أكبر من كل أعدائه.

فقد كان يدير شؤون السلطة بكل نواحيها وهو معتقل في مقر محاط بالأعداء ومن غرفة لا ترى أشعة الشمس.

ولم يتأخر لحظة عن الاهتمام بشعبه الذي كان يعاني من التصعيد

العسكري الإسرائيلي الجنوني.. أصحاب البيوت المدمرة التي جرفتها بلدوزرات جيش الاحتلال، أسر الشهداء، الجرحى، والأسرى.

وكان يقول لي دائماً: شعبنا بأسره معتقل، مطوق، محاصر، يجوّعونه ويدمرون بيوته ومزارعه. وأنا أحد أبناء هذا الشعب.

علينا أن نستمر في الصمود والصبر لأن الفرج آت..

لم يكن يتوانى، وهو المحاصر والمعتقل، أن يتحدث بنبرة تعبوية عالية مع بعض الأخوة عندما يلمس في جديتهم نوعاً من الإحباط.

وفي إحدى الجلسات خاطب قيادياً بارزاً بالقول:

ليست هذه أول مرة نحاصَر فيها وتشن علينا المعارك. لقد صمدنا لأن شعبنا شعب جبار. وسنصمد هذه المرة ونقيم دولتنا ونرفع أعلامنا على أسوار القدس.

لكنني كنت ألمس دائماً أن في صدره شيئاً آخر. فقد كان متألماً داخلياً من هذا الحصار والاعتقال لأنه حرمه من حرية الحركة في مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة، وزيارة شعبه في مواقعه.

ولأن هذا حرمه أيضاً من حرية الحركة خارج فلسطين لحشد وحث القوى الإقليمية والعالمية على وضع حد للعدوان الإسرائيلي وخلق إرادة دولية لتطبيق الاتفاق وإجبار إسرائيل على الانسحاب من الأراضي الفلسطينية وإقامة الدولة المستقلة.

كنت ألمس ذلك.

وفي إحدى الجلسات الثنائية الخاصة قال لي الرئيس بعد أن استعرضنا الموقف سريعاً: «خاننا الأميركيون لكنهم سيندمون يوماً على ذلك. فلا استقرار في المنطقة قبل أن ينال شعبنا حريته واستقلاله».

وبدأت ألاحظ علامات تعب وإرهاق غير عادية تظهر على الرئيس منذ عيد انطلاقة الثورة في الأول من كانون الثاني/يناير في عام ٢٠٠٤.

فاستفسرت من أطبائه فقالوا «إرهاق» يجب أن يخلد للراحة لكنه لا يرحم نفسه.

وفي الرابع من آب/أغسطس (عيد ميلاده) ٢٠٠٤ كانت تلك العلائم أوضح بكثير.

وفي شهر تشرين الأول/أكتوبر لاحظت على الرئيس ضعفاً غير معهود. وقد ضمر جسده، وبهت لون خديه. جلسنا سوياً قرابة نصف ساعة نتحدث في ما يحمله المستقبل لنا وفي صعوبة الظروف والقرار الأميركي والعجز العربي. كان منهكاً جداً.

وعندما حان وقت الانصراف ودعني وعانقني خمس مرات. لم تكن هذه عادته. نظرت إليه في عينه وقلت له «أبو عمار هل أنت بخير».

أجاب: نعم، لكنني مرهق».

بعد عدة أيام، أبلغني أحد مرافقي الرئيس أنه «تعبان جداً».

توجهت فوراً لمقره. صافحته.

كانت يده ضعيفة على غير عادته. لا تكاد تقوى على المصافحة.

فسألته: ما الخطب يا أبو عمار؟

أجاب «أنفلونزا حادة ويبدو أنها أصابت أمعائي أيضاً».

وراحت أجراس تقرع في رأسي.

كلا هذه ليست أنفلونزا.

لقد شاهدت هذه الأعراض سابقاً.

لقد شاهدتها عندما سممت إسرائيل الدكتور وديع حداد.

لكنني لم أبح بما جال برأسي.

وقلت له: أنت بحاجة لرعاية طبية في مستشفى اختصاصي.

ولا بد من إجراء الاتصالات لتأمين ذلك.

فقال ــ على غير عادة أيضاً: «سوف نرى».

وازدادت حدة المرض. وبدأت نفس المظاهر تتفاقم. (كما جرى مع الدكتور وديع حداد).

وبدأ القلق يزداد. وأرسل الرئيس التونسي أطباء تونسيين والرئيس المصري أطباء مصريين إضافه لأطبائه الخاصين.

الجميع كان يبحث ويفحص بعيداً عن السبب الحقيقي لهذا الانهيار المتدرج والمتسارع.

وكنت أعلم السبب: السم.

لم أذق طعم النوم عدة أيام. ثم قررت أن أتصرف. في ساعة متأخرة من ليل الخامس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر اتصلت بالقنصلية الفرنسية. ولم أجد أحداً. فاتصلت بالملحق الاقتصادي الذي كان نائماً في بيته وطلبت منه إبلاغ قنصل فرنسا العام ريجي كوتشه، أنني أريد أن أتحدث معه لأمر ضروري. فقد رفض المناوب الأمني بالقنصلية الإفصاح عن رقمه الخاص بالطوارئ.

وبعد دقائق اتصل بي القنصل العام الفرنسي. فأبلغته أن الرئيس مريض جداً. وطلبت منه الاتصال الفوري بالوزير بارنييه لإبلاغه ذلك وأننا نطلب من فرنسا أن ترتب طائرة «المستشفى» لنقله لأفضل مستشفيات باريس لإجراء الفحوصات.

وتم ذلك وأبلغني القنصل وشكرته على جهوده.

بطبيعة الحال لا بد أن جهات أخرى عديدة قامت بالاتصالات لترتيب انتقال الرئيس إلى فرنسا. لكنني أتحدث عما قمت به في تلك الليلة.

وفي التاسع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر وصلت طائرتان مروحيتان أردنيتان لنقل الرئيس ومرافقيه لمطار ماركا في عمان

عاصمة الأردن حيث هبطت الطائرة الفرنسية المجهزة لنقله لباريس.

وتوجهت القيادات والضباط والكوادر لمهبط المروحيات في المقاطعة لوداع الرئيس.

توجهت للمقاطعة، ووقفت في الصفوف الخلفية وقلبي يعتصره الألم.

نقل الرئيس، وتدافع المودعون وبقيت في الخلف أراقب ودموعي تسيل لا إرادياً.

وعندما جاهد الرئيس أبو عمار ليرفع يده إلى فمه ويوجه قبلة للجميع.. أحسست أنه الوداع الأخير.

وعدت لمكتبي وبقيت دموعي تنهمر لا إرادياً فقد كان قلبي حزيناً حتى الموت.

في اليوم التالي لوصول الرئيس ياسر عرفات إلى المستشفى العسكري الفرنسي بباريس اتصلت بالقنصل الفرنسي العام ريجي كوتشه لأطلب تأشيرة لفرنسا كي أزور الرئيس، فأجابني القنصل: التأشيرة سهلة، لكن الأطباء يمنعون زيارة أي كان للرئيس ياسر عرفات لأنه في غرفة العناية الفائقة ولا يريدون أي زوار حتى يبقى في حال مستقرة.

ومع تضارب ما صرح به حول صحته تأكدت دون أن أفصح عن ذلك، من التشابه الكبير مع حالة الدكتور وديع حداد، وأيقنت أنني لن أرى الرئيس مرة أخرى.

وفي الثاني عشر من تشرين الثاني/نوفمبر هبطت مروحية مصرية تحمل جثمان الرئيس بعد أن أقيمت له في كل من باريس والقاهرة مراسم تشييع ووداع لائقين بمكانة هذا العملاق الذي لا يمكن أن يكون العالم بدونه كالعالم عندما كان حياً.

الملاحق

PALESTINE LIBERATION ORGANIZATION
Palestine National Authority
Office of the President



منظمة التحرير الفلسطينية
السلطة الوطنية الفلسطينية
مكتب الرئيس

No. :
Date: 03/06/2002

الأخ الرئيس أبو عمار حفظه الله.
تحية فلسطين.

اجتماع ظهر اليوم للمجلس المصغر لم يتخذ قرار. كما أبلغتكم.
وسيجتمع بعد ساعة لبحث في القرار.
[illegible] الخيار [illegible]
عملية واسعة في كل المناطق بما فيها عزل أو تنفيذ خطوة حاسمة
لطرد ياسر عرفات من المناطق.
[illegible] الحذر. كما أرجو أن تحذر من الأكل والماء. لاتشرب الا من
[illegible] أنت [illegible] ولا تأكل هذه الأيام الا من معلبات مغلقة
تفتحها أنت وتشربها [illegible] وصلاحها زمنيا.

لدي معلومات من جهات [illegible] سيحاولون تسميمك
كذلك أرجوك مرة أخرى كما سبق أن ذكرت لك أن تضمن الأموال
[illegible] من التصرف
بالأموال لأن القرار الإسرائيلي هو محاصرتك ماليا [illegible]
مبررات مستندة لمعلومات.
الأمر خطير لأن هناك مراكز [illegible] ضدك [illegible] ([illegible]
[illegible]) تحت حجة [illegible] لشراء السلاح وتمويل الإرهاب. ورفع
[illegible] عن الأمن ليتحكموا [illegible]
أرجو أن تفكر في ذلك [illegible] حصارك

PALESTINE LIBERATION ORGANIZATION
Palestine National Authority
Office of the President

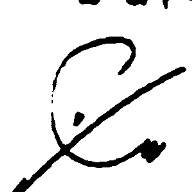


منظمة التحرير الفلسطينية
السلطة الوطنية الفلسطينية
مكتب الرئيس

No :2
Date: 03/06/2002

(Suevival is victory) وهذا كلام من مصادر موثوقة جدا في
واشنطن.
كل الولاء والوفاء لقائدي أبو عمار رمز نضالنا.
ويحفظكم لفلسطين.

أخوك
بسام أبو شريف





ياسر عرفات في مختلف مراحل حياته



مع بسام أبو شريف



مع جورج حبش وأبو إياد

مع الزعيم جمال عبد الناصر



مع الرئيس المصري محمد أنور السادات

مع الرئيس العراقي صدام حسين والرئيس المصري حسني مبارك



مع رئيس وزراء بريطانيا طوني بلير



مع البابا يوحنا بولس الثاني

مع الرئيس نلسون مانديلا



مع زعيم الثورة الإيرانية الإمام الخميني



مع الملك فيصل بن
عبد العزيز آل سعود



مع الرئيس الفرنسي جاك شيراك



مع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين



مع الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد



بسام أبو شريف وغسان كنفاني

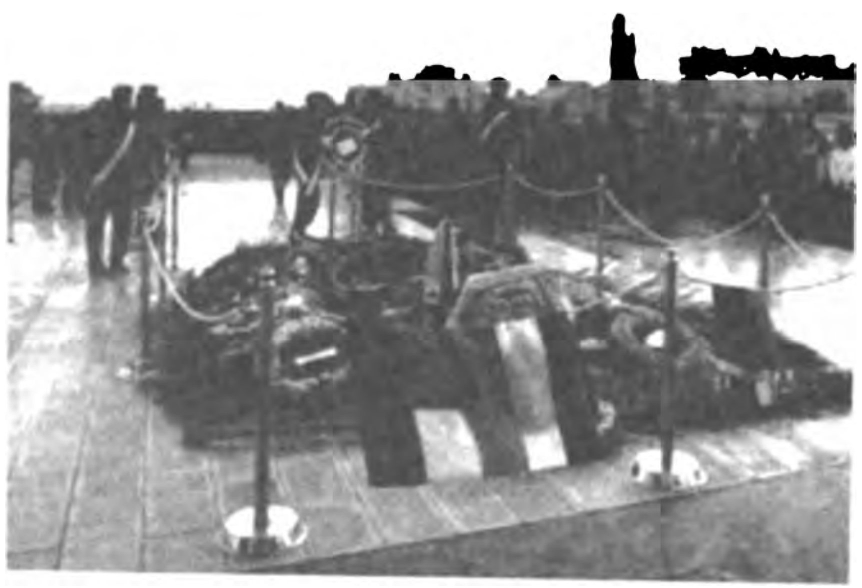


يوقع اتفاقية واي ريفر (١٩٩٨/١٠/٢٣) في البيت الأبيض



مع الرئيس الأميركي بيل كلينتون وإسحق رابين

مع الرئيس الأميركي بيل كلينتون وإيهودا باراك



فلسطينيون يصلّون أمام قبر الرئيس عرفات

نبذة عن المؤلف

ولد بسام أبو شريف في مدينة القدس.

والده توفيق خليل أبو شريف كان من أوائل الذين تخرجوا من الجامعة الأميركية ببيروت في العام ١٩٣٧ وعمل مع عبد الحميد شومان لتأسيس البنك العربي.

• أنهى دراسته الابتدائية والثانوية في مدارس الفرير ـ كلية دو لاسال.

• انتخب عضواً للمكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في العام ١٩٧٢.

• تعرض لمحاولة اغتيال قام بها جهاز الموساد الإسرائيلي في ٢٥/٧/١٩٧٢ عندما أرسل له رئيس جهاز الموساد آنذاك زفي زامير كتاباً ملغوماً انفجر في وجهه في مكاتب مجلة «الهدف» ببيروت.

• انتخب عضواً في الأمانة العامة للاتحاد العام للكتّاب والصحافيين الفلسطينيين بعد مؤتمره التأسيسي في العام ١٩٧٢.

• انتخب عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني في العام ١٩٧٤ وأعيد انتخابه عضواً حتى الآن.

• في العام ١٩٧٨ انتخب نائباً لرئيس منظمة الصحافيين العالمية.

• التحق بياسر عرفات كمستشار له في العام ١٩٨٧.

• في العام ١٩٨٨ كتب بسام أبو شريف «آفاق السلام في الشرق الاوسط». كمقال نشر في صحيفة «وال ستريت جورنال» ثم «نيويورك تايمز». وأحدث ذلك المقال هزة كبيرة على الصعيد الإسرائيلي والفلسطيني وعلى الصعيدين الإقليمي والدولي. فقد تناول دون لبس الحل السياسي الذي يقوم على أساس دولتين على أرض فلسطين ـ دولة إسرائيل ودولة فلسطين ـ استناداً إلى قرارات الشرعية الدولية وعبر مفاوضات سياسية بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية.

• في ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٨٨ وبعد نقاشات مستفيضة في مؤسسات منظمة التحرير أقر المجلس الوطني الفلسطيني الأفكار الأساسية التي ورت في المقال الذي أطلق عليه منذ ذلك الوقت: «وثيقة أبو شريف».

• في كانون الأول /ديسمبر من العام ١٩٨٨ لعب بسام أبو شريف دوراً بارزاً في الحوار السياسي عبر السويد مع الإدارة الأميركية (شولتز) للتوصل الى اعتراف الولايات المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية وبدء حوار رسمي معها.

• كتب مئات المقالات في الصحف العربية والعالمية واختارت «نيويورك

تايمز» مقاله «أعطوا السلام تأشيرة» كأحد أفضل مئة مقال نشرت على صفحات «نيويورك تايمز» خلال عشرين عاماً.

له عدة مؤلفات منها:

- **حركات التحرر والإعلام**، بيروت ١٩٧٨.
- **الحل السياسي**، بيروت ١٩٨٠.
- **أوراق أيلول**، بيروت ١٩٧٩
- **أفضل الأعداء**، ١٩٩٥.
- **بنيامين نتنياهو ـ الصعود والهبوط**، ٢٠٠٠.

وله تحت الطبع ـ **العملاق ياسر عرفات** ـ ويعدّ الآن كتاباً حول أيلول عام ١٩٧٠ ــ **عشرة أيام هزت العالم.**

- قُلد عدة أوسمة رفيعة من دول مختلفة منها: ألمانيا والاتحاد السوفياتي وفيتنام.

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

فهرس الأماكن

أ

ب